

في صحيح الحديث النبوي

الأستاذ الدكتور
عمر سليمان الأشقر




بسم الله الرحمن الرحيم


قصص الغيب
في صحيح الحديث النبوي

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م

الطبعة الأولى



العبدلي - مقابل عمارة جـوهرة القـدس
ص.ب : 927511 عـمّـان 11190 الأردن
هاتف : 5693940 - فاكس : 5693941

e-mail : alnafaes@hotmail.com
web : www.al-nafaes.com

فهرس

الزمرة الأولى من القصص: قصص يوم القيامة

الزمرة الثانية: قصص الغيب التي وقعت

الزمرة الثالثة من القصص: قصص الغيوب الآتية التي لم تقع بعد

تمهيد

الحمد لله عالم غيب السموات والأرض، أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، يعلم ما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

وأصلي وأسلم على عبد الله ورسوله محمد ﷺ النبي الأميّ الذي علّمه ربّه ما كان يجهله من أخبار السابقين واللاحقين، فعلم من ذلك علماً لم يحصله من سبقه من الأنبياء والمرسلين، فضلاً عمن هم دونهم.

وأصلي على صحبه الأخيار وآله الأطهار الذين حفظوا سنّة نبيّهم، ونقلوها لمن بعدهم، ومنها حديثه عن أنباء الغيب التي تكشف عما يكون في مقبل الأيام، في هذه الحياة، وفيما وراءها في البرزخ والقيامة والجنة والنار، وعلى من سار مسارهم، واهتدى بهديهم، واتّبع طريقهم إلى يوم الدين، وبعد:

فقد سبق أن كتبت كتاباً جامعاً لأكثر القصص الذي أنبأنا به الرسول ﷺ فيه عن أخبار الغابرين من الأنبياء والمرسلين والصالحين والطالحين، وكنت وأنا أجمع المادة العلمية لذلك الكتاب تقع عيناي على نمط آخر من القصص الغيبـي، هو قصص الغيب الآتي الذي لم يقع بعد، وهذان النوعان ممتدان في الزمان الغائب عنا، أحدهما ممتد في الغيب الماضي، وقد

كتبت فيه الكتاب الذي عنونت له «بصحيح القصص النبوي» والثاني: القصص الممتد في الزمان الآتي، وهو هذا الكتاب.

والإيمان بالغيب أصل من أصول الإيمان، لا يتم الإيمان إلا به، فالله غيبٌ، والملائكة غيب، وأشراط الساعة غيب، وأخبار البرزخ غيب، والبعث والنشور غيب، والجنة والنار غيب، حتى الإيمان بالرسل والكتب غيب، فالمراد بالإيمان بهما الإيمان بأن الرسل مبعوثون من عند الله، والكتب منزّلة من عنده، وكل ذلك غيب، فمن كَذّب بالغيب كذب الله في خبره، وكذب الرسول ﷺ فيما جاءه به من عند ربه.

والله تبارك وتعالى عالم الغيب والشهادة، لا فرق في علمه بين العالَمين، والغيب كله مدوّن في اللوح المحفوظ، لا يضيع منه شيء، ولا يتزيد فيه، ولا ينقص منه، ومنه القصص الذي أخبر به في كتابه، أو علّمه رسوله ﷺ ، وليس هو كالقصص المتخيل المفترى.

وقد أغرم البشر بالقصة الأسطورة التي تتحدث عن وقائع مفتراة، أو متخيلة، وقد يكون لها أصل، ولكن العقول البشرية أجرت فيها من التغيير والتبديل ما جعلها أقرب إلى الأسطورة منها إلى الحقيقة.

وقد برع بعض الكُتّاب والباحثين في كتابة قصص الخيال لما يتوقع حصوله، وأطلق عليه زوراً وبهتاناً اسم الخيال العلمي، وما هو بعلمي، فأكثره تخيلات كاذبة، ليس للحقيقة منها نصيب، يُدْخل البشر فيها نظرياتهم وآراءهم وفلسفاتهم فيما حجب عنهم من الغيب الآتي، ولذا فإن أكثر هذا الخيال امتداد لخيال مؤلفي أساطير ألف ليلة وليلة، وهو امتداد لما تحدث عنه الفلاسفة فيما سمى بما وراء الطبيعة؛ إن القصص

الحديثي في الغيب الآتي صدق لا كذب فيه، وحق سيقع كما أخبر به الرسول ﷺ من غير زيادة ولا نقصان، لأنه وحي أوحي إلى الرسول ﷺ به، وقد كان الرسول ﷺ يعلم أصحابه وأعداءه بالغيب الذي يدور في قلوبهم، أو الغيب الذي لم يعلم به غيرهم، أو بالغيب الذي سيقع لهم في حياتهم، فيرونه في مقبل الأيام كما أخبر به الرسول ﷺ .

جاء الرسول ﷺ رجلان يسألانه عن أمور أهمتهما، فقال لكل منهما: إن شئت أجبتك عما جئت تسألني، وإن شئت سألتني وأخبرتك، فاختار كل منهما أن يعلمه الرسول ﷺ عما جاء يسأل عنه، فلما أخبر الرسول ﷺ كلاً منهما بما يريد السؤال عنه، قال: «لا والذي بعثك بالحق، ما أخطأت مما كان في نفسي شيئاً» [موارد الظمآن: ١/ ٤٠٦، ورقمه ٨٠١].

واجتمع عمير بن وهب الجمحي بصفوان بن أمية في موضع بمكة ليس معهما فيه أحد، بعد معركة بدر، فتكفل صفوان لعمير أن يقضي عنه دينه، وأن يتحمل نفقة عياله من بعده، وتعهد عمير بأن يأتي الرسول ﷺ مظهراً أنه يريد أن يفدي ابنه الذي كان مع أسرى بدر، فيقتله، فلما رآه عمر بن الخطاب داخلاً على رسول الله ﷺ تخوفه عليه، فلببه بردائه، وأوقفه بين يدي الرسول ﷺ ، فأمره الرسول أن يتركه، وسأله عما جاء به، فلما أخبره بأن مراده فدية أسيره، فأخبره الرسول ﷺ بما وقع من اتفاق بينه وبين صفوان بن أمية، فهزّ الخبر كيانه، وعلم أنه رسول الله حقاً، وأعلن إسلامه. [راجع السيرة لابن هشام: ٢/ ٣١٦، والإصابة لابن حجر: ٣/ ٣٧].

وقد أخبر الرسول ﷺ أصحابه بالفتوح التي ستفتح عليهم، وما يكون بينهم من حروب وغير ذلك، بل كان المشركون يوقنون بذلك، كما سيأتي ذكر ذلك في بعض القصص الذي دوّنته في هذا الكتاب.

وهذا الكتاب كسابقه في جمعه للأحاديث، فذاك يجمع أكثر قصص الغيب الماضي، وهذا يجمع أكثر قصص الغيب الآتي، وفيما عدا ذلك هما يتفقان في الغاية والمقصد والمنهج، ولذا يحسن بي أن أعيد هنا ما ذكرته هناك لاتفاق الكتابين فيه.

«إن مرتبة القصص النبوي في الفضل تأتي بعد مرتبة القصص القرآني، وإذا كان القرآن كلام الله، فإن القصص النبوي أكثره وحي من عند الله، ولذا فقد اشتركا في المصدر والغاية، فإن مقاصد القصص في الحديث النبوي كمقاصد القرآن في قصصه، كلاهما يراد به تقديم الزاد للدعاة والصالحين، الزاد الروحي الذي تحمله القصة، وتسقيه أرواح المؤمنين وقلوبهم وعقولهم، فالقصة القرآنية والحديثية تسري في كيان الإنسان تياراً رقيقاً صافياً، تحمل في أحداثها وكلماتها المواعظ والفوائد، وتوجه للتي هي أقوم، وتردع المؤمن عن الآثام والمفاسد.

والكتاب كما ينبيك عنه عنوانه يقتصر على الأحاديث التي صحّ إسنادها عن الرسول ﷺ ، ولم أخالف هذا إلا في قصص قليلة موقوفة على الصحابة، صحّ إسنادها عنهم، ويحتمل أنهم سمعوها من الرسول ﷺ ، ويحتمل أنهم علموها من غيره.

وأما قصر الكتاب على صحيح الحديث دون سقيمه وضعيفه وباطله وموضوعه، فلأن نسبة الأحاديث إلى الرسول ﷺ التي لم يصح إسنادها إليه كذب على رسول الله ﷺ ، والكذب على الله وعلى رسوله من أعظم الجرائم، ولا يجوز التساهل في نسبة الأحاديث إلى الرسول ﷺ إذا كان الحديث قصة، فالقصص أخبار ووقائع غيبية.

ونحن نؤمن بالغيب الصادق، أما الإيمان بما لم يثبت عن الله ولا عن رسوله من الغيب مما لا يعرف إلا عن طريق الوحي، فإنه انحراف في المسار، وضلال في الوجهة، أضف إلى هذا أن القصص المكذوب المنسوب إلى الرسول ﷺ قد يحمل في طيّاته كثيراً من العقائد والأخلاق والقيم الباطلة التي تسري في كيان الإنسان من غير كدّ ولا عناء.

وهذا القصص مَرْكب سهل للذين يريدون إضلال المسلمين، ولذا حذر كثير من العلماء من مفاسد القصص المكذوب، كما حذروا من القصّاص الذين لا يعرفون صحيح الحديث من سقيمه، وألّفوا في التحذير منهم المؤلفات، وذلك لعِظَم خطر هؤلاء الذين جعلوا الدين أقاصيص شبيهة بالأساطير، ومن هؤلاء ما فعله بعض المعاصرين عندما أفسدوا السيرة النبوية بتناولهم لها على طريقة الأسطورة، وبذلك أفسدوا على المسلمين شيئاً كثيراً من دينهم.

وقد دللت على مواضع الحديث في كتب السنّة، وبخاصة إذا كان في الصحيحين أو أحدهما، ولكنني لم أستقص في تخريج الأحاديث وذكر رواياتها وألفاظها، وإنما ذكرت أشمل هذه القصص، فإن كان في الروايات الأخرى من العلوم والفوائد ما لا يوجد في الرواية التي سقتها، فإنني أذكرها كلها.

ولم أذكر من أحاديث أخبار الآتين ما ليس بقصة، فهناك أخبار كثيرة في الحديث النبوي تتحدث عن خلق السموات والأرض، وخلق الملائكة والجن والإنس، وعن الرسل والصالحين والطالحين، ولكنها لا تشكل قصة، ولذا لم أوردها، لأنها لا تدخل في الإطار الذي حددته لهذا الكتاب.

وسيرى القارئ أنني سلكت في تأليف هذا الكتاب مسلكاً موحداً في كل الأحاديث، فقد قدمت لكل حديث بتمهيد، هو بمثابة المقدمة للقصة، ثم سقت الحديث بنصّه، وأتبعت ذلك بذكر مواضعه في المصادر التي أخذته منها، وتناولت المفردات الغريبة بالشرح والبيان، ثم شرحت الحديث شرحاً وافياً، وختمت الكلام على كل حديث بذكر عبره وفوائده.

وسيرى القارئ الكريم أنني لم أترك العنان للفكر كي يحلق بعيداً عن النص الحديثي، فيتخيل المواقف كما يريد، ويضيف إلى المشاهد التي تضمنها الحديث مشاهد أخرى، بدعوى أننا نريد أن نصنع من الحديث رواية أو قصة مطولة، توجد فيها الحبكة القصصية والمؤثرات المختلفة.

إن هذا النهج الذي سلكه بعض الكُتّاب المعاصرين خطأ كبير، فالقصة الحديثية أكثرها وحي إلهي، وليس هناك مجال للتزيد فيها، ثم هي تحكي الأمر كما سيقع، وليست حديثاً مفترى، والتزيد فيه على النحو الذي سلكه هؤلاء الكُتّاب يجعلها حديثاً مفترى، كل ما يملكه الباحث أن يستخلص من النص ما يمكنه استخلاصه منه، وفق المنهج الذي حدده أهل العلم في استخلاص الفوائد والعبر والأحكام من النصوص» [صحيح القصص النبوي: ٥-٧].

وقد قسمت قصص هذا الكتاب إلى ثلاث زمر، يسبقها مقدمة.

أما المقدمة، فهي في تعريف القصص، وبيان أهمية القصص عامة والقصص القرآني والحديثي خاصة. وهي مأخوذة بتمامها من كتاب «صحيح القصص النبوي». والزمرة الأولى مخصصة للقصص التي ستقع في يوم القيامة، والزمرة الثانية لقصص الغيب التي وقعت بعد الإخبار بها، أو

تلك التي وقوعها مستمر كقصة رحلة الموت، والزمرة الثالثة لقصص الغيب الآتي التي لما تقع بعد.

أسأل الله تبارك وتعالى أن ينفع بهذا المؤلف عباده، وأن يرزقني أجره وثوابه، وأن أنال به دعوة صالحة من رجل صالح أنتفع بها، ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

عمر سليمان عبدالله الأشقر
كلية الشريعة – جامعة الزرقاء الأهلية
٦ من شعبان ١٤٢٦ هـ
١٠ من أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٥



مُقَدِّمَة

- تعريف القصص
- وبيان أهمية القصص عامة
- والقصص القرآني والحديثي خاصة



مُقَدِّمَة

سأتناول في هذه المقدمة تعريف القصص، ثم أبين أهمية القصص، وبخاصة القصص القرآني وقصص الحديث النبوي.

تعريف القصص:

القِصص بكسر القاف جمع، واحده قصة، والقصة في لغة العرب الأخبار المروية، والأنباء المحكية، وقد سمى القرآن ما حدثنا به من أنباء الغابرين قصصاً، ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ [طه: ٩٩]، ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٠]، ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠]، ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ [يوسف: ٣]، وسمى الله إخبار موسى والد الفتاتين اللتين سقى لهما بما كان من أخباره بالقصص ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ ﴾ [القصص: ٢٥].

وأصل القصص عند العرب تتبع الأثر، فالعليم بالآثار يسير وراء من يريد معرفة خبره، ويتتبع أثره، حتى ينتهي إلى موضعه الذي حلّ فيه. سميت حكاية الأخبار قصصاً، لأن القاص يتتبع أحداث القصة كما وقعت، ويتتبع ألفاظها ومعانيها، ولذا لا يكون المرء قاصاً حقاً إلا إذا جاء بأحداث ما يرويه على وجهه الذي وقع عليه، وقد سمى القرآن تتبع الأثر

قصصاً في قوله تعالى: ﴿ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ﴾ [الكهف: ٦٤] والمتحدث عنهما في الآية موسى وفتاه، عندما علما بمجاوزتهما المكان الذي حدده الله لهما لمقابلة العبد الصالح، فرجعا يتتبعان آثارهما، ليعودا من الطريق نفسه الذي قدما منه ليصلا إليه.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾ [القصص: ١١]، والآمرة هنا أم موسى عليها السلام ، أمرت أخته أن تتبع أثر أخيها موسى بعد أن قذفته في التابوت في النهر.

ومنه سمي قتل القاتل قصاصاً، لأن أولياء القتيل يتتبعون فعل القاتل، فيفعلون به مثل ما فعل بصاحبهم[١].

والعرب تجعل حكاية كل خبر قصة، إلا أن المتأمل فيما تعارف عليه أهل العلم والأدب أن القصة لون خاص من الأخبار ذو طبيعة خاصة، وعلى ذلك فكل قصة خبر، وليس كل خبر قصة، فما حدثنا الله به عن خلق السموات والأرض وخلق الملائكة والجن أخبار، ولكنها ليست بقصص، وما حدثنا به عن أسماء رسله وأنبيائه وأسماء آبائهم أخبار، وليست بقصص، أما أخبار الرسل مع أقوامهم، والصراع بين الأخيار والفجار فهو قصص كما أنه أخبار.

وتعرف القصة بأنها «فن حكاية الحوادث والأعمال بأسلوب لغوي ينتهي إلى غرض مقصود.

---

(١) راجع في المعنى اللغوي للقصص: المفردات في غريب القرآن: ص ٤٠٤. النهاية لابن الأثير: ٤/ ٧٠. لسان العرب: ٣/ ١٠٦ . الكليات: ص ٧٣٤.

والقصة فن أدبي قديم صاحب الأمم من عهد البداوة وإلى عهد ذروة الحضارة، ومكانتها ممتازة بين الفنون الأدبية لمرونته، واتساعه للأغراض المختلفة، ولجمال أسلوبه، وخفّته على النفوس، وقد بلغ به القرآن ذروة السمو والكمال»[1].

أسلوب القصة:

استخلص الباحثون في مجال القصة الأسلوب الذي يميز القصة عما سواها من الألوان الأدبية، وقد حدد بعض الباحثين هذه الخصائص في النقاط التالية:

١- الصفة العامة لخطة الرواية، هي الاطراد والتسلسل بحيث يشعر القارئ أنه مسوق دائماً إلى غاية، فهو في ترقب وشوق إلى النهاية.
٢- تكون القصة منسقة تنسيقاً منطقياً وتوجز، وتحذف منها التفاصيل التافهة.
٣- تكون القصة ذات مغزى رئيس يفهم من السياق بطريق غير مباشر.
٤- يجب أن تكون العبارات سهلة واضحة، لأن القارئ معنيٌّ بمجرى حوادث القصة.
٥- تنوع العبارة بين الرّقة والقوة حسب المواقف والشخصيات.
٦- تنوع الأسلوب بين القصص والوصف والحوار.
٧- من مظاهر الأسلوب القصصي المبالغة أحياناً للتنبيه إلى النقاط المهمة، وكذلك المفاجآت، والرمز، ليفتح المجال للخيال.
٨- قد يدخل الحب كعنصر ثانوي في القصص لقوته، ولأنه عاطفة مشتركة بين البشر[2].

---

(١) معجم علوم اللغة العربية، د. محمد سليمان عبدالله الأشقر: ص ٣٢٠.
(٢) معجم علوم اللغة: د. محمد سليمان عبدالله الأشقر، ص ٣٢٠.

أهمية القصص:

القصص لون من ألوان الأدب، يقبل الناس عليه ما لا يقبلون على غيره، فهو حبيب إلى نفوسهم، أثير عندهم، تهواه النفوس وتطرب له القلوب، وتصغي إليه الأسماع.

ولأهميته فقد تعددت أنواعه في هذا العصر، فمنه الرواية، وهي القصة الطويلة الكثيرة الأشخاص المتشابكة المواقف والحوادث، ومنه القصة القصيرة، وتسمى الأقصوصة، ومنه القصص الخيالية، والقصص الواقعية، والقصص الرمزية، ومن القصص الخيالي القصص الحيواني، الذي يجعل المؤلف أبطال قصته حيوانات تتكلم وتفكر، وتدبر، وتنطق بالحكمة.

وقد كثر في أيامنا كتابة القصص، وحولت كثير منها إلى مسرحيات وأفلام، تمثل القصة كما وقعت أو كما تخيلها صاحبها، وأصبحت تعرض في قاعات السينما وعلى شاشات التلفاز، وهذه الروايات الممثلة تحمل عقائد كاتبيها وأفكارهم وأخلاقهم وقيمهم، وتحرص كثير من الدول على بث ثقافتها وقيمها من خلال هذه الروايات عبر الأفلام المختلفة وعبر الكتب والمجلات، لأسْر عقول البشر وقلوبهم، ليصبحوا تبعاً لها، دائرين في فلكها.

أهمية القصص القرآني والحديثي:

وأحسن القصص، القصص القرآني المنزل من العليم الخبير، قال الله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [يوسف: ٣]، ويأتي قصص الحديث النبوي في المرتبة التالية للقرآن.

لقد اعتاد كثير من الناس أن يقرؤوا القصة للمتعة والتسلية، لأنه استقر عندهم أن أكثر القصص لا يمثل الحقيقة، وإنما هو تأليف وتلفيق،

يدلك على هذا أن كثيراً من القصص يستحيل وقوعها، فهي قصة متخيلة الوقائع والأحداث، وكثير من القصص الشعبية المروية عن الأوائل وخاصة الفرس والروم هي من هذا النوع، وكانت تدعى بالأسطورة، ومنها قصص ألف ليلة وليلة، ومن هذا القصص عند العرب قصة عنترة، وقصة أبي زيد الهلالي، وهذا النوع لا يزال له وجود قوي في أيامنا، وقد ابتكر الكُتّاب اليوم نوعاً يسمى بالخيال العلمي، يتخيل الكاتب فيه ما يمكن أن يصل إليه البشر مستقبلاً، ويصور حال الناس في ذلك الوقت.

إن القصص في القرآن وصحيح الحديث صدق كله، وحق كله، فهو يحكي أخباراً وقعت، ليس فيها نقص ولا زيادة، ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ [الكهف: ١٣]. ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ [آل عمران: ٦٢]. ولا يكون القصص حقاً إلا إذا قصّه القاص كما وقع من غير تزيد فيه، والله تبارك وتعالى منزّه عن الكذب، فلا يمكن أن يقص قصصاً لم يقع ولم يحدث، والله تعالى عليم سميع بصير، شاهد حاضر، ولذا فإنه عندما يقص علينا يقص بعلم المشاهد الحاضر ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٧].

ومتى أيقن العباد أن ما يتلى عليهم من قصص القرآن وما بلغهم من حديث الرسول ﷺ كله حق وصدق، فإنه سيكون له أثر عظيم في تقويم نفوسهم، وتهذيب طباعهم، وأخذهم العبر والعظات من هذه القصص.

وقد أمر الله رسوله ﷺ بأن يقص على الناس ما يعلمه من القصص، لعل الناس يتفكرون في أحوال الغابرين، ويقيسون أنفسهم بهم، فيأخذوا العبرة لأنفسهم، فيبتعدوا عن مسارهم إن كانوا ظالمين، ويتأسوا بهم إن

كانوا صالحين ﴿ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ ﴾ [يوسف: ١١١].

لقد كان الرسل والدعاة يأخذون العظة من قصص السابقين، وقد كان قصص القرآن وقصص الحديث النبوي ولا تزال زاداً تروي النفوس، وتثبت القلوب، كما قال تعالى: ﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠]. إن الحياة الإنسانية فوق ظهر هذه الأرض متشابهة في استقامتها وانحرافها، والنماذج البشرية المنحرف منها والمستقيم نماذج مكررة، ولذا فإن القرآن الكريم والحديث النبوي يحدثنا كل منهما أحاديث نجد فيها أنفسنا، أو نجد فيها رجالاً من حولنا، فكأنما النصوص وهي تروي قصة فلان تحدثنا عما نعانيه من البلاء، أو ننعم به من الرخاء، أو كأنما هي تحدثنا عن الحاكم العادل الذي يعيش بيننا، أو الجبار الطاغية الذي يصول ويجول مفسداً في الأرض، وقد تحدثنا عن نماذج إنسانية عادية، فقد يكون المتحدث عنه مزارعاً صالحاً، أو تاجراً أميناً صادقاً، أو إنساناً رحيماً، وقد نرى هذا النموذج في فلاح نعرفه، أو تاجر نعامله، أو رجل أصابتنا نفحات من رحمته.

إن القصص القرآنية والحديثية تمثل الصورة الواقعية والعملية التي ترسم التعاليم القرآنية في مشاهد نابضة بالحياة، وكثير من الناس يرون الحق من خلال الواقع العملي أكثر مما يعرفونه من خلال التعاليم المجردة، ولذا فإن المستقيم من البشر قد يؤثر مسلكه في الناس أكثر ما تؤثر أقواله فيهم.

* * *

الزمرة الأولى

قصص يوم القيامة



القِصَّةُ الأُولَى
ويلك يا ابن آدم ما أغدرك

تمهيد

يبكت الله عدة مرات رجلاً يوم القيامة، لأنه يعاهد ربّه مرة بعد مرة أن لا يسأله غير ما أعطاه، وفي كل مرة لا يفي بعهوده مع ربّه، هذا الرجل هو آخر أهل النار خروجاً من النار ودخولاً الجنة.

نص الحديث

روى أبو هريرة ﷺ أن الرسول ﷺ حدّث عما يكون من حساب الله العباد في يوم المعاد، ومرور الناس على الصراط، ثم قال: «ثم يَفرغ الله من القضاء بين العباد، ويبقى رجلٌ مقبلٌ بوجهه على النار هو آخِرُ أهل النار دخولاً الجنة، فيقول: أي ربِّ اصرف وجهي عن النار، فإنه قد قشبَني ريحها وأحرقني ذكاؤُها، فيدعو الله ما شاء أن يدْعوه، ثم يقول الله: هل عَسَيْت إنْ أعطِيتَ ذلك أن تسألني غيرَه؟ فيقول: لا وعزّتك لا أسألك غيرَه، ويعطي ربه من عهودٍ ومواثيقَ ما شاء، فيصرفُ الله وجهه عن النار، فإذا أقبل على الجنة ورآها سكتَ ما شاء الله أن يسكتَ، ثم يقول: أيْ ربِّ قدِّمني إلى باب الجنة، فيقول الله له: ألسْتَ قد أعطيتَ عهودَك ومواثيقكَ أن لا تسألني غيرَ الذي أُعطيتَ أبداً، ويلك يا ابن آدمَ ما أغْدَرَك، فيقول:

أي ربِّ، ويدعو الله حتى يقولَ: هل عَسَيْتَ إن أعطيت ذلك أن تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزَّتِك لا أسألك غيرَه، ويعطي ما شاءَ من عهود ومواثيقَ فيقدمه إلى باب الجنَّةِ، فإذا قام إلى باب الجنَّة انفهقت له الجنة فرأى ما فيها من الحَبرة والسرور، فيسكُتُ ما شاءَ الله أن يسكُتَ، ثم يقول: أيْ ربِّ أدخِلني الجنة، فيقولُ الله: ألستَ قد أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسأل غيرَ ما أُعطيت؟ فيقول: ويلك يا ابن آدمَ ما أغدَرك، فيقال: أي ربِّ لا أكوننَّ أشقى خلْقِك، فلا يزالُ يدعو حتى يضحَكَ الله منه، فإذا ضحك منه قال له: ادخل الجنة، فإذا دخلها قال الله له: تمنَّهْ فسأل ربَّه وتمنَّى، حتى إنَّ الله لَيُذكِّرُهُ، يقول: كذا وكذا حتى انقطعت به الأمانيُّ، قال الله: ذلك لك ومثله معه».

تخريج الحديث

روى هذا الحديث البخاري في صحيحه عن أبي هريرة في كتاب التوحيد، باب ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢]. ورقمه: [٧٤٣٧] ورواه في مواضع أخرى من كتابه، انظره برقم: [٨٠٦، ٦٥٧٣] وهو في صحيح مسلم: [١٨٢].

غريب الحديث

قَشَبني ريحها : آذاني وأهلكني.

وأحرقني ذكاؤها : لهبها وشدة حرارتها.

انفهقت : انفتحت واتسعت.

شرح الحديث

هذه قصة آخر أهل النار خروجاً من النار ودخولاً الجنة، يخرج من النار زحفاً أو حَبْواً كما جاءَ في بعض الأحاديث، ويبقى وجهه مصروفاً تلقاء النار، فترعبه بمنظرها وتلفحه بحرّها وسمومها، فيدعو ربّه أن يصرف وجهه عنها، فيقول: (أي رب اصرف وجهي عن النار، فإنه قد قشبني ريحها، وأحرقني ذكاؤها، فيدعو الله بما شاء الله أن يدعوه) فيقول الله له: (هل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسألني غيره؟ فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره، ويعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء) فيصرف ربّه وجهه عن النار، ويحول بينه وبين ما كان يأتيه من عذابها، ويصبح وجهه تلقاء الجنة.

ويسكت هذا الرجل ما شاء الله له أن يسكت، فهو يذكر عهوده مع ربّه أن لا يسأله غير ما سأله، ولكن رغبته في القرب من الجنة، والأنس بأهلها تتعاظم في نفسه، ولا يزال الأمر به حتى يدعو ربّه سائلاً إياه أن يدنيه ويقرّبه إلى باب الجنة.

فيلومه ربّه، على عدم وفائه بما عاهده عليه، ويؤنّبه على ذلك ويوبخه قائلاً له: (ألست قد أعطيتك عهودك ومواثيقك أن لا تسألني غير الذي أعطيت أبداً؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك). فيستمر ذلك الرجل في الدعاء والطلب والرجاء، فيسأله ربّه كما سأله أول مرة: (هل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسأل غيره؟) فيقول كما قال في المرة الأولى: (لا وعزتك لا أسألك غيره، ويعطي ما شاء من عهود ومواثيق، فيقدّمه إلى باب الجنة).

فإذا وقف ببابها ووقع نظره على ما فيها من الحبرة والسرور، ورأى عبر بابها أنهارها الجارية، وحدائقها الغنّاء، ولعله جاءَه شيء من طيب هوائها، وفَيْح عبيرها، ورأى النعيم الذي يتقلب فيه أهلها، فسكت ما شاء الله أن يسكت، وأخيراً طفح به الكيل، ونفد منه الصبر، فخاطب ربّه السميع العليم الرحمن الرحيم داعياً إياه أن يدخله الجنة.

(فيقول له ربّه: ويلك يا ابن آدم ما أغدرك) فيقول لرب العزة: (أي رب لا أكون أشقى خلقك).

وأخيراً جاءه الفرج، فقد ضحك الله من حاله في دعائه وسؤاله، وإخلافه العهود في سبيل حصوله على المأمول، ومن ضحك الله إليه فقد فاز فعند ذلك يقول له ربه: (ادخل الجنة)، وبذلك تحققت آماله، وزال عنه بلاؤه، وأحلَّ الله عليه رضوانه، ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وعندما يدخله الجنة، يقول له: تمنَّه، فيتمنى حتى تنقطع به الأماني، ويذكره الله من الأماني ما لم يذكره، فيقول الله له: (ذلك لك ومثله معه). وكان أبو سعيد الخدري يسمع حديث أبي هريرة يحدّث به عن رسول الله ﷺ ، فأخبر أنه حفظ من رسول الله ﷺ قوله: (وعشرة أمثاله معه).

وقد روى ابن مسعود عن رسول الله ﷺ قصة آخر أهل النار خروجاً من النار ودخولاً الجنة، وفيها بعض الاختلاف عما رواه الشيخان عن أبي هريرة، ولعلهما قصتان.

فقد وصف الرسول ﷺ في حديث ابن مسعود مرور ذلك الرجل على الصراط، (فهو يمشي مرّة ويكبو مرّة، وتسفعه النار مرّة، فإذا ما جاوزها

التفت إليها، فقال: تبارك الذي نجاني منك، لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين).

ويبقى هذا الرجل بعد نجاته من النار في العراء بين الجنة والنار، فترفع له من بعيد شجرة وارفة الظلال عندها عين ماء (فيقول: أي ربِّ أدنني من هذه الشجرة، فلأستظل بظلّها وأشرب من مائها، فيقول الله عز وجل: يا ابن آدم لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها. فيقول: لا يا رب، ويعاهده أن لا يسأله غيرها، وربّه تعالى يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه). ويحقق الله طلبه، فيدنيه منها، فيستظل بظلّها، ويشرب من مائها.

ثم تتراءَى له من بعيد شجرة أخرى، تفوق الشجرة الجالس تحتها حُسْناً وجمالاً، وكثرة ظلال، ووفرة ماء، فيطلب من ربّه أن يدنيه إلى تلك الشجرة، فيلومه ربّه على عدم وفائه وإخلاله بعهوده، ويقول له: (لعلي إن أدنيْتُكَ منها تسألني غيرها) فيعاهد ربه كما فعل في المرة السابقة، فيدنيه إلى تلك الشجرة، فيستظل بظلها، ويأكل من ثمرها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة ثالثة عند باب الجنة تفوق الشجرتين الأوليين حُسْناً وجمالاً ومنظراً وثمرةً ووفرة ماء، وزاد من حسن رونقها أنها عند باب الجنة.

وكما فعل فيما سبق فعل هذه المرة، فطلب من ربّه النقلة إليها، فيذكره ربه بما كان منه من عهود، ويلومه على نقضه لها، فيعاهد ربّه أن لا يسأله غيرها، فيدنيه منها، فإذا به وقد وصل باب الجنة، يشمّ عبيرها، ويسمع أصوات أهل الجنة، وهم يرفلون في حلل السعادة، وينعمون بطيب العيش، فيطلب من ربِّ العزة أن يُدخله إياها.

عند ذلك يقول له ربُّ العزة: (ما يَصْرِيني - أي: يقطع مسألتك عني - منك؟ أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ قال: يا رب، أتستهزئ مني وأنت رب العالمين؟).

فضحك ابن مسعود فقال: ألا تسألوني ممَّ أضحك؟ فقالوا: ممَّ تضحك؟ قال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ ، فقالوا: مم تضحك يا رسول الله؟ قال: (مِن ضِحْكِ ربِّ العالمين حين قال: أتستهزئ مني وأنت ربّ العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزئ منك، ولكني على ما أشاء قادر) [رواه مسلم: ١٨٧].

وذكر ابن مسعود في رواية عنه في الحديث السابق أنه عندما يقول الله عز وجل لذلك الرجل: اذهب فادخل الجنة، يأتيها فيخيل له أنها ملأى، فلا موضع له فيها، فيأمره الثانية ثم الثالثة، وفي كل مرة يخيل له كما خُيّل إليه في المرة الأولى.

عند ذلك يقول له رب العزة: (اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا، وعشرة أمثالها، أو إن لك عشرة أمثال الدنيا) عند ذلك يقول الرجل: (أتسخر بي - أو أتضحك بي - وأنت الملك)؟ [مسلم: ١٨٦].

وفي حديث المغيرة بن شعبة: أن موسى سأل ربّه عن أدنى أهل الجنة منزلةً، وأنه يقال لهذا الرجل (ادخل الجنة، فيقول: أي رب، كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلْكِ مَلِكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت ربّ، فيقول: لك ذلك ومثله، ومثله ومثله ومثله ومثله، فقال في الخامسة: رضيت ربّ، فيقول: هذا لك

وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذت عينك، فيقول: رضيت رب) [مسلم: ١٨٩].

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- سعة الجنة، وعِظَم ما يناله أهلها فيها، فإذا كان ما يناله آخر من يدخل الجنة بهذه السعة والكثرة، فإن من تقدّم عليه ينالون من الفضل ما لا يقدره إلا الله، أما أصحاب الدرجات العُلَى فهم (الذين غرس الله كرامتهم بيده، وختم عليها، فلم ترَ عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، قال (أي الرسول ﷺ): ومصداقه في كتاب الله عز وجل: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة: ١٧]). [رواه مسلم عن المغيرة: ١٨٩].

٢- هذه الأحاديث المخبرة بالغيوب وأمثالها يجب تصديقها لصحة أسانيدها إلى رسول الله ﷺ ، فمن ردّها فهو على شفا هلكة.

٣- في الحديث دليل واضح لأهل السنّة والجماعة الذين يقولون بإمكان دخول عصاة الموحدين النار، ثمّ يخرجون منها برحمة أرحم الراحمين.

٤- قلّة صبر الإنسان على ما هو فيه من الرخاء، وتطلّبه لما هو أفضل مما هو فيه، كما وقع لهذا الرجل الذي هو آخر أهل النار خروجاً من النار ودخولاً الجنة.

٥- غدر الإنسان وعدم وفائه بعهوده حتى مع ربّه، وإعذار الله لابن آدم لأنه يعلم أنه يرى ما لا قدرته له على الصبر عليه.

٦- مدى رحمة الله بعباده واستجابة دعائهم، وتحقيق مطالبهم التي سألوها، كما فعل الله بهذا الرجل، فما زال يستجيب له حتى أدخله الجنة.

٧- بيان ما أعطى الله ابن آدم من قدرات، فما زال هذا الرجل يحاور ربّه ويدعوه، مرة بعد مرة حتى نال النعيم المقيم.

٨- إثبات صفة الضحك لله رب العالمين، فلا يجوز أن يثبت الرسول ﷺ الضحك لربّه، ثم ننكر عليه ما أثبته، فذاك من سوء الأدب مع الله ومع رسوله، وضحك الله لا يشبه ضحك المخلوقين، بل هو يليق بعظمته وكبريائه، على حدّ قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

* * *

القِصَّةُ الثَّانِيَةُ
اليوم لا أعصيك يا إبراهيم

تمهيد

يلقى إبراهيم خليل الرحمن أباه في الموقف العظيم، فيلومه على ما كان من عصيانه له في الدنيا، فيعده أن يطيعه في ذلك اليوم ولا يعصيه، فتوجّه إلى ربّه في أبيه، فهل تنفع شفاعة خليل الرحمن أباه؟ هذا ما يقصّه علينا هذا الحديث.

نص الحديث

عن أبي هريرةَ ﷺ، عنِ النبيِّ ﷺ قال: (يَلقى إبراهيمُ أباهُ آزرَ يومَ القيامةِ، وعلى وَجْهِ آزرَ قَتَرَةٌ وغَبَرة، فيقول لهُ إبراهيمُ: ألم أقُلْ لكَ لا تَعصِني؟ فيقولُ أبوهُ: فاليومَ لا أعصيكَ. فيقولُ إبراهيمُ: يا رب إنكَ وَعَدتَني أن لا تُخزِيَني يومَ يُبعثون، فأيُّ خِزْيٍ أخزى من أبي الأبعَد؟ فيقولُ الله تعالى: إني حرَّمتُ الجنةَ على الكافرين. ثمَّ يُقال: يا إبراهيمُ ما تحتَ رِجلَيكَ؟ فيَنظرُ فإذا هو بذِيخٍ مُلْتَطخ، فيُؤخذُ بقوائمهِ فيُلقَى في النار).

تخريج الحديث

أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥]. [ورقمه: ٣٣٥٠] وطرفاه في البخاري: [٤٧٦٨، ٤٧٦٩].

غريب الحديث

الغبرة : الغبار الناشئ من التراب.

القترة : السواد الكائن عن الكآبة.

بذيخ : الذيخ، ذكر الضباع، والأنثى ذيخة.

شرح الحديث

يلقى إبراهيم عليه السلام وهو خليل الرحمن في عرصات القيامة أباه آزر، وقد علاه ما يعلو الكفار من الذلّة والصغار والغبرة والقترة.

وكان إبراهيم قد حرص كل الحرص على هداية أبيه في الدنيا، وقدّم له النصح، وفقّهه وعلّمه، ووعظه وأرشده، ولكنه أبى إلا الاستمساك بدين الآباء والأجداد، والتديّن بعبادة الأصنام والأوثان، وفاصل ابنه لخروجه عن طاعته وملّته، وطالبه بهجرانه وعدم الاقتراب منه، ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ۞ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۞ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ۞ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ۞ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤١-٤٦].

ذلك هو ما وصل إليه الحال بين إبراهيم وأبيه في الدنيا، وهنا يلقاه في عرصات القيامة، وهو على تلك الحال من البؤس والنكد والشقاء، فيذكّره

بنصحه إياه في الحياة الدنيا، وكيف نهاه عن عصيانه، فقال: (فاليوم لا أعصيك يا إبراهيم).

لقد وصف الله تبارك وتعالى إبراهيم عليه السلام بأنه ﴿ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٤] ويصحب إبراهيم حلمه حتى في يوم الدين، فيخاطب ربّه مطالباً إياه أن يفي له بما وعده به في الدنيا، فقد وعده أن لا يخزيه في الموقف العظيم ﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۞ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٧-٨٩].

فيقول لربه في ذلك اليوم: (يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟) إنك إن أدخلت أبي النار، فيراه من يعرفه من أهل النار، وقد يراه من يعرفه من أهل الجنة، فيعلمون أنه أبي فأُخزى به.

فيقول ربّ العزة والجلال لإبراهيم: إني حرمت الجنة على الكافرين، وهو قول فصل لا استثناء له، ولكنه يحقق لإبراهيم النجاة من الخزي، بغير إدخال والده الجنة، فقد مسخه الله ذيخاً، أي: ضبعاً، ويقول لإبراهيم: انظر إلى ما تحت قدميك، فإذا به ينظر إلى حيوان قذر نتن، يتلطخ بقاذوراته وأوساخه، وعند ذلك تتلاشى الرحمة التي في قلب إبراهيم لأبيه وتتوارى، فالجنة ليست محلاً لمثل هذه القاذورات والأوساخ، لقد تلطخ والد إبراهيم بنجاسات الشرك، وقاذورات الذنوب، ومكان مثل هذه القاذورات النار، وهذا ما فُعِلَ بذلك الحيوان النجس الذي كان والداً لإبراهيم، نعوذ بالله من الخذلان.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- إمكان التقاء الإنسان مع أبيه أو زوجته وإخوانه في عرصات القيامة.

٢- حال الكفرة في ذلك اليوم العصيب، إذ تعلوهم الكآبة والذلّة والصغار.

٣- لا ينفع الإيمان في يوم القيامة، كما لم ينفع والد إبراهيم طاعته لابنه في ذلك اليوم.

٤- لا تنفع شفاعة الصالحين في الكفرة الضالين في يوم الدين، ولو كان الشافع إبراهيم، فالجنة لا يدخلها كافر.

٥- يحقق الله لإبراهيم وعده له بأن لا يخزيه في يوم الدين بمسخ أبيه ضبعاً، فلا يعرف بعد ذلك أحد أن هذا الحيوان والد إبراهيم.

٦- قدرة ربّ العباد على مسخ الإنسان حيواناً، وقد مسخ الله في الدنيا بعض البشر قردةً وخنازير.

٧- فيه الرد على بعض الفرق الإسلامية الذين زعموا بأن آباء الأنبياء وأمهاتهم في الجنة، لا يدخلون النار بحال، وزعموا أن آزر عم أبيه، وفي الحديث تصريح أن آزر كان والد إبراهيم لا شك في ذلك.

٨- وجه مسخ والد إبراهيم ضبعاً، أن الضبع حيوان أحمق، وآزر كان كذلك، فإنه أصرّ على كفره بعدما رأى الآيات الدالّة على صدق إبراهيم.

* * *

القِصَّةُ الثَّالِثَةُ
طاشت السجلات وثقلت البطاقة

تمهيد

هذا الحديث يحكي قصة عبد من عباد الله أثقلت كاهله الذنوب، وأخرست لسانه الأوزار، كيف لا وذنوبه وخطاياه التي دوّنها الكرام الكاتبون ملأت تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مدّ البصر، ولكن الله يُخرج له بطاقة صغيرة ترجح بتلك السجلات.

نصّ الحديث

عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنَّ الله سَيُخَلِّصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلاَئِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلاً، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ثمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئاً؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ يقول: لا يا ربِّ. فيقول: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فيقول: لا يا ربِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، وإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فيقول: يا ربِّ ما هذه البطاقَةُ، مع هذه السِّجِلاَّت؟ فَقَالَ: فَإِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ. قال: فَتُوْضَعُ السِّجِلاَّتُ في كَفَّة، والبطاقَةُ في كَفَّة، فَطَاشَتِ السِّجِلاَّت، وَثقُلَت البطَاقَة، فَلا يَثقل مَعَ اسْمَ الله شَيء).

تخريج الحديث

رواه الترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله [٢٦٣٩]. وقال الترمذي فيه: «هذا حديث حسن غريب» وحكم عليه الألباني بالصحة في صحيح الترمذي: [٢١٢٧]. وهو في صحيح ابن ماجه برقم: [٤٣٠٠].

غريب الحديث

سجلاً : السجل الكتاب الكبير.

بطاقة : رقعة صغيرة.

طاشت : خفّت.

شرح الحديث

هذا رجل من هذه الأمة أحصت عليه ملائكة الرحمن تسعة وتسعين سجلاً من الذنوب، كل سجل مثل مدّ البصر، ويَعرض الله عليه كتابه، ويقول له: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، ويطالب بأن يأتي بعذر، فلا يجد عذراً، وظنّ أنه هالك لا محالة.

عند ذلك يقول له رب العزة: بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم اليوم، وتخرج له بطاقة واحدة، فيها إقراره بالشهادة لله بالوحدانية، ولمحمد ﷺ بالرسالة، ويقول له: احضر وزنك.

أي وزن هذا، تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مدّ البصر، مع رقعة صغيرة مكتوب فيها الشهادتان، ولذلك يقول هذا الرجل لرب العزة:

يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: فإنك لا تُظلم، وكانت المفاجأة عظيمة عندما ترجح البطاقة الصغيرة بالسجلات الكبيرة، وصدق رسول الله ﷺ : ((ولا يثقل مع اسم الله شيء)).

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- بيان فضل التوحيد وما يكفره من الذنوب، فتوحيد هذا الرجل رجح بذنوبه.

٢- الكرام الكاتبون يدوّنون على العبد أعماله صالحها وطالحها، ويخرج له هذا في يوم القيامة في كتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها.

٣- توضع المدوّنات التي فيها صالح الأعمال في كفّة، والتي فيها طالح الأعمال في كفّة، ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣].

٤- الميزان الذي توزن به أعمال العباد له كفّتان.

٥- وزن الأعمال يكون علانيةً يحضره الناس، ومن ينجو يخلص من الخزي والعار والشقاء علانيةً في ذلك اليوم.

* * *



القِصَّةُ الرَّابِعَةُ
قد عملت أشياء لا أراها هاهنا

تمهيد

هذه الكلمة التي عنونت بها لهذه القصة يقولها رجل يكون آخر الناس خروجاً من النار ودخولاً الجنة، عندما تعرض عليه صغار ذنوبه دون كبارها، وعندما تعلمه الملائكة أن الله بدّلها له حسنات، يسأل عن ذنوبه العظام لِمَ لا يراها فيما عُرِضَ عليه من الذنوب، والتي كان قبل قليل متخوّفاً من أن تُعرض عليه.

نص الحديث

عَنْ أَبي ذرٍّ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : (إِنِّي لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً الْجَنَّةَ. وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجاً مِنْهَا. رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا. فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ. فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، كَذَا وَكَذَا. وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، كَذَا وَكَذَا. فَيَقُولُ: نَعَمْ. لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ. وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ. فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً. فَيَقُولُ: رَبِّ! قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لاَ أَرَاهَا هَهُنَا. فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ).

تخريج الحديث

أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلةً، رقم: [١٩٠] والترمذي في كتاب صفة جهنم، باب ما ذكر من يخرج من النار من أهل التوحيد، ورقمه: [٢٥٩٦].

غريب الحديث

مشفق : خائف

شرح الحديث

يحدثنا الرسول ﷺ في هذا الحديث مما علّمه ربّه، فقد علّمه قصة رجل أُدخل النار بسبب كثرة ذنوبه، ثم يُخرجه ربّه من النار بتوحيده، هو آخر رجل يدخل الجَنَّةَ ويخرج من النار، يُؤتى به في ذلك اليوم، ويطلب الله من ملائكته أن يعرضوا عليه صغار ذنوبه، ويرجئوا عرض الذنوب الكبار عليه، فيقول له المكلفون بذلك من الملائكة: عملت في اليوم الفلاني العمل الفلاني، وفي اليوم الفلاني العمل الفلاني، وهكذا، وهو في ذلك كله مقر معترف، خائف وجل من عرض الذنوب الكبار عليه.

ولكن عندما يقولون له: إن لك مكان كل سيئة حسنة، يتبدل حاله، ويبادر هو بالاعتراف بالذنوب العِظام، لينال مكانها حسنات بقدرها، فيقول: رب، قد عملت أشياء لا أراها هاهنا.

ويضحك الرسول ﷺ حتى بدت نواجذه، وإنه لموضع يضحك منه ويتعجب، فبينما هو خائف وجل من عرض كبار ذنوبه عليه، إذا به هو

يبادر بالسؤال عنها لِمَ لا يراها مدوّنة في صحائف أعماله، فسبحان الذي وسعت رحمته كل شيء.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- أصحاب الكبائر من الموحدين لا يخلدون في النار، بل يخرجون منها برحمة أرحم الراحمين وشفاعة الشافعين كما هو حال هذا الرجل.

٢- قد يكون هذا الرجل هو الذي ذكرنا قصته آنفاً، وقد يكون هو غيره، والمراد أن هذا وهذا من آخر من يخرج من النار ويدخل الجنة.

٣- سعة رحمة الله بعباده في غفران ذنوبهم، وتبديلها حسنات في ذلك اليوم، وقد يقال ألا يسبق هؤلاء الذين كثُرت ذنوبهم عندما تُبدّل سيئاتهم حسنات الذين قلّت سيئاتهم وكثُرت حسناتهم، والجواب: أن السيئة عند هؤلاء تصبح حسنة واحدة، بخلاف الذين عملوا الصالحات فإن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعين ضعفاً إلى سبعمائة ضعف، إلى أكثر من ذلك، فكيف يسبقونهم!! .

٤- لا حرج على من ضحك وتعجّب في المواقع التي يضحك فيها ويتعجب كما ضحك الرسول ﷺ من حال صاحب القصة وتعجب، ولكن الأعم الأغلب أن ضحك الرسول ﷺ كان تبسّماً.

* * *



القِصَّةُ الخَامِسَةُ
دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء

تمهيد

الجنة كما أخبرنا ربنا تبارك وتعالى: ﴿ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ ﴾ [الزخرف: ٢١] وقد أخبرنا رسولنا ﷺ : أن رجلاً اشتهى في الجنة أن يزرع، فما كاد يبذر حبَّه حتى تمت كل مراحل الزرع في لحظة واحدة.

نص الحديث

عن أبي هريرة أن النبيَّ ﷺ كان يوماً يُحدِّثُ وعندَه رجلٌ من أهلِ الباديةِ: (أنَّ رجلاً من أهلِ الجنة استأذنَ ربَّهُ في الزَّرع فقال له: أوَلستَ فيما شئتَ؟ قال: بلى، ولكني أحبُّ أن أزرعَ، فأسرعَ وبذر فتبادَرَ الطرفَ نباته واستواؤه واستحصادُه وتكويرُه أمثالَ الجبال، فيقول الله تعالى: دونَك يا ابن آدم فإنه لا يُشبعُك شيءٌ)، فقال الأعرابيُّ: «يا رسولَ الله لا تجِد هذا إلاَّ قُرشياً أو أنصارِيّاً فإنَّـهم أصحابُ زَرْع، فأمَّا نحن فلَسنا بأصحابِ زَرْعٍ، فضحِك رسولُ الله».

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد، باب كلام الربّ مع أهل الجنة. [ورقمه: ٧٥١٩]. وانظره في كتاب المزارعة: [٢٣٤٨].

غريب الحديث

بذر : ألقى الحَبَّ في الأرض.

تبادر الطرف : أي أن عينه لم تستطع ملاحقة مراحل ما يكون عليه الزرع من النبات والاستواء والاستحصاد، وأن ذلك تم في لحظة واحدة.

دونك : خذه.

شرح الحديث

أخبرنا أبو هريرة ﷺ أن الرسول ﷺ كان يحدِّث - وعنده رجل من البادية -: أن رجلاً من أهل الجنة رَغِبَ إلى ربّه أن يأذن له بأن يزرع، فقال له ربّه: أوَلست فيما شئت؟ أي أن كل ما تريده، وتشتهيه، وترغب فيه حاضر بين يديك؟ فأقرّ بذلك، ولكنه مع ذلك يرغب في الزرع.

وقد يكون هذا الرجل من الذين عملوا في الدنيا بالزراعة، وكثير من الناس يشتاقون لفعل ما شبّوا ونشؤوا عليه.

ويأذن له ربّه، فيأخذ الحبّ فيبذره في أرض الجنّة، فإذا بالبذر ينبت في الحال، ويستوي على سوقه، وينضج، ويصبح صالحاً للحصاد في لحظة واحدة، ويتم حصاده، ويصبح كأمثال الجبال.

إن زرع الدنيا هو الذي يحتاج إلى تلك المراحل الطويلة التي لا تتم إلا في مدد متلاحقة، أما في الجنة فلا يحتاج إلى ذلك العناء.

وهنا يقول الربّ لذلك الزارع: دونك يا ابن آدم، خذ يا ابن آدم، فإنه لا يشبعك شيء.

وعلّق الأعرابي على ما سمعه من رسول الله ﷺ قائلاً: يا رسول الله، لا تجد هذا الرجل الذي رغب في الزرع في الجنة إلا قرشياً أو أنصارياً، فإنهم الذين يعشقون الزرع، ويرغبون فيه، فأما هو وبني قومه من الأعراب أهل البادية فليسوا بأصحاب زرع، فضحك رسول الله ﷺ.

لقد أضفت القصة التي حدَّث بها الرسول ﷺ على مجلسه جوّاً من البهجة والفرحة، ففي القصة طرفة وفكاهة، فأضاف الأعرابي إليها طرفة أخرى أضحكت الرسول ﷺ وزادته سروراً.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- للعبد في الجنة كل ما اشتهت نفسه، وأحبّ قلبه، فهذا العبد رغب في الزرع في الجنة، فاستجاب الله له، وحقق له مراده.

٢- جُبلت نفوس العباد على الاستكثار من الخير حتى في الجنة، فمع الخير الذي يعيش فيه هذا الرجل يطلب من ربّه أن يأذن له بالزرع.

٣- الزرع في الجنة لا يحتاج إلى مدة زمنية كما هو الحال في زرع الدنيا، وكذلك ثمار الأشجار، فعندما يقطف أهل الجنة ما يشاؤون من ثمار الجنة، ينبت في الحال على أغصان تلك الأشجار مثل ما أخذوه منها ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ [ص: ٥٤].

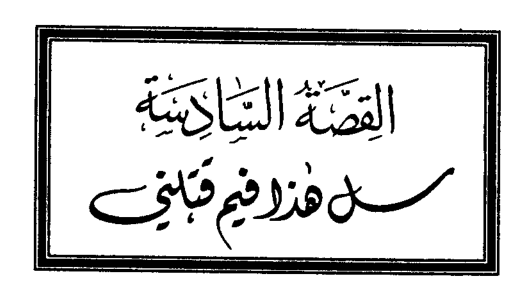
٤- يوجد في حياة أهل الجنة شيء كثير من الطرائف والمتع، التي تسرّ من استمع إلى حديثهم وتبهجه.

٥- مجالس الرسول ﷺ وأصحابه كان فيها من الأحاديث ما يشيع البهجة، ويسر السامع، فترتسم البسمة على الشفاه، وقد يصل الأمر إلى الضحك أحياناً.

٦- أهل الجنة يأكلون، ويشربون في الجنة، خلافاً لمن زعم من الفلاسفة والنصارى أنها حياة روحانية بعيدة عن المادة.

٧- يكلم الله عز وجل عبادَه في الجنة ويكلموه، كما كلّمه طالب الزرع، وقال له الله آخراً: (دونك يا ابن آدم فإنه لا يُشبعك شيء).

* * *



تمهيد

يبحث المقتول يوم القيامة عن قاتله، فيأتي المقتول على هيئته يوم قُتل آخذاً بيده حتى يوقفه بين يدي الله، فيطلب منه أن يسأله فيمَ قتله؟ .

نص الحديث

عن عبدالله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: (يَجيء الرَّجُلُ آخِذاً بيَدِ الرَّجُلِ، فيَقولُ: يَا رَبِّ هذَا قَتَلَني، فيَقُولُ الله لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فيَقولُ: قَتَلْتُهُ لِتَكُونَ العِزَّةُ لَكَ. فيَقولُ: فإنَّـهَا لي.

ويَجيء الرَّجُلُ آخِذاً بيَدِ الرَّجُلِ فيَقُولُ: إنَّ هذَا قَتَلَني، فيَقولُ الله لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فيَقُولُ: لِتَكُونَ العِزَّةُ لِفُلان، فيَقُولُ: إنَّهَا لَيْسَتْ لِفُلان، فَيَبُوءُ بإثمِهِ).

تخريج الحديث

رواه النسائي في سننه في كتاب تحريم الدم، باب تعظيم الدم، [ورقمه ٣٩٩٧] وهو في صحيح سنن الترمذي: [٣٧٣١] وحكم عليه الألباني بالصحة.

غريب الحديث

يبوء بإثمه : يرجع بإثمه، ويحمل وزره.

شرح الحديث

يخبرنا الرسول ﷺ في هذا الحديث: أن المقتول يأتي يوم القيامة إلى ربّ العزة آخذاً بيد قاتله، فيقول: يا رب هذا قتلني، وفي رواية عن ابن عباس أن الرسول ﷺ قال: (يجيء المقتول متعلقاً بالقاتل، تشخب أوداجه دماً، فيقول: أي ربِّ، سل هذا فيمَ قتلني؟). [سنن النسائي: ٤٠٠٠. وصححه الألباني في صحيح النسائي: (٣٧٣٤). وهو في صحيح سنن ابن ماجه: (٢٦٢١)].

فيقول القاتل: قتلته لتكون العزة لك، فيقول: فإنها لي. فالقاتل هنا مجاهد في سبيل الله، والمقتول كافر معاند لله ورسله، فكان قتله مما يرضى الله عنه، ويثيب صاحبه، وبذلك يخسر المقتول في قضيته، ويفوز القاتل.

ويجيء الآخر آخذاً بيد قاتله، متعلقاً به، تشخب أوداجه دماً، فيقول: أي ربِّ، سل هذا فيمَ قتلني؟ .

فيسأله: فيقول: لتكون العزة لفلان، فيقول: إنها ليست لفلان، فيبوء بإثمه.

فهذا القاتل إنما قتل على باطل، فقد قاتل اتباعاً لهواه، أو هوى الناس، ليعز فرعوناً من الفراعنة، أو طاغية من الطغاة، أو لتعز قبيلة على قبيلة، فهذا ضلّ في سعيه، وارتكب ما حرّم الله عليه من سفك الدماء، فيبوء بإثم من قتله.

١- نفوس العباد معصومة لا يجوز الاعتداء عليها بالقتل إلا فيما أذن الله به، أما الكفار الذين يسفك المجاهدون دماءهم في إعلاء كلمة الله فهم مثابون مأجورون.

٢- الصواب من القول أن القاتل إن تابَ وأناب إلى الله تعالى فإن توبته مقبولة، وقد «حمل جمهور السلف وجميع أهل السنّة ما ورد في خلود القتلة في النار على التغليظ وصحّحوا توبة القاتل كغيره» [فتح الباري بشيء من التصرف: ٨/ ٦٣٠] ويدل لصحته قبول ربّ العزة قاتل المائة نفس، وقبول توبة المرتدين الذين أصابوا في ردّتهم دماء بعض المسلمين. وقد خالف ابن عباس فذهب إلى أن المسلم لا توبة له إذا سفك دماً حراماً بعد إسلامه، والآية الواردة في قبول التوبة إنما هي في أهل الشرك، الذين أصابوا الدم الحرام قبل إسلامهم، والصواب ما قدمناه أولاً.

٣- صورة أخذ العباد حقوقهم ممن ظلمهم في الآخرة، حيث يأتي المقتول بقاتله إلى ربّ العزة سائلاً إياه أن يأخذ له حقّه منه.

* * *



القِصَّةُ السَّابِعَةُ
يا أهل الجنة خلود فلا موت

تمهيد

يحدثنا الرسول ﷺ أن الموت يذبح يوم القيامة بعد أن يكتمل دخول أهل النار النار، وأهل الجنة الجنة، إنه البقاء الدائم في الجنة لأهل الجنة، ولأهل النار في النار.

نص الحديث

عن أبي سعيدِ الخدري ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ : (يُؤتى بالموتِ كهيئةِ كبش أملَحَ، فيُنادِي منادٍ: يا أهل الجنة، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنظُرون، فيقول: هل تَعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت. وكلُّهم قد رآه. ثم يُنادي: يا أهلَ النار، فيَشرَئبون ويَنظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت. وكلُّهم قد رآه. فيُذْبح. ثم يقول: يا أهلَ الجنة، خُلودٌ فلا مَوت، ويا أهلَ النار، خلودٌ فلا موت. ثم قَرَأَ ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ وهؤلاء في غفلة أهلُ الدنيا ﴿ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم: ٣٩]).

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير، في تفسيره سورة مريم، ورقمه: [٤٧٣٠].

ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، ورقمه: [٢٨٤٩].

غريب الحديث

كبش أملح : هو الأبيض الخالص البياض.

فيشرئبون : يرفعون رؤوسهم إلى المنادي.

شرح الحديث

يُخلد أهل الجنة في الجنة، فلا يرحلون، ولا يظعنون، ولا يموتون، وكذلك أهل النار، وتأكيداً لهذا المعنى، يؤتى بالموت في هيئة كبش أبيض خالص البياض، فيوقف بين الجنة والنار، ثم ينادي منادٍ، فيقول: يا أهل الجنة، فيرفعون رؤوسهم إلى المنادي ناظرين إليه، وينادي أهل النار، فينظرون إليه، فيسألهم قائلاً: أتعرفون هذا؟ مشيراً إلى الموت.

فكلهم يجيب: إنه الموت، ومعرفتهم له آتية من كونهم رأوه عندما جاءَهم ليقبض أرواحهم. فعند ذلك يُذبح، ثم يقول المنادي: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم: ٣٩].

ولو علم الغافلون في الدنيا بهذا الذي أخبر به الرسول ﷺ علم اليقين لأفاقوا من غفلتهم، وعادوا إلى رشدهم، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا به.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- الموت الذي كان يقبض أرواح العباد في الدنيا ينتهي دوره في الآخرة، ولذا فإنه يُذبح بعد دخول أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيوقن كل فريق بالخلد.

٢- يزداد فرح المؤمنين بذبح الموت لخلودهم في النعيم، ويزداد حزن أهل النار وشقاؤهم لخلودهم في النار.

٣- قدرة الله العظيمة في جعل أهل الجنة وأهل النار يرون الموت في صورة ذلك الكبش مع كثرتهم، وتباعد أماكنهم.

٤- يعرف أهل الجنة وأهل النار الموت عندما يُعرض عليهم، ذلك أنهم رأوْهُ على هذه الصورة عندما جاءَهم يقبض أرواحهم.

٥- هذا الحديث وأمثاله مما يرقق النفوس، ويلين القلوب، فعلى العلماء والوعاظ أن يعظوا بمثله، لعل الغافلين يفيقون.

* * *



القِصَّةُ الثَّامِنَةُ
أنا فرطكم على الحوض

تمهيد

وعد الرسول ﷺ أصحابه الذين يبقون من بعده على مثل ما تركهم عليه من الاستقامة أن يلقاهم على الحوض، وأخبرهم أن بعض أصحابه سيحال بينهم وبين الحوض، ويذهب بهم تلقاء النار، فعندما يستعلم عن ذلك، يقال له: إنهم غيّروا وبدّلوا، فيقول: سحقاً سحقاً لمن بدّل بعدي.

نص الحديث

عن سهلِ بن سعدٍ قال: قال النبيُّ ﷺ : (إني فَرَطكم على الحَوض، من مرَّ عليَّ شربَ، ومن شَرِبَ لم يَظمأ أبداً. لَيرِدَنَّ عليَّ أقوامٌ أعرفهم ويعرفوني، ثم يُحالُ بيني وبينهم).

قال أبو حازم فسمَعني النُّعمانُ بن أبي عيّاشٍ فقال: هكذا سمعتَ من سهل؟ فقلتُ: نعم. فقال: أشهدُ على أبي سعيدٍ الخُدريِّ لسمعتُهُ وهو يزيدُ فيها: فأقول: (إنهم مني، فيُقال: إنكَ لا تدري ما أحدثوا بعدَك. فأقول: سُحقاً سُحقاً لمن غيَّر بعدي).

تخريج الحديث

هذان الحديثان رواهما البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق، باب في الحوض، [وأرقامهما: ٦٥٨٣، ٦٥٨٤].

ورواهما مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبيّنا ﷺ وصفاته، [وأرقامهما فيه: ٢٢٩٠، ٢٢٩١].

غريب الحديث

فرطكم : أي سابقكم.

الحوض : الحوض عند العرب مجمع الماء، والمراد به حوض الرسول ﷺ في الموقف.

سحقاً سحقاً : بُعداً بُعداً.

شرح الحديث

كانت العلاقة بين الرسول ﷺ وأصحابه علاقة بالغة القوة والمتانة، وكانوا يحبون لقياه دائماً، ويشتاقون إليه، وقد وعد سامعيه منهم أكثر من مرة أنه سينتظرهم عند حوضه في عرصات القيامة، وأنه سيكون في موضع مشرف يرقب منه من يرد عليه الحوض منهم، ففي حديث أسماء بنت أبي بكر أن الرسول ﷺ قال لأصحابه: (إني على الحوض حتى أنظر من يرد عليَّ منكم) [البخاري: ٦٥٩٣، ومسلم: ٢٢٩٣].

ولم يكتف بتحديثهم بذلك في مجالسه، بل خطبهم بذلك حتى يعلم أكثر عدد منهم بذلك، ومن عجب أنه كان يحدّثهم بانتظاره إياهم في الآخرة عند حوضه بينما كان ينظر إلى حوضه في تلك اللحظة التي يخطبهم فيها فوق منبره، وفي حديث عقبة بن عامر يقول الرسول ﷺ : (إني فرطكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن) [البخاري: ٤٠٤٢، ومسلم: ٢٢٩٦].

وإنما أخبرهم بذلك ليحضّهم على الاستقامة من بعده على ما كانوا عليه معه قبل أن يرحل عن دنياهم، ولذلك فإن الذين يُحْدِثون ويغيّرون من بعده، لا يحظون بشرف لقائه في ذلك المقام، ولا يُؤذن لهم بالشرب من ذلك الحوض الذي من شرب منه شربة، فإنه لا يظمأ بعدها أبداً. وقد أخبر أصحابه بما سيكون من منع بعض منهم من الحوض، والذهاب به إلى النار، فقال: (أنا فرطكم على الحوض، وليرفعن رجال منكم، ثمَّ ليُختلَجُنَّ دوني، فأقول: يا ربِّ أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك) [البخاري: ٦٥٧٦، ومسلم: ٢٢٩٧].

وفي حديث آخر يقول الرسول ﷺ: (بَيْنَما أنَا قَائِمٌ إذا زُمْرَةٌ، حَتَّى إذا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ، فَقال: هَلُمَّ، فَقُلْتُ: أيْنَ؟ قال: إلى النَّارِ وَالله، قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهُمْ؟ قال: إنَّهُمُ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أدْبَارِهِمُ الْقَهْقَرَى. ثُمَّ إذا زُمْرَةٌ، حَتَّى إذا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ، فَقال: هَلُمَّ، قُلْتُ أيْنَ؟ قال: إلَى النَّارِ وَالله، قُلْتُ: مَا شَأْنُهُمْ؟ قال: إنَّهُمُ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أدْبَارِهِمُ الْقَهْقَرَى، فَلا أرَاهُ يَخلُصُ مِنْهُمْ إلا مِثْلُ هَمَلِ النَّعَمِ) [البخاري: ٦٥٨٧].

وقد أخبر الرسول ﷺ أن السبب الأعظم الذي من أجله يحرمهم من ورود الحوض هو التنازع والتخاصم والتنافس على الدنيا، فيؤدي ذلك إلى التحاسد والتباغض والتقاتل وسفك الدماء وانتهاك الحرمات، وقد أخبرهم بذلك في الحديث الذي خطبهم فيه، وأخبرهم فيه أنه فرطهم على الحوض، وأنه ينظر في تلك اللحظة إلى حوضه: (وإني أُعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها) [البخاري: ٦٥٩٠، ومسلم: ٢٢٩٦].

والدنيا التي خافها الرسول ﷺ تتمثل في تحصيل الأموال من الذهب والفضة، وتسنم المناصب والولايات، والتسيُّد على الناس، والاستكثار من الحرث والزرع والمراكب والقصور.

وإذا كان الرسول ﷺ خاف ذلك على أصحابه مع ما كانوا عليه من الإيمان والصلاح، فإن الخوف على من بعدهم أحرى منهم، نسأل الله أن يمنّ علينا بالاستقامة على أمره بمنّه وكرمه، وأن يمنّ علينا بورود حوضه، وأن لا يُحال بيننا وبينه.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- انتظار الرسول ﷺ أصحابه وأمّته في يوم القيامة على حوضه، فمن كان مستقيماً في دينه على النحو الذي يريده الله، ويريده رسوله ﷺ شرب من ذلك الحوض شربةً لم يظمأ بعدها أبداً.

٢- الذين بدّلوا وغيّروا من صحابة الرسول ﷺ ومن أمته من بعده، يحرمون من ورود الحوض والشرب منه.

٣- يجب الإيمان بالحوض الذي أعطاه الله لرسوله ﷺ على النحو الذي أخبرت به الأحاديث الصحيحة، فأحاديثه متواترة، فقد رواه من الصحابة أكثر من ثلاثين صحابياً، منهم ما يزيد على العشرين في الصحيحين، وأجمع على إثباته السلف، وأهل السنّة من الخلف. [فتح الباري بشيء من الاختصار: ١١/ ٥٨٦].

٤- الحوض قبل الورود على الصراط، لأنه ثبت في الأحاديث أن بعضاً من الذين يردونه يحال بينهم وبين الحوض، وأنهم ارتدوا على

أعقابهم، وهؤلاء لا ينجون من النار عندما يمرّون على الصراط، ولا يشكل على هذا أن الحوض يصب فيه ميزابان من الجنة، فإن الله قادر على إمداد الحوض من الجنّة في أي موضع كان.

٥- على المسلم أن يَحْذر ويُحَذِّر من إتيان كل ما من شأنه أن يحول بينه وبين الشرب من الحوض، فقد حذّر الرسول ﷺ أصحابه أكثر من مرة، وخطبهم فيه، وبيّن لهم أن أعظم الأسباب التنافس في الدنيا.

٦- رأى الرسول ﷺ الحوض عياناً في الدنيا، وقد استطاع البشر بوساطة التلفاز أن يشهدوا ما يقع في أقاصي الأرض، أفلا يستطيع الله أن يُرِي رسولَه حوضه وجنّته وهو جالس بين أصحابه.

٧- الذين يشربون من هذا الحوض هم الذين استقاموا على هذا الدين حتى لقوا ربهم، دون الذين انحرف بهم المسار، ولذا فإنه يُمنع بعض أصحاب الرسول ﷺ من ورود الحوض، لكونهم أحدثوا وغيّروا من بعده، وإذا كان هذا لأصحاب الرسول ﷺ فغيرهم أحرى بالمنع من الشرب من الحوض، ففي الحديث، (وليرفعن رجال منكم، ثم ليختلجن دوني، فأقول: يا ربِّ أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك) [البخاري: ٦٥٧٦]. وفي مسلم: (ولأنازعن أقواماً ثم لأُغلَبَنَّ عليهم، فأقول: يا رب أصحابي، أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك) [مسلم: ٢٢٩٧].

وفي حديث آخر: (يرد عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي، فيجلون عن الحوض، فأقول: يا رب أصحابي، فيقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى) [البخاري: ٦٥٨٥].

٨- صفة الحوض: نستطيع أن تستخلص من وصف الرسول ﷺ لحوضه ما يأتي:

أ- **سعته:** حوض الرسول ﷺ واسع كبير، لأن كل أمته المستقيمين على أمر الله سيشربون منه، وهم عدد كثير، ولذلك كان واسعاً ليتناسب مع كثرة أمّته، وقد علّمنا رسولنا ﷺ أن حوضه مربعاً، كل ضلع من أضلاعه مسيرة شهر، ففي الحديث (حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء) [مسلم: ٢٩٩٢]. ومعنى كونها سواء، أن طوله كعرضه.

وقد ضرب الرسول ﷺ لأصحابه وأمته الأمثال في سعته واتساعه، فقال مرة: (أمامكم الحوض، كما بين جرباء وأذرح) [البخاري: ٦٥٧٧، ومسلم: ٢٢٩٩] وقال في أخرى: (إن قدر حوضي كما بين أيلة وصنعاء من اليمن) [البخاري: ٦٥٨٠، ومسلم: ٢٣٠٣]. وفي حديث ثالث قال: (إن عرضه كما بين أيلة إلى الجحفة) [مسلم: ٢٢٩٦]. وسئل في حديث رابع عن عرضه، فقال: (من مقامي إلى عمّان) [مسلم: ٢٣٠١].

وذكر هذه المسافات لبيان مدى سعته، وتصويرها للناس بالأمر المشاهد المحسوس، أما الأمر الدقيق فهو المذكور في الحديث الأول أنه مسيرة شهر، وأن زواياه سواء.

ب- **طيب مائه وطيب رائحته وطعمه:** مياه هذا الحوض بيضاء صافية نقية، ورائحته زكية طيبة، وقد جاء في صفتها (ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك) [البخاري: ٦٥٧٩]. وفي صحيح مسلم: (ماؤه أبيض من الوَرِق، وريحه أطيب من المسك) [مسلم:

٢٩٩٢] والورق: الفضة. وأما طعمه فإنه (أحلى من العسل) [مسلم: ٢٣٠٠].

ج- **مصدر مياهه:** تأتي المياه التي تصب في هذا الحوض من النهر الذي أعطاه الله لرسوله ﷺ في الجنة، وهو نهر الكوثر، وقد وصفه الرسول ﷺ بقوله: (طين الكوثر أو طيبه مسك أذفر) [البخاري: ٦٥٨١]. وهذا موافق لرائحة مياه الحوض المذكور في الأحاديث. وجاء التصريح بأن مصدر مياه الحوض الكوثر في عدة أحاديث منها: (يشخب فيه ميزابان من الجنة) [مسلم: ٢٣٠٠]. وقال في الآخر: (يَغُتُّ فيه ميزابان يمدّانه من الجنة، أحدهما من الذهب والآخر من الفضة) [مسلم: ٢٣٠١]. فالميزابان من الجنة يصبان فيه، فمهما شرب منه الشاربون فإنه لا ينقص، فالميزابان يتدفقان بقوة يمدّانه بالماء، فلا ينقص، ولا يزول.

د- **كثرة آنيته التي أعدّت للشاربين منه:** الذين يردون الحوض من المؤمنين لا يحصيهم إلا الذي خلقهم، ولذا فإن الله أعدّ لهم من الآنية ما يزيد على عدد نجوم السماء التي تراها العيون في ظلمة الليل، ففي الحديث: (كيزانه كعدد نجوم السماء) [البخاري: ٦٥٧٩]. وفي مسلم أنهم سألوا الرسول ﷺ عن عدد آنية الحوض، فقال: (والذي نفس محمد بيده، لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها، ألا في الليلة المظلمة المصحية) [مسلم: ٢٣٠٠].
فالرسول ﷺ يخبر أن الآنية المعدة لشرب الشاربين على الحوض هي أكثر مما يرى من نجوم السماء وكواكبها في الليلة الظلماء المصحية، وهذا أكثر ما ترى فيها العيون من النجوم والكواكب في

الليل، وأفادنا أيضاً أن تلك الآنية من الجنة. وفي الإشارة إلى النجوم في الحديث إشارة إلى حُسْن تلك الكيزان وتلك الآنية، فهي تشبه النجوم في رونقها وصفائها.

* * *

القِصَّةُ التَّاسِعَةُ
سُوقُ الجَنَّةِ

تمهيد

في هذا الحديث يخبرنا الرسول ﷺ عن لون من ألوان نعيم أهل الجنة، الذي يقصده الرجال منهم في كل أسبوع مرة، فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا حُسْناً وجمالاً.

نص الحديث

عَنْ أنَـسِ بْنِ مَالِكٍ؛ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقاً، يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، فتهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابهِمْ، فَيَزْدَادُونَ حُسْناً وَجَمَالاً، فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدِ ازْدَادُوا حُسْناً وَجَمالاً، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: وَالله! لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْناً وَجَمَالاً، فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ، وَالله! لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْناً وَجَمَالاً).

تخريج الحديث

رواه مسلم في صحيحه في كتاب الجنة، باب سوق الجنة، [ورقمه: ٢٨٣٣].

غريب الحديث

سوق الجنة : يكرم الله أهل الجنة بأن يقيم لهم في كل أسبوع سوقاً، الله أعلم بما يُعرض فيها من خيرات، وهذا لون من النعيم يكرّم به أهل الجنة.

كل جمعة : أي يقام هذا السوق بمقدار يوم في الأسبوع، والله أعلم بالكيفية التي تُعدّ فيها الأيام في الجنة.

الشمال : هي الرياح التي تهب من جهة الشمال، وهي ريح المطر عند العرب تأتيهم من جهة بلاد الشام.

شرح الحديث

إن في الجنة ألواناً من النعيم، تجعل حياة أهلها متجددة دائماً، فلا يشعرون فيها بالملل والسآمة، ومن ذلك أن الله يُنصب لأهل الجنة في كل يوم جمعة سوقاً، يقصدها المؤمنون من شتى مواقعهم، وقد اعتاد أهل الدنيا أن يعرضوا في الأسواق أنواع المصنوعات من الملبوسات والحلي والمآكل والمشارب، والله أعلم بما يُعرض في سوق الجنة من الخيرات والأطايب.

وأهل الجنة لا يحتاجون إلى شيء لقصورهم وبيوتهم، ولكنه النعيم يتنوع ويتجدد، ويحيط بهم دائماً وأبداً، فمرة يزورون ربهم، ويكرمهم بالنظر إلى وجهه الكريم، ومرة يقصدون سوق الجنة، ومرة يتزاورون فيما بينهم، ومرة يطيف كل واحد فيما أعطاه من ملك ونعيم، ويركب ما أعدّه الله له من مراكب، وهكذا.

وهم في منطلقهم إلى سوق الجنة تهب عليهم ريح الشمال، فتحثوا في وجوههم وثيابهم ما مَنَّ الله به عليهم من الطيب والعطور، فيزدادون بذلك حُسْناً على حُسْنهم، وجمالاً على جمالهم.

وعند عودة المتسوّقين إلى منازلهم يلحظ أهليهم أنهم قد ازدادوا حُسْناً وجمالاً في مسيرتهم إلى سوق الجنة، فيقولون لأهليهم: وأنتم أيضاً قد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً.

إنه النعيم المقيم المترقي دائماً، نسأل الله أن يجعلنا من أهل الجنة، وممن يرد تلك السوق برحمته جلّ وعلا.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- العلم بأن في الجنة سوقاً يقصده أهل الجنة يوماً في كل جمعة.

٢- يوجد في الجنة ريحاً تهب على أهل الجنة، وتحثو في وجوه أهل الجنة وثيابهم من الطيب ما يزيدهم حُسْناً وجمالاً.

٣- أهل الجنة يزداد كمالهم باستمرار ولا ينقص بحال بخلاف حال أهل الدنيا، الذين يفنى شبابهم، وتنقضي أعمارهم، ويزول عنهم النعيم.

٤- ليس في الآخرة مما في الدنيا إلا الأسماء، فلا ندري كيف يكون السوق وما يحويه، ولا ندري كيف يعرفون الأيام في الجنة، ولا ندري كيف يشبّ أهل الجنة دائماً، ولا يهرمون.

٥- في الجنة جهات كما في الدنيا، فالريح التي تحثو في وجوههم وثيابهم تأتي من جهة الشمال.

* * *



القِصَّةُ العَاشِرَة
عطايا أهل الجنة

تمهيد

في أربعة أحاديث رواها مسلم في صحيحه يعلمنا الرسول ﷺ ببعض عطايا ربنا ومواهبه لأهل الجنة، وأعظم ذلك إحلال رضوانه عليهم.

نص الحديث

١- قال سهل بن سعد الساعدي: شهدتُ من رَسُولِ الله ﷺ مَجْلِساً وَصَفَ فِيهِ الْجَنَّةَ، حتى انتهى، ثم قال ﷺ في آخرِ حَدِيثِهِ: (فِيهَا مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ) ثُمَّ اقْتَرأَ هذِهِ الآيَةَ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

[السجدة: ١٦-١٧].

٢- عَنْ أبي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ الله يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ، رَبَّنَا! وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ. فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نرْضَى ؟ يَا رَبِّ! وَقَدْ أَعْطَيْتَنا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ. فَيَقُولُ: أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ! وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي. فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبداً).

٣- عَنْ جَابرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ وَلاَ يَتْفِلُونَ وَلاَ يَبُولُونَ وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ وَلاَ يَمْتَخِطُونَ). قَالُوا: فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟ قَالَ: (جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ. يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ، كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ).

٤- عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ: (يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلاَ تَسْقَمُوا أبداً، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلاَ تَمُوتُوا أَبَداً، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلاَ تَهْرَمُوا أَبَداً، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلاَ تَبْأَسُوا أَبَداً) فَذلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

تخريج الحديث

هذه الأحاديث الأربعة رواها مسلم في صحيحه في كتاب الجنة، وصفة نعيم أهلها، وأرقامها فيه حسب ترتيبها: [٢٨٢٥، ٢٨٢٩، ٢٨٣٥، ٢٨٣٧].

غريب الحديث

أحل عليكم رضواني : أنزله بكم.

جشاء : الجشاء الرائحة الصاعدة من المعدة إلى الفم حين امتلائها.

شرح الحديث

يحدثنا الرسول ﷺ عن بعض عطايا ربنا وهباته لأهل الجنة، فمن ذلك أن نعيم أهل الجنة لا يمكن أن يرقى إليه نعيم في الدنيا، فنعيم أهل الجنة لم ترَ

العيون مثله في هذه الدنيا، ولم تسمع به آذانهم، ولا خطر على قلوبهم، وقرأ الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة: ١٧].

فإن قيل: فإننا سمعنا ما حدثنا الله به عن الجنة، من قصور وخيام، وحدائق غنّاء، ورياض فيحاء، وأنهار جارية، وأزواج حسان، فكيف يقال: إنه لم تسمع به أذن، ولم يخطر على قلب بشر.

والجواب: أن هناك من النعيم ما هو فوق ذلك، مما لم تسمع به الآذان، ولم يخطر على القلوب.

وفي الحديث يخبرنا الرسول ﷺ أن الله ينادي أهل الجنة، فيقول لهم: يا أهل الجنة، أرضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيعطيهم ما هو أفضل من ذلك كله، وهو إحلال رضوانه عليهم، فلا يسخط عليهم أبداً، فهم يعيشون في رضوان الله أبداً.

والذي يحظى برضوان الله، فإنه يحظى بالأمن الدائم، فلا يخاف من الرحيل والانتقال، ولا يخشى من الموت والفناء والزوال، ولا تركبه الهموم والأحزان، ولا تصل إليه الأمراض والأسقام.

وفي الحديث الثالث يخبر الرسول ﷺ : أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يعروهم ما يعرو البشر من بقايا الطعام والشراب في الدنيا، فلا يبصقون، ولا يمتخطون، ولا يبولون، ولا يتغوطون.

وتكون بقايا طعامهم وشرابهم جشاء، وهو صوت مع ريح يحصل من الفم عند امتلاء المعدة وحصول الشبع، وعرق ترشح به أجسادهم، ولكن رائحة الجشاء والعرق رائحة المسك.

ومن عطايا الرب لأهل الجنة أنهم يصحون فلا يسقمون أبداً، ويحيون فلا يموتون أبداً، ويشبون فلا يهرمون أبداً، وينعمون فلا يبأسون أبداً. نسأل الله أن يجعلنا من الفائزين بجنات النعيم.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- نعيم الجنة نوعان: نوع حدثنا به الله في كتابه، والرسول ﷺ في حديثه، ونوع أخفاه عنا، فلا نعلم به حتى ندخل جنات النعيم.

٢- أعظم ما أعطى الله أهل الجنة إحلال رضوانه عليهم، فلا يسخط عليهم أبداً.

٣- أهل الجنة يأكلون ويشربون وينكحون، خلافاً لما عليه أهل الكتاب الذين حرفوا دينهم، وزعموا أنه لا شيء من ذلك لمن دخلها.

٤- يجعل الله مخلَّفات الطعام والشراب في الجنة مسكاً يتجشؤه أهل الجنة ويتعرّقونه.

٥- مناداة الله لأهل الجنة، ومحادثته لهم، ففي الحديث: (إن الله يقول لأهل الجنة...).

٦- الجنة خالدة، وأهلها فيها خالدون، حياة دائمة، وشباب متجدد، ونعيم لا يزول.

* * *

القِصَّةُ الحَادِيَةَ عَشْرَة
أوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الجَنَّة

تمهيد

هذا الحديث تعريف بالكاملين من هذه الأمة، الذين يدخلون الجنة قبل غيرهم، وبيان الحال التي يدخلون الجنة عليها.

نص الحديث

عن أبي هريرةَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (أوَّلُ زُمرةٍ تَلِجُ الجنَّة صُورتهم على صورةِ القمرِ ليلةَ البَدر، لا يَبصقُونَ فيها ولا يَمتَخِطون ولا يَتغوَّطون. آنِيتُهم فيها الذَّهبُ، أمشاطُهم منَ الذَّهَبِ والفِضَّة، ومَجامِرُهم الألوَّة، ورشحُهمُ المسك. ولكلٍّ واحدٍ منهم زوجَتانِ يُرَى مُخُّ سُوقِهما من وراءِ اللَّحمِ منَ الحُسن. لا اختِلافَ بينهم ولا تَباغُض، قُلوبُهم قلبٌ واحدٌ، يُسبِّحونَ الله بُكرةً وعَشيّاً).

تخريج الحديث

رواه البخاري في مواضع من صحيحه، فقد رواه في كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، [ورقمه: ٣٢٤٥] وانظره أيضاً تحت الأرقام التالية: [٣٢٤٦، ٣٢٥٤، ٣٣٢٧] ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الجنة، باب أول زمرة تدخل الجنة، ورقمه [٢٨٣٤].

غريب الحديث

الزمرة	: الجماعة.
رشحهم المسك	: عرقهم.
الألوّة	: العود الذي يتبخر به.
لا يتفلون	: لا يبصقون.

شرح الحديث

يحدّثنا الرسول ﷺ عن الذين بلغوا القمة من هذه الأمة في الدين والاستقامة وتحقيق العبودية لله الواحد الأحد، الذين يدخلون الجنة أولاً قبل غيرهم، وقد جاء أن عدّتهم سبعون ألفاً أو سبعمائة ألف [البخاري: ٣٢٤٧، ٦٥٤٣، ومسلم: ٢١٩].

وهذه الزمرة التي تلج الجنة قبل غيرها تحوز صفات الكمال، لتحقيقها الكمال في العبودية لله تبارك وتعالى، فصورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون في الجنة، ولا يمتخطون، ولا يتغوطون، ذلك أن الجنة لا نجاسة ولا قذارة فيها، ولا يعني هذا أنهم لا يأكلون، ولا يشربون، بل ثبت أنهم يأكلون ويشربون، ويتحول ما يأكلونه إلى عرق تفيض به أجسادهم، وهو رشح كرشح المسك.

وآنيتهم التي يأكلون فيها مصنوعة من الذهب الخالص، وأمشاطهم التي يسرحون بها شعورهم بعضها من الذهب، وبعضها الآخر من الفضة، ومجامرهم التي يتبخرون بها مصنوعة من العود الذي يتبخر به أهل الدنيا.

وقد أعدّ الله لكل واحد منهم زوجتين يرى مخ سوقهما من وراء اللحم لصفاء ألوانِهِنَّ، وعِظَم حُسْنهن.

وكما حسّن الله صورتهم الظاهرة، حسّن أخلاقهم الباطنة، فلا اختلاف بينهم، ولا تباغض، ولا تحاسد، وكما كانوا في الدنيا على دين واحد وملّة واحدة، فإن قلوبهم في ذلك اليوم قلب رجل واحد، يلهمون التسبيح في الصباح والمساء بغير تكلّف ولا عناء، حالهم في ذلك كحالهم في تنفّسهم الهواء من غير مشقّة.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- صفة أول زمرة تدخل الجنة من هذه الأمة، وهم الكملة في تحقيق هذا الدين أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية العشرة المبشرين بالجنة، ومنهم عكاشة بن محصن.

٢- عدد هذه الزمرة سبعون ألفاً، ولا يعارض هذا أنهم سبعمائة، فالسبعون ألفاً هم الذين تكون صورتهم على صورة القمر، وبقية السبعمائة تكون إضاءة وجوههم كأحسن كوكب دريّ في السماء إضاءةً، ففي بعض روايات الحديث: (أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين على آثارهم كأحسن كوكب دريّ في السماء إضاءةً) [البخاري: ٣٢٥٤، ومسلم: ٢٨٣٤].

٣- إضاءة الذين يدخلون الجنة غير هؤلاء أقل من إضاءتهم، ذلك أن السبعين إضاءتهم أقوى من بقية السبعمائة.

٤- أهل الجنة جميعاً لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يبصقون، ولا يمتخطون، فالكمال في هذا الجانب ليس مختصاً بهذه الزمرة.

٥- كثير من أهل الكتاب يرون أن أهل الجنة لا يأكلون ولا يشربون، لأنه يلزم عندهم أن ينشأ عن الطعام والشراب البول والغائط، وقد أورد رجل من أهل الكتاب على رسول الله ﷺ هذا الإشكال، فأجابه الرسول ﷺ قائلاً: (تكون حاجة أحدهم رشحاً يفيض من جلودهم كرشح المسك) [فتح الباري: ٦/ ٣٩٠].

٦- عدد زوجات كل فرد من هذه الزمرة زوجتان، وهم أفضل أهل الجنة، وقد وردت أحاديث فيها مبالغات في تعداد زوجات كل واحد من أهل الجنة، وهذه الأحاديث لا تخلو من مقال، وبعضها ضعيف أو مكذوب. راجع [فتح الباري: ٦/ ٣٩١].

٧- عدد النساء في الجنة أكثر من عدد الرجال، إذ نص الحديث على أن كل واحد من هذه الزمرة له زوجتان، ولا يعارض هذا أن النساء أكثر أهل النار كما صحّ في الحديث، فهن الأكثر في الجنة وفي النار.

٨- يطهّر الله قلوب أهل الجنة من الاختلاف والبغضاء والتحاسد، كما طهر أجسادهم من البصاق والمخاط والبول والغائط.

٩- أهل الجنة يسبحون الله بكرةً وعشياً بلا كلفة ولا عناء.

١٠- نعيم أهل الجنة ليس عن جوع وعطش أو عري، وإنما هو لذّات متتالية، ونِعَم متوالية.

١١- فيه سعة باب الجنة، ففي بعض روايات الحديث (لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم) [البخاري: ٣٢٢٧] أي: يدخلون صفاً واحداً.

١٢- في بعض روايات الحدث أن هذه الزمرة يكونون (على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعاً في السماء) [البخاري: ٣٣٢٧، مسلم: ٢٨٣٤].

وهذا لأهل الجنة عامةً، وليس خاصاً بهذه الزمرة، لقوله ﷺ : (كل من يدخل الجنة على صورة آدم، وطوله ستون ذراعاً، فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن) [البخاري: ٢٨٤١].

١٣- كل أهل الجنة يتزوجون، فما بهم من عيوب وأمراض تمنع النكاح والمعاشرة في الدنيا يبرئهم الله منها، وقد ورد في بعض روايات الحديث: (وما في الجنة من أعزب) [مسلم: ٢٨٣٤].

١٤- معرفة خلق أبينا آدم عليه السلام ، فقد كان طوله ستون ذراعاً في السماء، ثم أخذ الخلق ينقص حتى اليوم، وهذا ينقض ما يدّعيه بعض الذين لا يعلمون أن الخلق تطور وتكامل ولا يزال.

* * *



القِصَّةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ

رحلة منامية لرؤية المعذّبين والمنعّمين في البرزخ

تمهيد

هذا الحديث يقصّ فيه الرسول ﷺ علينا قصة رحلة له وقعت في الرؤيا، ورؤيا الأنبياء حق، أخبرنا فيها الرسول ﷺ عن مشاهداته للمعذبين والمنعمين في البرزخ.

نص الحديث

عن سَمُرَة بن جنْدب رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ يعني مما يكثرُ أن يقول لأصحابهِ: هل رأى أحدٌ منكم من رُؤيا؟ قال: فيَقصُّ عليه ما شاء الله أن يَقصَّ. وإنه قال لنا ذاتَ غَداةٍ: (إنّه أتاني الليلةَ آتِيان، وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالا لي: انطلِق.

وإني انطلقتُ معهما، وإنا أتينا على رجل مضْطجع. وإذا آخرُ قائم عليهِ بصخرةٍ، وإذا هو يَهوي بالصخرةِ لِرَأسهِ فيَثْلغ رأسَهُ، فيتدَهدَه الحجر هاهنا، فيتبعُ الحجرَ فيأخُذُه، فلا يَرجع إليه حتى يَصحَّ رأسُه كما كان، ثمَّ يَعودُ عليه فيفعل به مثلَ ما فَعَلَ به المرَّةَ الأولى.

قال: قلتُ: لهما: سُبحانَ الله، ما هذانِ؟ قال: قالا لي: انطلِق انطلِق، فانطَلَقْنا فأتينا على رجل مستَلْقٍ لِقَفاهُ، وإذا آخرُ قائمٌ عليهِ بكَلُّوبٍ من

حديد، وإذا هو يأتي أحدَ شِقي وَجهِهِ فيُشرشِر شِدْقه إلى قَفاه، ومِنْخَره إلى قَفاه، وعَينَه إلى قفاه - قال: وربما قال أبو رجاء، أحد رواة الحديث: فيشُقُّ - قال: ثمَّ يتحوَّل إلى الجانب الآخر فيفعَل به مثل ما فَعل بالجانب الأوَّل، فما يَفرُغ من ذلك الجانب حتى يَصحَّ ذلك الجانب كما كان، ثمَّ يعودُ عليه فيفعل مثلَ ما فعلَ المرَّةَ الأولى.

قال: قلت: سبحانَ الله ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على مثل التنُّور - قال: وأحسِبُ أنه كان يقول: - فإذا فيه لَغَطٌ وأصواتٌ. قال: فاطلعْنا فيه فإذا فيه رجالٌ ونساء عراةٌ، وإذا هم يأتيهم لَهَبٌ من أسفلَ منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضَوْضَوْا.

قال: قلتُ لهما: ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلِق انطلق. قال: فانطلَقْنا فأتيْنا على نهر حسِبتُ أنه كان يقولُ: أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجلٌ سابحٌ يَسبَح، وإذا على شَط النهر رجلٌ قد جَمَعَ عندَه حجارة كثيرةً، وإذا ذلك السابحُ يسبحُ ما يسبحَ، ثمَّ يأتي ذلك الذي قد جمعَ عندهُ الحجارةَ، فيفغَر له فاهُ فيلقمُهُ حجراً، فينطلقُ يسبَح ثمَّ يرجعُ إليه، كلما رَجَعَ إليه، فغَرَ له فاهُ فألقمه حجراً. قال: قلت لهما: ما هذان؟

قال: قالا لي: انطلِق انطلق. قال: فانطلَقْنا فأتيْنا على رجل كريهِ المرآةِ كأكرهِ ما أنتَ راءٍ رجلاً مَرآةً، وإذا عندَهُ نار يَحُشُّها ويَسعى حَولها. قال: قلتُ لهما: ما هذا؟

قال: قالا لي: انطلِق، انطلِق. فانطلَقْنا فأتينا على روضةٍ معْتمة فيها من كلِّ لَونِ الرَّبيع، وإذا بينَ ظهري الروضةِ رجلٌ طويلٌ لا أكادُ أرى رأسَه طولاً في السماء، وإذا حَولَ الرجل من أكثرِ ولدانٍ رأيتهم قطُّ.

قال: قلتُ لهما: ما هذا، ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطِلق، انطلِقْ. فانْطَلَقْنا فانتهينا إلى روضةٍ عظيمة لم أرَ روضةً قط أعظمَ منها ولا أحسنَ. قال: قالا لي: ارْقَ، فارتقيْت فيها قال: فارتقَيْنا فيها، فانتهَيْنا إلى مدينة مبنيّة بلبنِ ذهبٍ ولبنِ فضة، فأتينا بابَ المدينةِ، فاستفتَحنا ففتحَ لنا، فدَخلناها فتلقانا فيها رجالٌ شَطرٌ من خَلْقِهم كأحسنِ ما أنتَ راءٍ، وشَطرٌ كأقبح ما أنتَ راءٍ، قال: قالا لهم: اذهبوا فقَعوا في ذلك النهر، قال: وإذا نهرٌ معترِض يَجري كأنَّ ماءه المحضُ من البياض، فذهَبوا فوقعوا فيه، ثمَّ رجعوا إلينا قد ذهَبَ ذلك السوءُ عنهم فصاروا في أحسَنِ صورة.

قال: قالا لي: هذه جنةُ عَدْنٍ وهذاكَ منزلك. قال: فسمَا بصَري صُعُداً، فإذا قصرٌ مثلُ الرَّبابةِ البيضاء. قال: قالا لي: هذاكَ منزِلك، قال: قلت لهما: باركَ الله فيكما. ذراني فأدخُله، قالا: أما الآن فلا، وأنتَ داخِله.

قال: قلت لهما: فإني قد رأيتُ منذ الليلةِ عَجباً، فما هذا الذي رأيت؟ قال: قالا لي: أما إنا سنُخبرُك: أما الرجلُ الأولُ الذي أتيتَ عليه يُثلَغ رأسه بالحجر فإنه الرجلُ يأخذُ بالقرآن فيرفضهُ وينامُ عن الصلاة المكتوبة. أما الرجلُ الذي أتيتَ عليه يشرشَرُ شِدقه إلى قفاه ومنخَرُه إلى قفاه وعَينه إلى قفاه فإنه الرجلُ يَغدو من بيته فيكذِبُ الكِذبَةَ تبلغُ الآفاق. وأما الرجالُ والنساءُ العراةُ الذين في مثلِ بناءِ التنور فهمُ الزُّناة والزواني. وأما الرجلُ الذي أتيتَ عليه يَسبح في النهر ويُلقم الحجرَ فإنه آكِلُ الرِّبا.

وأما الرجلُ الكريه المرآةِ الذي عندَ النار يَحشُّها ويَسعى حولها فإنه مالكٌ خازن جهنم. وأما الرجلُ الطويلُ الذي في الروضة فإنه إبراهيم عليه السلام. وأما الولدانُ الذين حَولهُ فكلُّ مولودٍ ماتَ على الفِطرة. قال: فقال بعضُ المسلمين: يا رسولَ الله وأولادُ المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ : وأولاد

المشركين. وأما القومُ الذين كانوا شَطرٌ منهم حسناً وشطرٌ قبيحاً فإنهم قومٌ خلَطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيِّئاً تجاوزَ الله عنهم).

تخريج الحديث

رواه البخاري بتمامه في موضعين: الأول في كتاب تعبير الرؤيا، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح. [ورقمه: ٧٠٤٧]. وهذه هي الرواية التي اعتمدناها في هذا الكتاب.

والثانية في كتاب الجنائز. ورقمه: [١٣٨٦]. وأخرجه مفرقاً في أبواب كثيرة.

غريب الحديث

ابتَعثاني : أرسلاني.

يثلغ رأسه : يشدخه، ويكسره.

يتدهده : يتدحرج.

يشرشر شدقه : يشق جانب فمه.

مثل التنور : على صورته، أعلاه ضيق وأسفله واسع.

ضَوْضَوْا : صَوَّتوا، والضوضوة: أصوات الناس ولغطهم.

يفغر فاه : يفتحه.

يلقمه : يرميه.

كريه المرآة : كريه المنظر.

يحشها : يوقدها.

روضة معتمة	: روضة خضراء غطاها الخصب، فأصبح لونها مقارباً للسواد لكثرة شجرها وشدة اخضرارها.
أكثر ولدان رأيتهم قط	: ما رأيت ولداناً قط أكثر منهم.
نهر معترض	: يجري عرضاً.
المحض من البياض	: لونه لون أبيض صافٍ نقي.
سما بصري	: نظر إلى أعلى.
الربابة البيضاء	: السحابة البيضاء المنفردة.
يرفضه	: يتركه ويهمله، أو يهمل العمل به.

شرح الحديث

في صبيحة ليلة من الليالي صلى رسول الله ﷺ بأصحابه صلاة الفجر، ثمّ سألهم عمَّا إذا رأى أحدهم رؤيا، وكان كثيراً ما يسألهم عن مثل ذلك، فإن رأى أحدهم رؤيا أوّلها لهم، فلما أجابوه في تلك الليلة بالنفي، أنشأ يحدّثهم عما رآه هو في ليلته تلك.

حدّثهم أنه رأى في تلك الليلة أنه أتاه آتيان، فابتعثاه، فانطلقا به حتى أوقفاه على رجل مضطجع على الأرض، وآخر قائم عليه فوق رأسه معه صخرة، فإذا به يرفع تلك الصخرة، ويهوي بها على رأس المضطجع، فيثلغ رأسه، أي يحطمه ويكسره، ثم يتدحرج الحجر من شدة الضربة ليس بعيداً عن موضع الضرب، فيقصد الرجل الضارب إلى الصخرة ليهوي بها مرة أخرى على رأس المضطجع بعد أن يعود رأسه صحيحاً كما كان، وهكذا دواليك. وعندما يسبح الرسول ﷺ ربه طالباً من صاحبيه اللذين ابتعثاه

تفسيراً لما شاهده لا يجيبان طلبه، وإنما يطلبان منه أن يمضي معهما إلى مشهد آخر.

فانطلقا به حتى أوقفاه على رجل آخر مستلق على قفاه، ورجل آخر معه كلوب من حديد، وإذا به يأتي ذلك المستلقي فيضع الكلوب في فمه، ويجذبه بقوة وعنف، فيشقّه إلى قفاه، ويفعل مثل ذلك بأنفه وعينه، ثم يتحول إلى الجانب الثاني منه، فيفعل به مثل ذلك، فيعود إلى الشق الأول، فيجده قد رجع صحيحاً، فيفعل به مثل ما فعل أولاً، وهكذا دواليك يفعل به.

واستفسر الرسول ﷺ من صاحبيه كما استفسر أول مرة، فيجيبانه كما أجاباه أول مرة، قائلين له: انطلق انطلق، ولم يفيداه جديداً غير ما رآه.

ثم جاؤوا على مبنى يشبه التنور، أسفله واسع، وأعلاه ضيق، يصدر من داخله ضوضاء عالية مرتفعة، فنظر الرسول ﷺ إلى ما بداخل التنور، فإذا أقوام رجال ونساء عراة، وإذا بالتنور يشتعل بهم ناراً من أسفل، فإذا جاءهم اللهب صاحوا وضوضوا.

ويسأل الرسول ﷺ اللذين صحباه عن هذين، فيقولان له: انطلق، انطلق، ولم يفيداه غير ما رآه، ثم انطلقوا فجاؤوا على نهر ماؤه كالدم القاني، وفي النهر رجل يسبح، وعلى الشاطئ رجل آخر عنده كومة من الحجارة، فيأتي ذلك السابح في نهر الدم إلى الرجل الذي على الشاطئ، ويفتح له فاه، فيلقمه حجراً من تلك الحجارة، فينطلق مبتعداً عنه، ليعود إليه بعد قليل، فيفعل كما فعله أولاً، ليعود رجل الشاطئ إلى إلقامه حجراً آخر.

ثم انطلقوا حتى جاؤوا على رجل كريه المنظر، كأكره ما يكون من الرجال، وعنده نار يعمل على إيقادها، وتسعير نارها.

لقد كانت المشاهد السابقة التي شاهدها الرسول ﷺ مخيفة مرعبة، تغمّ النفس، وتكربها، ثم سارا به في بقية الرحلة إلى مشاهد أخرى مبهجة مفرحة.

وأول مشهد شاهده الرسول ﷺ من المناظر التي سرّه مرآها، مشهد روضة غنّاء ذات أشجار طويلة خضراء، ولشدة خضرتها مالَ لونها إلى السواد، وأعشابها نضرة مزهرة، فيها من كل أزهار الربيع، وفيها رجل طويل، لا يكاد الرائي يبصر رأسه، لارتفاعه علواً في السماء، وحوله ولدان كثيرون لم يرَ الرسول ﷺ تجمعاً لولدان أكثر منهم.

ثم انطلقوا به إلى روضة عظيمة، لم يرَ الرسول ﷺ روضة أعظم منها ولا أحسن، وهناك طلبا منه أن يرقى، فارتقى صعدا حتى وصلوا به إلى مدينة مبنية بلبن الذهب والفضة، وعلى المدينة سور، وللسور باب، فآتوا الباب، فاستأذنوا في الدخول فأذن لهم.

وقد استقبلهم في داخلها رجال، شطر خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ، وشطر كأقبح ما أنت راءٍ، فأمرهم الرجلان اللذان يصحبان الرسول ﷺ أن يذهبوا فيقعوا في نهر معترض قريب، ماؤه أبيض نقي خالص غير مشوب، فذهبوا ووقعوا فيه، وجاؤوا وقد ذهب عنهم القبح الذي كان بهم، فأصبحوا في أحسن صورته.

عند ذلك قالا له معرفين بالمدينة التي يراها الرسول ﷺ : هذه جنة عدن، ثم أشارا له إلى قصر عظيم، مرتفع في السماء ارتفاع السحابة المنفردة، إذ ليس هناك قصر يدانيه أو يساويه، فأخبراه أنه قصره في الجنة، قال الرسول ﷺ : واصفاً قصره الذي أرياه إياه: فسما بصري صعداً، فإذا

قصر مثل الربابة البيضاء، وطلب منهما أن يدخله، فقالا له: أما الآن فلا، وأنت داخله، أي: في مقبل الأزمان.

ثم سألهما أن يخبراه عما رآه من الأعاجيب في ليلته تلك، فقالا له: أما إنا سنخبرك.

أما الرجل الأول الذي يثلغ رأسه بالحجر، فهو رجل يأخذ القرآن، ثم لا يعمل بما فيه، وينام عن الصلاة المكتوبة حتى يذهب وقتها.

أما الثاني الذي يشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه، فهو الرجل الذي يذيع الكذب، وينشره، حتى يبلغ كذبه الآفاق. وبهذا الكذب يؤذي عباد الله الصالحين، وتُنتهك حرمات الناس، ويرفع الأشرار، وتوقع العداوة، والبغضاء بين الناس، وقد تشتعل الحروب المدمرة بسبب كذبة أو فرية تقال.

والمشهد الثالث للزناة والزواني، الذين يعذبون في ذلك التنور.

أما السابح في النهر فآكل الربا، الذي كان يمتص برباه دماء الناس وجهدهم وعرقهم ويذهب بأموالهم.

أما الرجل الكريه المنظر الذي يوقد النار فمالك خازن النار.

وأما الرجل الطويل في الروضة فهو إبراهيم، والأولاد حوله الذين ماتوا على الفطرة، أي: صغاراً لم يبلغوا.

وأما الذين رآهم الرسول ﷺ في الجنة شطر منهم حسن وشطر قبيح، فهم أقوام من المؤمنين، خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، تجاوز الله عنهم، وغسل عنهم قبحهم.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- كان الرسول ﷺ يجيد تعبير ما رآه أو رآه أصحابه من الرؤيا المنامية، وكان يحب أن يعبر لأصحابه رؤاهم، ويقص عليهم ما رآه في منامه.

٢- رؤيا الرسول ﷺ حق وصدق، وكذلك رؤى جميع الأنبياء، أما غيرهم فمنها الرؤيا الصادقة، ومنها الرؤيا الكاذبة، ومنها أحاديث النفس كما ورد في بعض الأحاديث.

٣- في الحديث ردّ على من يكره تعبير الرؤيا قبل طلوع الشمس، فقد كان الرسول ﷺ يسأل أصحابه بعد صلاة الفجر عن رؤاهم ليعبرها لهم.

٤- الجزاء من جنس العمل، فالذي يرفض ما علمه من القرآن، وينام عن الصلاة المكتوبة يثلغ رأسه بحجر، والذي يفتري الكذب، وينشره في الآفاق يشرشر فمه وأنفه وعينه، والذي يمتص دماء الناس برباه، يسبح في بحر من دم، ويلقم الحجارة، وهكذا.

٥- التحذير من ترك العمل بكتاب الله، والنوم عن الصلاة المكتوبة، بحيث يصبح ذلك له عادة، أما من غلبه النوم من غير تفريط، أو كان ذلك بسبب النسيان، فذلك مما يعفى عنه، وعليه أن يصلي عندما يصحو من نومه، وإذا كان ناسياً فعند تذكره.

٦- التحذير من الكذابين الذين يشيعون الأكاذيب، وينشرونها بين الناس، وينبغي أن يتنبه العاملون بالإعلام اليوم في الفضائيات والإذاعات والصحف إلى خطورة ما هم فيه، فلا يجوز لهم اختلاق الكذب، ولا ترديده، فكل ذلك مما يعاقب عليه.

٧- الترهيب من الزنا، وبيان ما يفعل بالزناة بعد الموت، وكيف يكون حالهم.

٨- التحذير من الربا، الذي يغرق صاحبه في بحر من الدم، ويطعم صاحبه بدل الأموال الحرام التي أكلها عن طريق الربا الحجارة.

٩- النار مخلوقة موجودة، ومالك خازن النار، وهو الذي يقوم على النار، ويعتني بتهيئتها للمجرمين في يوم الدين.

١٠- الأولاد الصغار في الجنة في رعاية إبراهيم ﵇ إلى يوم الدين.

١١- الجنة مخلوقة، وبناؤها من الذهب والفضة، وهي رياض غنّاء، وأنهار جارية، وقصور فاخرة، وأعظم قصورها قصر الرسول ﷺ الذي يناطح السحاب علواً ورفعةً.

١٢- تجاوز الله عن عباده الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فشوّهوا أنفسهم بذنوبهم ومعاصيهم، وغفران الله لهم ما كان منهم، فيعود لهم جمالهم، ويذهب عنهم قبحهم.

١٣- إسراء الرسول ﷺ في ليلة الإسراء وعروجه إلى السماء كان بروحه وجسده، أما هذا الذي في الحديث فكان بروحه فحسب، وقد وقع ذلك للرسول ﷺ مراراً.

١٤- إبطال أقوال بعض المفترين الذين يزعمون أنهم يقيمون في الجنة في الحياة الدنيا، فالرسول ﷺ لم يؤذن له بدخول قصره في الدنيا، وسيدخله في الآخرة.

١٥- لا بأس على الإمام أو الخطيب أن يستدبر القبلة، ويستقبل الناس، كما كان يفعل الرسول ﷺ في خطبته، وكما فعله الرسول ﷺ بعد صلاته.

* * *

القِصَّةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ
الحوار بين الجنّة والنّار

تمهيد

هذا الحديث إخبار من الصادق المصدوق عما يكون من حوار بين الجنة والنار، وسؤال كل منهما عن السبب في اختصاصها بالنوع الذي يدخلها.

نص الحديث

عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قال النبيُّ ﷺ : (تَحَاجَّتِ الجنة والنّار، فقالت النّار: أُوثِرْتُ بالمتكبِّرين والمتجبِّرين، وقالت الجنّة: ما لي لا يَدخُلُني إلا ضُعَفاء الناس وسقَطُهم! قال الله تبارك وتعالى للجنة: أنتِ رَحْمَتي أَرْحَمُ بك من أشاءُ من عبادي، وقال للنّار: إنما أنتِ عذابٌ أُعذِّبُ بك من أشاء من عبادِي. ولكلِّ واحدَةٍ منهما مِلْؤها، فأما النار فلا تمتلئُ حتى يضعَ رِجلَهُ فتقولُ: قطْ قطْ قطْ، فهنالِك تمتلئُ ويُزْوَى بعضُها إلى بعض، ولا يَظْلم الله عزَّ وَجلَّ من خَلقِهِ أحداً. وأما الجنة فإنَّ الله عزَّ وجلَّ ينشئُ لها خلقاً).

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق: ٣٠]. [ورقمه: ٤٨٥٠] وأطرافه في: [٤٨٤٩، ٧٤٤٩].

ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، [ورقمه: ٢٨٤٦].

غريب الحديث

تحاجت : تخاصمت.

وسقطهم : ضعفاؤهم الذين لا يأبه أهل الدنيا بهم، وإن كانوا في ميزان الله عظماء.

قط، قط : حسبي، أي: يكفيني.

يُزوَى : ينضم بعضها إلى بعض.

شرح الحديث

أخبرنا رسولنا ﷺ عما يكون بين الجنة والنار من خصام وحجاج، فالنار تقول: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، أي أن غالب من يدخلها هؤلاء، وإلا فإن الفقراء والضعفاء هم من أهل النار إذا هم ماتوا على كفرهم.

وقالت الجنة متسائلة: ما لي لا يدخلني إلا الضعفاء الذين لا يأبه بهم أهل الدنيا، وهذا في الأغلب، وإلا فإن بعض من يدخل الجنة هم من الملوك كداود وسليمان وطالوت وذي القرنين، وبعضهم أغنياء، كأغنياء الصحابة، كعثمان وعبدالرحمن بن عوف، وبعضهم ذو نسب في أقوامهم، وكذلك كان جميع الأنبياء بعد لوط، كلهم في الذروة في أنساب أقوامهم.

فقال الرب - تبارك وتعالى - للجنة مفقّهاً ومعلّماً: أنتِ رحمتي أرحم بكِ من أشاء من عبادي، وهم الذين استجابوا لله ورسله، فآمنوا وصدّقوا

المرسلين، وعملوا بما أنزله الله من شرائع إلى رسلهم. وقال للنار مفهماً ومعلماً: أنت عذاب أعذب بك من كفر بي، وتكبّر عن الإيمان، ورفض إطاعة رسلي.

ثم قال لهما: لكل واحدة منكما ملؤها، فأما النار فمع كثرة ما يلقى فيها، ومع تكبير أجسادهم حتى يكون ضرس الواحد منهم مثل جبل أحد، فإنها لا تمتلئ، وتبقى يلقى فيها وهي تقول: ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق: ٣٠] حتى يضع ربّ العزة قدمه فيها، فعند ذلك ينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: هذا يكفيني، وحسبي ما ألقي فيّ.

وأما الجنة فمع كثرة ما أدخل فيها، وسعة ما يعطى كل واحد في الجنة، فإنه يبقى فيها متّسع لآخرين، فيخلق الله خلقاً يسكنهم فسيح جنته.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- العلم بأن الجنة والنار يتحاجّان على النحو الذي أخبرنا به رسولنا ﷺ .

٢- تحاجّ الجنة والنار يدل على أنهما تدركان وتتكلمان، وفي الكتاب والسنّة ما يدل على أن الجماد والحيوان يتكلم، فقد كان حجر في مكة يسلّم على الرسول ﷺ بالنبوة قبل أن ينزل عليه الوحي، وأخبر الرسول ﷺ أن السباع تكلم الإنس قبيل يوم القيامة، وأخبرنا القرآن أن كل شيء يسبح بحمد الله، ولكننا لا نفقه تسبيحهم، وأخبرنا ربنا أنه يختم على أفواه المكذبين الذين ينكرون ما جنوه في الدنيا من كفر وموبقات، وتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم وجلودهم بما فعلوه.

٣- أكثر أهل النار الطغاة والجبابرة الذين تأخذهم العزة بالإثم، والذين يسعون بالإفساد في الأرض، وظلم الناس، كفرعون وهامان وقارون ونمرود وأمية بن خلف.

٤- أكثر أهل الجنة الفقراء والمساكين والضعفاء الذين لا يأبه لهم أهل الدنيا.

٥- إثبات الرِّجل لله رب العالمين، نؤمن بذلك، تصديقاً لخبر رسولنا ﷺ، ونجزم بأن رجله تبارك وتعالى لا تشبه أرجل المخلوقين، على حدّ قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] فلا نشبه رجله وسمعه وبصره تبارك وتعالى بأرجل المخلوقين وأسماعهم وأبصارهم، لأنه ليس كمثله شيء، ولا ننفي عنه ذلك كله خوفاً من تشبيهه بخلقه، ولا نتأوّله على غير مراد الله تبارك وتعالى.

٦- أوَّلَ بعض أهل الكلام القدم الثابتة في بعض روايات الحديث والرجل تأويلاً هو أقرب إلى التحريف منه إلى التأويل، فقالوا: قدمه ورجله، أي: قدم بعض المخلوقين، فيعود الضمير في رجله وقدمه إلى المخلوقين، وقال بعضهم: القدم الجماعة من الناس، وقال بعضهم المراد بذلك إذلال جهنم، وليس هناك رجل أو قدم، وقال بعضهم: هذا مخلوق اسمه القدم [راجع في مثل هذه التأويلات: فتح الباري: ٨/ ٧٥٨، والنووي على مسلم: ١٦-١٨/ ٣١٠] وطريقة السلف هي الطريقة المثلى، وهو أن تمرّ كما جاءت، ولا يتعرض لها بالتأويل [راجع فتح الباري: ٨/ ٧٥٨].

٧- سعة الجنة، حتى لا تضيق بأهلها، ويبقى فيها فضل يخلق الله نشأ جديداً يُسكنهم إياها.

٨- سعة النار ووضع ربّ العزة رجله فيها، فتتضايق وتكتفي بمن دخلها.

٩- الثواب ليس متوقفاً على العمل، فإن الله يخلق خلقاً جديداً لم يعملوا، ويدخلهم الجنة، ومثل هؤلاء أبناء المؤمنين الذين ماتوا صغاراً.

* * *



القِصَّةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ
أنا لها، أنا لها

تمهيد

«أنا لها» كلمة يقولها الرسول ﷺ عندما يتهيب سادة الأنبياء والرسل يوم القيامة عن الشفاعة عند الله ليأتي لفصل القضاء بين عباده، ليريحهم من موقفهم ذاك، فيعتذر عن ذلك آدم، ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى، حتى إذا جاؤوا الرسول ﷺ قال: (أنا لها، أنا لها).

نص الحديث

عن أبي هريرةَ ﷺ قال: (أُتِيَ رسولُ الله ﷺ بلحم، فرُفِعَ إليهِ الذِّراع - وكانت تُعجِبُهُ - فنهَسَ منها نـَهسةً ثم قال: أنا سيِّدُ الناس يومَ القيامةَ، وهل تدرونَ ممَّ ذلك؟

يُجمَعُ الله الناسَ - الأولين والآخِرين - في صَعيدٍ واحدٍ، يُسمعهمُ الداعي، ويَنفذُهَمُ البصر، وتدنو الشمسُ، فيبلُغُ الناسَ من الغمِّ والكَربِ ما لا يُطيقون ولا يَحتمِلون. فيقولُ الناس: ألا تُرَونَ ما قَد بَلَغكم؟ ألا تنظرون من يَشفعُ لكم إلى ربكم؟ فيقولُ بعضُ الناس لبعض: عليكم بآدمَ.

فيأتون آدمَ ﷺ فيقولون له: أنتَ أبو البشر، خَلَقَكَ الله بيدِهِ، ونفخ فيكَ من رُوحِهِ، وأمرَ الملائكةَ فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا تُرَى إلى

ما نحن فيه؟ ألا ترَى إلى ما قد بَلَغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضبَ اليوم غضباً لم يَغضَبْ قبلَه مثله، ولن يَغضبَ بعدَهُ مثلَه، وإنهُ نهاني عن الشجرة فَعَصَيتُه، نفسي نفسي نفسي، اذهَبوا إلى غيري، اذهَبوا إلى نوح.

فيأتونَ نوحاً فيقولون: يا نوح، إنك أنتَ أوَّل الرُّسل إلى أهل الأرض، وقد سمّاك الله عبداً شَكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترَى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي عزَّ وجل قد غضبَ اليومَ غضباً لم يَغضَب قبلَه مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دَعوةٌ دَعَوتُها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم.

فيأتونَ إبراهيمَ فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبيُّ الله وخليله من أهل الأرض، اشفعْ لنا إلى ربك، ألا ترَى إلى ما نحنُ فيه؟ فيقول لهم: إنَّ ربي قد غضبَ اليومَ غضباً لم يَغضب قبله مثله، ولن يَغضبَ بعده مثله، وإني قد كنتُ كذبتُ ثلاثَ كذبات - فذكرهنَّ أبو حَيان في الحديث - نفسي نفسي نفسي، اذهَبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى.

فيأتون موسى فيقولون: يا موسى، أنت رسولُ الله، فضلك الله برسالتِهِ وبكلامِهِ على الناس، اشفعْ لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضبَ اليومَ غضباً لم يَغضبْ قبله مثله، ولن يَغضبَ بعدَهُ مثله، وإني قد قَتلتُ نفساً لم أُومر بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى عيسى.

فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى، أنتَ رسولُ الله وكلمتُهُ ألقاها إلى مريم، وروحٌ منه، وكلمتَ الناسَ في المهد صبياً، اشفع لنا، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضبَ اليوم غضباً لم يَغضب قبلهُ مثله،

ولن يَغضبَ بعدَهُ مثله – ولم يذكر ذنباً – نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ .

فيأتون محمداً ﷺ فيقولون: يا محمد، أنت رسولُ الله، وخاتمُ الأنبياء، وقد غفرَ الله لك ما تقدَّمَ من ذنبك وما تأخر، اشفعْ لنا إلى ربك، ألا ترَى إلى ما نحنُ فيه؟ فأنطلِقُ، فآتي تحتَ العرش، فأقَعُ ساجِداً لربي عزَّ وجل، ثمَّ يَفتح الله عليَّ من مَحامِدِه وحُسنِ الثناءِ عليهِ شيئاً لم يَفتحْهُ على أحدٍ قبلي، ثم يُقال: يا محمد، ارفَعْ رأسك، سَلْ تُعطَهْ، واشفعْ تُشَفَّع.

فأرفعُ رأسي فأقول: أمَّتي يا ربّ، أمتي يا رب. فيُقال: يا محمد، أدخِلْ من أمتكَ مَن لا حِسابَ عليهم من الباب الأيمن من أبوابِ الجنة، وهم شركاءُ الناس فيما سوَى ذلك منَ الأبواب، ثم قال: والذي نفسي بيدِهِ إنَّ ما بينَ المصراعَين من مصاريع الجنة كما بينَ مَكةَ وحِمْيَر، أو كما بين مكةَ وبُصرَى).

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير، باب ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء:٣] ورقمه [٤٧١٢] وأطرافه في: [٣٣٤٠، ٣٣٦١] ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، [ورقمه ١٩٤].

غريب الحديث

فنهس منها نهسة : النهس أخذ اللحم بمقدم الأسنان.

سيد الناس : الذي يفوقهم بما حباه الله به من خصائص.

ما قد بلغنا : ما وصل إليه حالنا.

خليله : الذي اختصّه واصطفاه لنفسه.

المصراعان : جانبا الباب.

حمير : موضع قبيلة حمير في بلاد اليمن.

بصرى : مدينة من مدائن الشام.

شرح الحديث

كان الرسول ﷺ يوماً جالساً بين أصحابه، فأتي بقدر فيه لحم شاة مطبوخ فرفع إليه الذراع منها، وكان يعجبه، فأخذه بيده، ثم قضم منه قضمةً، وأنشأ يحدث أصحابه عما ينعم الله به عليه يوم القيامة.

أخبرهم أنه سيكون يوم القيامة سيد ولد آدم، وسيظهر الله ذلك لخلقه أجمعين في ذلك اليوم العظيم، وقد سأل الرسول ﷺ أصحابه ليجلب انتباههم، ويهيجهم على الاستماع لحديثه، وحفظه، فقال: هل تدرون ممَّ ذلك؟

ثم أخبرهم أن الله يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة كلهم، لا يغيب منهم أحد، ولا يتخلف منهم أحد، ولا ينسى منهم أحد، قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم:٩٣-٩٥].

وهم في اجتماعهم الحاشد في ذلك اليوم يبصرهم الناظر، ويسمعهم الداعي، أي – والله أعلم – أن بصر الله وسمعه يحيط بهم، يبصرهم ويشاهدهم، ويسمع ما يقولونه، لا يخفى عليه من ذلك شيء.

وهذا هو الموقف العظيم الذي يقوم الناس فيه لرب العالمين، ويجمعهم فيه ليحاسبهم على ما قدموا، ويكون الناس فيه في كرب عظيم، فالشمس تدنو من الناس، فيبلغ بهم الكرب والغم أعلاه، ويأتيهم ما لا يطيقون، وفصل الرسول ﷺ ما يصيب الناس من كرب في حديث آخر في ذلك المقام، فقال: (تُدنى الشمس يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حِقْويه، ومنهم من يُلْجمه العرق إلجاماً) [مسلم: ٢٨٦٤] وأخبر ﷺ أن (العرق يوم القيامة يذهب في الأرض سبعين باعاً) [مسلم: ٢٨٦٣].

إن الله يخلق الخلق يوم القيامة خلقاً جديداً غير قابل للفناء، وإلا لو دنت الشمس منا اليوم مقدار ميل، لا فرق بين أن يكون ميل المكحلة أو الميل من الأرض لتبخّرت أجسادنا.

وعندما ينظر الناس إلى ما هم فيه من البلاء والغم والكرب يقول بعضهم لبعض: ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟

وهنا تتجه الأنظار إلى الأخيار من البشر الذين لهم المقامات العاليات عند الله، وفي مقدمتهم سادة الرسل والأنبياء، أما المتجبرون والمتكبرون في الدنيا من أصحاب المال والجاه والملك والسلطان كفرعون ونمرود وجنكيزخان وأمثالهم، فلا يلتفت إليهم، ولا يذكرون، فهم حقراء أذلاء.

وأول من يقصده الناس أبوهم آدم عليه السلام ، فيقصدونه طالبين منه أن يشفع إلى الله عز وجل ليأتي لمحاسبة العباد والفصل بينهم، ويذكرون له

المؤهلات التي تؤهله لهذا المقام، فهو أبو البشر جميعاً، خلقه الله بيده من دون الخلق، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، ويهيجونه للقيام بما طلبوه منه، داعين أن ينظر إلى ما هم فيه من همٍّ وغمٍّ وبلاء.

فيعتذر آدم ﷺ، فهو لا يرى نفسه أهلاً لأن يقوم ذلك المقام في ذلك اليوم العظيم، الذي غضب فيه الرب غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ويذكر لهم ما كان من عصيانه ربّه في أكله من الشجرة التي نهاه الله أن يأكل منها في الجنة، وحسبه في ذلك اليوم أن ينجو بنفسه، ويدّلهم على نوح ﷺ.

فيأتون نوحاً ﷺ طالبين منه الشفاعة إلى ربهم، ليحاسب عباده، ويأتي للفصل بين العباد، ذاكرين له ما يؤهله للقيام بذلك، فهو أول رسل الله إلى أهل الأرض، وهو الذي أثنى الله عليه بأنه عبدٌ شكور.

ولكن نوحاً يأبى أن يقوم هذا المقام، فليس له بأهل، ويذكر أنه قد كان له دعوة في أمّته، وكل نبي له مثل ذلك، وقد استنفد دعوته عندما دعى بها عليهم فأهلكهم الله، وطلب منهم أن ينطلقوا إلى إبراهيم، لعله يقوم هذا المقام العظيم.

فيأتون إبراهيم ﷺ نبي الله وخليله، فيقول لهم كما قال آدم ونوح: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ويذكر كذباته الثلاث، وهو في ذلك اليوم لا يطلب النجاة إلا لنفسه، ويطلب منهم إتيان موسى ﷺ.

ويأتون موسى ﷺ رسول الله الذي فضّله الله على الخلق بكلامه، فيأبى، ويذكر لهم أنه قتل نفساً لم يؤمر بقتلها، ويطلب منهم الانطلاق إلى عيسى ﷺ.

فيأتون عيسى، ذاكرين له فضله عند ربه، فهو رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلّم الناس في المهد صبياً، ومع كونه لم يذكر ذنباً، إلا أنه يعلم أن المقام ليس بمقامه، ويدلّهم على صاحب المقام المؤهل للقيام به، وهو محمد رسول الله ﷺ.

فيأتون الرسول الخاتم صلوات الله وسلامه عليه، ويذكرون له ما يؤهله لهذا المقام العظيم الذي اعتذر عن القيام به آدم عليه السلام وأولي العزم من الرسل: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وهم سادة الرسل بعد محمد ﷺ، فيقولون له: (يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربّك، ألا ترى ما نحن فيه؟).

عند ذلك لا يخيب ظنّهم، ولا يرد رجاءَهم، ويقول كما ثبت في رواية أنس: (أنا لها) [البخاري: ٧٥١٠، ومسلم: ١٩٢].

ويقوم الرسول ﷺ المقام المحمود الذي يحمده عليه الأولون والآخرون، وهو الذي وعده الله إياه في كتابه في الحياة الدنيا في قوله: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ [الإسراء: ٧٩].

إنه مقام لا ينبغي أن يكون إلا لعبد واحد من عباد الله، وقد خصّ الله به رسوله محمداً ﷺ دون غيره من أنبياء الله ورسله.

يقوم الرسول ﷺ منطلقاً إلى ربّه فيستأذن عليه فيؤذن له، فيقوم بين يديه، فيحمده بمحامد لم يكن قادراً عليها في الدنيا، يلهمها الله له في ذلك اليوم ثمّ يخر له ساجداً [البخاري: ٧٥١٠، ومسلم: ١٩٢ من حديث أنس].

وجاء في هذا الحديث: (فانطلق، فآتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي عز وجل، ثم يفتح الله عليّ من محامده وحُسْن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي).

عند ذلك يُنادَى الرسول ﷺ : (يا محمد، ارفع رأسك، سَلْ تعطَهْ، واشفع تُشَفَّع، فيرفع رأسه، ويقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب. فيقال: يا محمد، أدخل أمتك من لا حساب عليهم، من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب).

ثم ذكر الرسول ﷺ سعة أبواب الجنة فقال: (والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير، أو كما بين مكة وبصرى).

وذكر في حديث أنس أنه يقال له بعد استئذانه الأول: (انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان) قال: (فانطلق فافعل).

ثم يعود ثانيةً فيفعل مرة أخرى كما فعل في الأولى من الاستئذان والسجود، فيقال له: (انطلق فأخرج من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان) وفي الثالثة يقال له: (انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان).

وفي الرابعة يستأذن ربه في إخراج من قال: لا إله إلا الله من النار، فيقول كما في رواية مسلم: (ليس ذاك لك، أو قال: ليس ذاك إليك، ولكن وعزّتي وكبريائي وعظمتي وجبريائي، لأخرجن من قال: لا إله إلا الله).

١- الرسول ﷺ أفضل رسل الله كلهم، ويظهر فضله في المقام المحمود الذي وعده ﷻ إياه في قوله: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩] وهو مقام الشفاعة الذي لا يستطيع القيام به أحد من الملائكة والمرسلين، ويعتذر عنه آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى، فغيرهم أولى بعدم الاستطاعة منهم.

٢- إثبات الشفاعة على النحو الذي ذكرته الأحاديث من استئذان ربّ العزة، والإذن له، وقبول شفاعته.

٣- الشفاعة التي تطلبها الوفود التي جاءت الرسول ﷺ من أجلها هي مجيء الحق تبارك وتعالى للحكم بين الناس وحسابهم، ولا يشكل على هذا أن الرسول ﷺ عندما يشفع يشفع لأمته، لأنه ثبت في الأحاديث: أننا الآخرون السابقون يوم القيامة، فإذا حاسب الله هذه الأمة، وأدخل المؤمنين منهم الجنة، فإن ذلك يكون إيذاناً بحساب جميع الناس والفصل بينهم.

وقد أشكلت هذه المسألة على كثير من العلماء وشُرّاح الحديث، ومنهم النووي وابن حجر [راجع: شرح النووي على مسلم: ١-٣/ ٤٢٣ وفتح الباري: ١١/ ٥٣٣].

٤- أعظم غضب يغضبه الرب - تبارك وتعالى - يكون يوم القيامة، فإنه لا يغضب قبله ولا بعده مثله، ومن هنا هابَ آدم ونوح ومن بعدهم في الشفاعة بين يديه.

٥- على المرء أن لا يتقدم لأمر لا يجد نفسه له أهلاً، كما فعل المعتذرون من الأنبياء عن الشفاعة.

٦- معرفة صورة ما يقع يوم القيامة من أنباء الغيب، ومن ذلك تشكيل وفد يأتي آدم فمن بعده، وما يقوله الأنبياء في ذلك اليوم، ونحو ذلك.

٧- زيادة الإيمان ونقصانه في القلوب، فمن العباد من لا يكون في قلبه إلا مثقال شعيرة من إيمان، ومنهم من لا يكون في قلبه إلا مثقال خردلة، وأقل من ذلك كما جاء في الحديث.

٨- إثبات الشفاعة في أهل الكبائر، وللرسول ﷺ من هذه الشفاعة القدح المعلى، ويشركه فيها الملائكة والنبيون والصديقون والشهداء، بخلاف الشفاعة العظمى فإنه يختص بها دون غيره.

٩- لا يكفر المؤمن الموحد بارتكابه بعض الكبائر خلافاً للخوارج، ولا يخلّد في النار خلافاً لهم وللمعتزلة، بل يخرجون من النار بشفاعة الشافعين، وبرحمة أرحم الراحمين.

١٠- جواز تحديث المرء بنعمة الله عليه إن أمن على نفسه الفتنة والرياء، فالرسول ﷺ حدّث أصحابه أنه سيد ولد آدم يوم القيامة، وأخبرهم قصة ذلك.

١١- فضل عيسى عليه السلام في كونه لم يذكر أمراً يعتذر ويخاف منه، بخلاف غيره من الرسل الذين طلبهم الناس للشفاعة.

١٢- فضل أمة الرسول ﷺ ، فقد نالوا ما لم ينله غيرهم في شفاعة الرسول ﷺ ، وإدخالهم الجنة قبل غيرهم من الأمم.

١٣- سعة رحمة الله في إخراجه من مات على التوحيد من المؤمنين وإن لم يفعلوا خيراً قط، وهؤلاء هم الذين تحرقهم النار، فيؤتى بهم الجنة

ضبائر ضبائر، فينبتون على نهر الحياة، وهم الذين يسمون بعتقاء النار، كما صحّ في الأحاديث.

١٤- شدة ما يعانيه الناس يوم القيامة بسبب دُنُوِّ الشمس منهم، وبيان ما يكابدونه من أخذهم العرق بقدر ذنوبهم.

١٥- فضل الذين يقصدهم الناس ليشفعوا عند الله في فصل القضاء، فالرسل والأنبياء عدد كبير، واختيارهم دون غيرهم، يدل على فضلهم عمّن سواهم.

١٦- بيان حسن الأدب مع الله عندما يريد العبد أن يسأله ويطلب منه، فالرسول ﷺ قدم لشفاعته بمحامد حمد ربه بها، وسجد لربه خاشعاً متذللاً متضرعاً، فأجاب الحق دعوته، وحقق سؤلته.

١٧- معرفة بعض ما يحبه الرسول من الطعام، فقد كان يعجبه من الشاة ذراعها.

١٨- الجنة لها أبواب تفتح وتغلق، وأبوابها واسعة، فالباب الواحد كما بين مكة واليمن، أو مكة وبصرى.

١٩- جواز التحدث والكلام على الطعام، فالرسول ﷺ قصّ قصة هذا الحديث، وهو يأكل من ذراع الشاة، وأصحابه يأكلون معه، والأحاديث الناهية عن الكلام على الطعام لا يصح منها شيء.

* * *

القصة الخامسة عشرة
الثلاثة الذين يجرون إلى النار

تمهيد

يحدثنا هذا الحديث عن حال ثلاثة تجرّهم ملائكة الجبار إلى النار، اثنان ينجوان، والثالث يهلك، فالأول: ينجيه استجارته بالله، والثاني حُسْن ظنّه بالله، والثالث توبقه ذنوبه ومعاصيه.

نص الحديث

عن ابن عباس، قال: (إن الرجل ليجرّ إلى النار، فتنزوي وينقبض بعضها إلى بعض، فيقول لها الرحمن: ما لك؟ فتقول: إنه يستجير مني، فيقول: أرسلوا عبدي. وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول: يا رب ما كان هذا الظن بك، فيقول: فما كان ظنك؟ فيقول: أن تسعني رحمتُك، فيقول: أرسلوا عبدي. وإن الرجل ليجرّ إلى النار، فتشهق إليه النار شهوق البغلة إلى الشعير، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف).

تخريج الحديث

رواه ابن جرير موقوفاً على ابن عباس [١٨/ ١٨٧] وقال فيه ابن كثير: إسناده صحيح [تفسير ابن كثير: ٦/ ٩٧، سورة الفرقان، الآية ١٢،

والنهاية في الفتن والملاحم: ص٢٢١] وهذا الحديث له حكم المرفوع، فليس هو مما يقال بالرأي.

غريب الحديث

يستجير مني : يطلب من الله أن يحميه مني.

فتشهق وتزفر : الشهقة والزفرة: الصيحة، والزفير: أول صوت البغلة أو الحمار، والشهيق آخره، لأن الزفير إدخال النفس، والشهيق إخراجه. [راجع: مختار الصحاح: ص٢٧٢، ٣٥٠].

شرح الحديث

هذا الحديث وإن كان موقوفاً على ابن عباس، فإن له حكم المرفوع، فإنه ليس مما تطمح العقول أن تتعرف إليه، وتحصله بالنظر العقلي المجرد.

يخبرنا هذا الحديث خبر ثلاثة رجال يُجرّون إلى النار في يوم القيامة.

أما الأول، فإنَّ النار تنزوي وتنقبض وهو يُجر إليها، فيسأل ربُّ العزة النارَ - وهو أعلم به منها - عن السبب الذي يجعلها تنزوي وتنقبض، فتقول: إنه يستجير، ويحتمي بك مني.

فيقول الله لملائكته: أرسلوا عبدي، أي: أطلقوه، وينجو من النار.

أما الثاني، فيقول لربّه، وملائكة الجبار تجرّه إلى النار: (ما كان هذا الظنّ بك، فيقول له رب العزة: فما كان ظنك؟ فيقول: أن تسعني رحمتك. فيقول: أرسلوا عبدي) لقد هدي هذا العبد إلى حُسْن الجواب، وقد خلّصه ظنّه الحسن بالله، فنجا من النار.

أما الثالث، فتجره الملائكة إلى النار، وليس له من العمل ما للآخرين، فتصيح النار به صيحة البغلة الجائعة إلى الشعير عندما يقرَّب إليها، وتزفر زفرة تخلع قلوب العباد.

ومصداق ذلك في كتاب الله قوله تعالى: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ [الفرقان: ١٢].

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- بعض عصاة المؤمنين يأمر بهم إلى النار، ثم لا يدخلونها، كالرجلين الأولين المذكورين في هذا الحديث.

٢- الاستجارة بالله والاستعاذة به تنفع في الدنيا والآخرة، فالله يحمي ويحفظ من استجار به.

٣- إحسان الظن بالله تعالى مما ينجي العبد ويخلّصه من المهالك، ومن المواضع التي ينبغي أن يحسن العبد الظن بربّه، عند الموت، ويوم القيامة.

٤- دلّت النصوص على أن النار تبصر أهلها القادمين إليها من بعيد، ولها لسان تتكلم به، وهي تشهق إلى أهلها وتزفر، نعوذ بالله من النار، وفي سنن الترمذي بإسناد صحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (تخرج عنق من النار يوم القيامة، لها عينان تبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق، يقول: إني وُكّلت بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين) [سنن الترمذي: ٢٥٧٤. وقال الترمذي فيه: حسن غريب صحيح].



القِصّةُ السَّادِسَةُ عَشْرَةُ
الذي تندلق أقتاب بطنه في النار

تمهيد

إنَّ من أعظم الذنوب عند الله أن يأمر العبد غيره بالاستقامة على أمر الله، وفعل المعروف، وترك المنكر، ولا يكون هو كذلك، فيكون حاله كحال هذا الذي يُلقى به في النار، فيعجب أهل النار من حاله، فقد كان يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ولكنه كان يأمر بالمعروف ولا يأتيه، وينهى عن المنكر ويأتيه.

نص الحديث

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، قَالَ: قِيلَ لَهُ: أَلاَ تَدْخُلُ عَلَى عُثْمَانَ فَتُكَلِّمَهُ؟ فَقَالَ: أَتَرَوْنَ أَنِّي لاَ أُكَلِّمُهُ إِلاَّ أُسْمِعُكُمْ؟ وَاللهِ! لَقَدْ كَلَّمْتُهُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ. مَا دُونَ أَنْ أَفْتَتِحَ أَمْراً لاَ أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَهُ. وَلاَ أَقُولُ لأَحَدٍ، يَكُونُ عَلَيَّ أَميراً: إِنَّهُ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (يُؤتَى بالرجل يومَ القيامةِ فيُلقَى في النار، فتندَلِقُ أقتابُ بطنه، فيدورُ بها كما يدور الحمارُ بالرحَى، فيجتمعُ إليه أهلُ النار، فيقولون: يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بَلى. قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ، وَأَنْـهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ).

تخريج الحديث

رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، [ورقمه: ٢٩٨٩] والسياق له.

ورواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، [ورقمه: ٣٢٦٧]، وفي كتاب الفتن: [٧٠٩٨].

غريب الحديث

أترون أني لا أكلمه إلا أسمعكم : أتظنون أني لا أكلمه إلا وأنتم تسمعون.

فتندلق أقتاب : الأقتاب الأمعاء واحدها قتبة. واندلاقها: خروجها بسرعة في النار.

فيجتمع إليه أهل النار : يتحلّقون حوله، ويجتمعون عليه.

شرح الحديث

كان أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله ﷺ ومن خاصة عثمان في خلافته، وكان قد ظهر على الوليد بن عقبة وهو أخو عثمان لأمه بعض المخالفات الشرعية، وكان عثمان يولّيه، ويستعمله [فتح الباري: ١٣/٦٦]. فحض بعض المسلمين أسامة بن زيد على مناصحة عثمان وتكليمه في شأن الوليد، فأخبرهم أسامة أنه كلمه سراً دون أن يفتح باب الإنكار على الأئمة علانية، خشية أن تفترق كلمة المسلمين، ثمّ ذكر لهم أنه لا يداهن أحداً، ولو كان أميراً، بل ينصح له في السر جهده، فهدفه الإصلاح بعيداً عن الرياء وطلب السمعة.

وذكر لهم موقفه من الأمراء الذين يولون أمر الناس،وأنه لا يركن إليهم، ولا يتملّقهم، فيقول لأحدهم: إنه خير الناس، بعدما سمع من رسول الله ﷺ حديثاً يتعلق بهذا الأمر. فسألوه عما سمعه من الرسول.

فأخبرهم عن قصة صنف من الناس يرمى بالواحد منهم في النار، فتندلق أقتاب بطنه في النار، أي ما في داخل بطنه وهي أمعاؤه، فيأخذ بالدوران حولها كما يدور الحمار بالرحى.

فيجتمع عليه من كان يعرفه في الحياة الدنيا متعجبين من كونه معهم في النار، مع أنه كان في الحياة الدنيا من الذين يُظنّ بهم الخير، ويتأسى ويُقتدى به، فيقولون له: يا فلان ما لكَ؟ وما الذي جاء بك إلى هذا الموضع على هذه الصورة المؤلمة القبيحة؟ فقد كنت تأمرنا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر، فقال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه.

إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغي به وجهه، وهذا الرجل وأمثاله لم يكونوا صادقين فيما يظهرون به أمام الناس، فقد كانوا يراؤون الناس في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، أما واقعهم فإنهم يتركون الأعمال الصالحة التي يأمرون العباد بها، ويرتكبون المعاصي والموبقات التي ينهون عنها.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- نصح الخلفاء والأمراء فيما يقعون فيه من مخالفات شرعية يكون سراً، إذا كانوا من الذين يقبلون النصح ويستمعون للناصحين، فإن كانوا من الظلمة المستكبرين، فأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر.

٢- عدم الوثوق دائماً بالذين يتصدّرون الناس نصحاً وتعليماً وإفتاءً، فبعض هؤلاء قد يخالف باطن حالهم ظاهره، وقد يأتون في السرّ ما ينهون عنه الناس علانية، ويتركون ما يأمرونهم به.

٣- عِظَم جريمة هؤلاء المرائين، وعِظَم عقوبتهم في النار، إذ يُقذف بهم في النار، فتندلق أمعاؤهم فيها، فيدورون حولها دوران الحمار بالرحى.

٤- تأثير أحاديث الرسول ﷺ في أصحابه والصالحين من بعدهم، فموقف أسامة الذي وقفه نابع عن هذا الحديث الذي حفظه عن رسول الله ﷺ .

٥- أبرز صور عذاب هذا الصنف المُلقى في النار، اندلاق أمعائه على بلاط النار، لأن شهوة البطن هي التي كانت تتحكم في تصرفاتهم.

* * *

القِصَّةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ
المبددون ثرواتهم في الآخرة حتى يفلسوا

تمهيد

يحدِّث الرسول ﷺ في هذا الحديث عن الذين يبددون ثرواتهم في الآخرة حتى يفلسوا، وثروة الآخرة الحسنات التي جمعوها من وراء أعمالهم الصالحة، وتبديدها بسبب ظلمهم العباد في الدنيا، فيأخذون حسناتهم في مقابل ظلمهم.

نص الحديث

عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: (أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟) قَالُوا: الْمُفْلِسُ مِنَّا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ: (إِنَّ الْمُفْلسَ مِنْ أُمَّتِي، يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا. فيعطى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ. فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ من خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ. ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ).

تخريج الحديث

رواه مسلم في صحيحه، في كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، [ورقمه: ٢٥٨١]. ورواه الترمذي في سننه في كتاب صفة القيامة، باب ما

جاء في شأن الحساب والقصاص، [ورقمه: ٢٤١٨]. وقال الترمذي بعد سياقه له: «هذا حديث حسن صحيح».

غريب الحديث

فنيت : ذهبت وزالت.

طُرح في النار : أُلقي فيها.

شرح الحديث

ثروة الإنسان يوم القيامة تتمثل فيما يأتي به من حسنات، وقد حدّثنا رسول الله ﷺ أن بعض الناس يأتي يوم القيامة بحسنات طيبة كثيرة، ناشئة عما قدّمه في دنياه من أعمال صالحة، فهو صلى وصام وزكى وفعل الخيرات، ولكن هذه الثروة تضيع منه حتى تفنى، ثم يُقذف به في النار. والسبب في ضياع ثروته الأخروية أن للعباد عليه حقوقاً، وحقوق العباد لا يسامح بها، فإن لم يقضها المرء في الدنيا، أُخذت من حسناته في الآخرة.

فهذا الرجل الذي جاء بتلك الحسنات الطيبات، يتناوشه العباد الذين ظلمهم في الدنيا، فهذا يأخذ من حسناته بضربه إياه، وذاك يأخذ من حسناته بشتمه إياه، وثالث يؤخذ من حسناته بقذفه إياه، ورابع يأخذ من حسناته بسفكه دمه، ومن بقي له بعض الحسنات ترجح ميزانه فهو ذو حظ عظيم.

أما إذا لم تبقِ له حقوقُ العباد شيئاً من الحسنات، فإنه يصير مفلساً كما سمّاه الرسول ﷺ ، فإن بقي للناس عليه حقوق فيأخذ من أوزارهم التي يحملونها فوق ظهورهم، فيخف مصابهم، وتُطرح فوق ظهره، فيعظم مصابه، ثم يُلقى به في النار.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- ثروة الإنسان في يوم القيامة التي ينجو أو يهلك بها حسناته التي قدّمها في حياته الدنيا.

٢- يكون القصاص في ذلك اليوم بالحسنات، فيأخذ المظلوم من حسنات ظالمه، فإن فنيت حسنات الظالم، أخذ من سيئات المظلوم وطُرحت فوق ظهره.

٣- الذي تفنى حسناته، ولا يبقى منها شيء، يلقى في النار إلا أن يرحمه ربه.

٤- تعريف المفلس الحقيقي وهو مفلس الآخرة، وهو الذي تفنى حسناته يوم القيامة، ثم يؤخذ من سيئات الآخرين فتوضع فوق ظهره.

٥- على العبد المسلم أن يسارع في الدنيا للتحلل من مظالم العباد، قبل أن يؤخذ من حسناته يوم القيامة، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ : (من كانت عنده مظلمة لأخيه، فليتحلَّله منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطُرحت عليه) [البخاري: ٢٤٤٩، ٦٥٣٤].

* * *



القِصَّةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ
الاختصام في قتلى الطاعون

تمهيد

قصة هذا الحديث في اختصام الشهداء والموتى على فرشهم في موتى الطاعون، هل هم من الشهداء؟ أو من الذين يموتون على فرشهم؟ وكيف يحكم الله بينهم.

نص الحديث

عن العِرْبَاض بن سارية، أن رسول الله ﷺ قال: (يَخْتَصِمُ الشُّهَدَاءُ والمُتَوَفَّوْنَ عَلَى فُرُشِهِمْ إِلَى رَبِّنَا، في الَّذينَ يُتَوَفَّوْنَ من الطَّاعُونِ، فَيَقُولُ الشُّهَدَاء: إِخْوَانُنا قُتِلُوا كَمَا قُتِلْنَا، وَيَقُولُ المُتَوَفَّوْنَ عَلَى فُرُشِهِمْ: إِخْوَانُنا مَاتُوا عَلَى فُرُشِهِمْ، كَمَا مُتْنَا، فَيَقُولُ رَبُّنا: انْظُرُوا إلى جِرَاحِهِمْ، فَإِنْ أَشْبَهَ جِرَاحُهُمْ جِرَاحَ المَقْتُولينَ، فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ وَمَعَهُمْ، فَإِذا جِرَاحُهُمْ قَدْ أَشْبَهَتْ جِرَاحَهُمْ).

تخريج الحديث

رواه النسائي في سننه في كتاب الجهاد، باب مسألة الشهادة، [ورقمه: ٣١٦٤]، وحكم الألباني عليه بالصحة في صحيح النسائي، [ورقمه: ٢٩٦٦].

غريب الحديث

يختصم : اختصامهم أن كل فريق يريد ضم موتى الطاعون إليه.

شرح الحديث

أخبرنا الرسول ﷺ أن الشهداء يختصمون مع الذين ماتوا على فرشهم في موتى الطاعون، الشهداء يقولون: إنهم منهم، لأنهم ماتوا كما ماتوا، والذين ماتوا على فرشهم يقولون: إن موتى الطاعون ماتوا على فرشهم فهم مثلهم، وجزاؤهم واحد.

فيأمر الله ملائكته أن تنظر إلى جراحهم التي يسببها الطاعون، فإن أشبهت جراح الشهداء، فينضمون إلى زمرتهم، وإلا ضمّوا إلى زمرة الذين ماتوا على فرشهم. فلما نظروا إلى جراحهم وجدوها تشبه جراح الشهداء، فصار حكمهم يماثل حكمهم.

لقد نظر الشهداء إلى باطن الأمور، فوجدوا أن جراحهم تماثل جراحهم، فحكموا بأنهم منهم، فالنظير يأخذ حكم نظيره.

ونظر الذين ماتوا على فرشهم إلى ظاهر الأمور، فوجدوهم ماتوا على فرشهم كما ماتوا، فحكموا بناءً على ذلك أنهم منهم.

وقد أخبرنا الرسول ﷺ بصريح العبارة أن (الطاعون شهادة لكل مسلم) [عزاه الألباني في الجنائز إلى البخاري والطيالسي وأحمد: الجنائز ص ٣٧].

وسألت عائشة رضي الله عنها الرسول ﷺ عن الطاعون، فأخبرنا نبي الله ﷺ : (أنه كان عذاباً يبعثه الله على من يشاء، فجعله الله رحمة للمؤمنين،

فليس من عبد يقعُ الطاعونُ، فيمكث في بلده صابراً، يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثل أجر الشهيد). [عزاه الألباني إلى البخاري (٥٧٣٤) والبيهقي ٣/ ٣٧٦ وأحمد ٤٠/ ٤١٧ (٢٤٣٥٨)، الجنائز ص٣٧].

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- اختصام الشهداء والذين ماتوا على فرشهم وتنازعهم في أمر الذين ماتوا بالطاعون، والله أعلم كيف يكون اختصامهم.

٢- القاعدة التي تستخلص من الحديث أن النظير يأخذ حكم نظيره، ولما كانت جراح الذين ماتوا بالطاعون تشبه جراح الشهداء أخذوا حكمهم.

٣- فضل الذين يموتون بالطاعون وعظم أجرهم إن هم صبروا واحتسبوا.

٤- يجب عدم الخروج من المنطقة الموبوءة بالطاعون، كما لا يجوز دخول أحد إليها، وهذا ما يسمى في المصطلح الطبي المعاصر بالحجر الصحي، حتى لا ينتقل الوباء من منطقة إلى منطقة.

٥- على أصحاب الاختصاص من الأطباء والعلماء إجراء البحوث والدراسات على الذين يموتون بالطاعون، والنتيجة معروفة سلفاً، ولكن تعميم نتائج هذه الدراسات مقرونة بما أخبر به الرسول ﷺ آية باهرة تدل على صدقه.

٦- الشهادة ليست قصراً على الذين قتلوا في ميدان الحرب والقتال، فقد جاء في سنن النسائي عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: (المقتول في سبيل الله شهيد، والغرق في سبيل الله شهيد، والمبطون في سبيل الله

شهيد، والمطعون في سبيل الله شهيد، والنفساء في سبيل الله شهيد)
[سنن النسائي: ٣١٦٣].

* * *

القِصَّةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ

إيراد الآلهة الباطلة أهلها النار

تمهيد

هذا الحديث خبر طويل، يصور لنا حال العباد يوم المعاد، حينما يقضي الحق بينهم، ويأمر كل أمة أن تتبع معبودها الذي كانت تعبده، فتصور الآلهة التي كانت تعبد من الأصنام والأوثان، والشمس والقمر لعابديها، فتتقدم تلك الآلهة الباطلة أتباعها، فتهوي في النار، ويهوون خلفها فيها ولا يبقى في عرصات القيامة إلا من يعبد الله من المؤمنين أخيارهم وفجّارهم، وفيهم من كان معهم من أهل النفاق، فيُنْصَبُ الصراط، وتجوز بالناس أعمالهم، ويتساقط في النار من لم تقوَ أعمالهم على حملهم، ثم يشفع الشافعون في عصاة المؤمنين.

نص الحديث

عَنْ أبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ؛ أَنَّ ناساً في زَمَنِ رَسُولِ الله ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ الله! هَلْ نرَى رَبَّنا يَوْمَ الْقِيامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : (نعَمْ). قَالَ: (هَلْ تُضَارُّونَ في رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بالظَّهِيرَةِ صَحْواً لَيسَ مَعَهَا سَحَابٌ؟ وَهَلْ تُضَارُّونَ في رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ صَحْواً لَيسَ فِيهَا سَحَابٌ؟) قَالُوا: لاَ، يَا رَسُولَ الله! قَالَ: (ما تُضَارُّونَ في رُؤْيَةِ الله تَبارَكَ وَتَعالَى يَوْمَ الْقِيامَةِ إِلاَّ كَمَا

تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا. إذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامةِ أذنَ مُؤذنٌ: لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. فَلاَ يَبْقَى أَحَدٌ، كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ الله سُبْحَانَهُ مِنَ الأَصْنَامِ وَالأَنْصَابِ، إلاَّ يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ. حَتَّى إذا لَمْ يَبْقَ إلاَّ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ. وَغُبَّرِ أَهْلِ الْكِتَابِ.

فَيُدْعَى الْيَهُودُ فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ الله. فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ الله مِنْ صَاحِبَةٍ وَلاَ وَلَدٍ. فَمَاذا تَبْغُونَ؟ قَالُوا: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا! فَاسْقِنَا. فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ: أَلاَ تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضاً. فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ.

ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى. فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ الله. فَيُقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ. مَا اتَّخَذَ الله مِنْ صَاحِبَةٍ وَلاَ وَلَدٍ. فَيُقَالُ لَهُمْ: مَاذا تَبْغُونَ؟ فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا! فَاسْقِنَا. قَالَ: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ: أَلاَ تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضاً، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ.

حَتَّى إذا لَمْ يَبْقَ إلاَّ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ، أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا. قَالَ: فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. قَالُوا: يَا رَبَّنَا! فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ. فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ: نعُوذُ بالله مِنْكَ. لاَ نُشْرِكُ بالله شَيْئاً (مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثاً) حَتَّى إنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أنْ يَنْقَلِبَ.

فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بهَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ. فَلاَ يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ للهِ مِنْ تِلْقَاءِ نفْسِهِ إلاَّ أذِنَ الله لَهُ بالسُّجُودِ. وَلاَ يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إلاَّ جَعَلَ الله ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً. كُلَّمَا

أَرَادَ أنْ يَسْجُدَ خرَّ عَلَى قَفَاهُ. ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُؤُوسَهُمْ، وَقَدْ تَحَوَّلَ في صُورتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ: فقَالَ: أنا رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا.

ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ. وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ. وَيَقُولُونَ: اللهُمَّ! سَلِّمْ سَلِّمْ. قِيلَ: يا رَسُولَ اللهِ! وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ (دَحْضٌ مَزِلَّةٌ. فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلاَلِيبُ وَحَسَكٌ. تكُونُ بنَجْدٍ فيها شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ. فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ وَكَالرِّيحِ وَكَالطَّيْرِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ. فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ في نارِ جَهَنَّمَ. حَتَّى إذا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً للهِ في اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ للهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ في النَّارِ. يَقُولُونَ: رَبَّنَا! كَانوا يَصُومُونَ مَعَنَا، وَيُصَلُّونَ، وَيَحُجُّونَ. فَيُقَالُ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ. فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثِيراً قَدْ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ.

ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا! مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ. فَيَقُولُ: ارْجِعُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثِيراً. ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا! لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَداً مِمَّنْ أَمَرْتَنَا.

ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ في قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثِيراً. ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا! لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَداً. ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا. فَمَنْ وَجَدْتُمْ في قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثِيراً، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا! لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْراً).

وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ يَقُولُ: إنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي بهَذا الْحَدِيثِ فَاقْرَؤُوا إنْ شِئْتُمْ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا

﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] (فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: شَفَعَتِ الْمَلاَئِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ. وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْماً لَمْ يَعْمَلُوا خَيْراً قَطُّ. قَدْ عَادُوا حُمَماً، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ، يُقَالُ لَهُ نَهَرُ الْحَيَاةِ. فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، أَلا تَرَوْنَها تَكُونُ إِلَى الْحَجَرِ أَوْ إِلَى الشَّجَرِ. مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وَأُخَيْضِرُ. وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضَ؟»). فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرْعَى بِالْبَادِيَةِ.

قَالَ: (فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِمُ. يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ. هَؤُلاءِ عُتَقَاءُ اللهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلاَ خَيْرٍ قَدَّمُوهُ. ثُمَّ يَقُولُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ. فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا! أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ. فَيَقُولُ: لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذا. فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا! أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذا؟ فَيَقُولُ: رِضَايَ. فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَداً).

قَالَ مُسْلِمٌ: قَرَأْتُ عَلَى عِيسَى بْنِ حَمَّادٍ زُغْبَةَ الْمِصْرِيِّ هَذا الْحَدِيثَ فِي الشَّفَاعَةِ، وَقُلْتُ لَهُ: أُحَدِّثُ هَذا الْحَدِيثِ عَنْكَ؛ أَنَّكَ سَمِعْتَ مِنَ اللَّيْثِ ابْنِ سَعْدٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ لِعِيسَى بْنِ حَمَّادٍ: أَخْبَرَكُمُ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِلاَلٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ؛ أَنَّهُ قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! أَنَرَى رَبَّنَا؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ إِذا كَانَ يَوْمٌ صَحْوٌ؟) قُلْنَا: لاَ. وَسُقْتُ الْحَدِيثَ حَتَّى انْقَضَى آخِرُهُ، وَهُوَ نَحْوُ حَدِيثِ حَفْصِ بْنِ مَيْسَرَةَ. وَزَادَ بَعْدَ قَوْلِهِ: (بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلاَ قَدَمٍ قَدَّمُوهُ) فَيُقَالُ لَهُمْ: (لَكُمْ مَا رَأَيْتُمْ وَمِثْلُهُ مَعَهُ).

تخريج الحديث

رواه البخاري في مواضع من صحيحه أتمها في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢]. [ورقمه: ٧٤٣٩]. وانظره تحت الأرقام التالية: [٤٥٨١، ٤٩١٩، ٦٥٦٠، ٦٥٧٤، ٧٤٣٨].

ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، ورقمه: [١٨٣]. والسياق الذي أوردته لمسلم. وهو مروي في الصحيحين وغيرهما عن غير أبي سعيد، كأبي هريرة وأنس وغيرهما.

غريب الحديث

تضارون : يضر بعضكم بعضاً بسبب المزاحمة والمنازعة.

غُبَّر أهل الكتاب : بقاياهم، جمع غابر.

الجسر : الصراط.

مدحضة مزلة : معناهما واحد، وهو الموضع الذي تزل فيه الأقدام.

خطاطيف : الكلاليب.

حسكة : الحسكة شوكة صلبة.

السعدان : شجر له شوك.

امتحشوا : احترقوا.

شرح الحديث

استقرَّ في نفوس الصحابة فيما علموه من كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ أنهم لا يرون ربّهم في الحياة الدنيا، فقد أخبرنا ربنا أن موسى طلب من

الله أن يراه، فأخبره أنه لا يطيق أن يراه، حتى الجبال الصمّ الراسية إذا تجلّى لها ربها اندثرت وزالت، ولم تثبت لرؤية العلي الأعلى ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ (أن حجاب ربنا النور (وفي رواية النار) لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) [مسلم: ١٧٩].

وقد سأل بعض الصحابة الرسول ﷺ عن رؤية الله في الآخرة، هل حالها حال الدنيا، أم تخالف ذلك، فأخبرهم أن حال الآخرة مختلف، فالمؤمنون يرون ربهم في القيامة وفي الجنة عياناً جهاراً لا يضارون في رؤيته، والسبب في إطاقتهم رؤيته في الآخرة، أنهم يخلقون خلقاً جديداً غير قابل للفناء، ورؤية أهل الجنة لربهم أعلى أنواع النعيم، وفي الحديث: (فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل) [مسلم: ١٨١].

وقد سأل الرسول ﷺ أصحابه في جوابه لهم عن رؤيتهم لربهم سؤالاً يوضح لهم فيه الجواب، فقال: (هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليس معها سحاب؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فيها سحاب؟ قالوا: لا، قال: ما تضارون في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما).

وهذا من الرسول ﷺ بيان لمدى وضوح رؤية المؤمنين لربهم، فإنهم يرونه كما يرون الشمس في اليوم الصافي الذي لا سحاب فيه، عندما تكون

الشمس في أجلى حالاتها وأظهرها وهو وقت الظهيرة، ويرونه كما يرون القمر عندما يكون في أجلى حالاته وأظهرها، وهو ليلة البدر في ليلة صافية لا سحاب فيها.

إن بعض الناس يصعب عليه أن يتصور رؤية هذا العدد الكبير الكثير لله وهو واحد، فضرب لهم المثل بالشمس والقمر، فلو كان أهل الأرض مليارات المليارات فإنهم جميعاً يرون الشمس والقمر من غير أن يصيبهم عناء.

وقوله: (هل تضارون) أي هل يصيبكم ضرر، أي: بسبب المزاحمة والكثرة، وواقع الحال أنه لا يصيبهم شيء من ذلك.

وعلى ذلك فإن المؤمنين جميعاً يرون ربهم يوم القيامة، ويتعرفون عليه، ويشاهدونه.

وبعد ذلك ينادي منادٍ يوم القيامة في الأولين والآخرين من الخلق أجمعين آمراً إياهم أن تتبع كل أمة معبودها الذي كانت تعبده.

ويصور لعبّاد الأصنام والأوثان تلك الآلهة الباطلة، فيتبعها عابدوها، حتى تهوي بأتباعها في النار، وهكذا الذين كانوا يعبدون الشمس والقمر والنجوم، ومثلهم الذين كانوا يعبدون الطواغيت من البشر، كما أخبرنا ربنا عن فرعون أنه ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾ [هود: ٩٨].

ويبقى في عرصات القيامة الذين يعبدون الله الواحد مؤمنهم وفاجرهم، ومعهم بقايا أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

فيدعى اليهود، فيسألون عما كانوا يعبدون، فيزعمون أنهم كانوا يعبدون عزيراً ابن الله، فيُكذبون في دعواهم، فالله تبارك وتعالى، لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً، ويسألون عما يريدون، فيطلبون السقيا، فقد اشتد عطشهم وطال، والتهبت بطونهم، فيشار إليهم ناحية النار، وتتراءى لهم من بعيد كالسراب الذي يظنه رائيه ماءً، فإذا جاءَه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده، يظن اليهود عبّاد عزير أن المشار إليه ماءً، فإذا ما وردوه إذا هو نار تلظى.

ثم يدعى النصارى، فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال لهم: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فيقال لهم ما قيل لليهود من قبل: ماذا تبغون؟ فيطلبون سقيا الماء، فيشار إلى النار، كأنها سراب يحطم بعضُها بعضاً، فيقصدونها فإذا بالسراب الذي يظنونه ماء نار تلظى.

وعند ذلك لا يبقى في عرصات القيامة إلا الذين كانوا يعبدون الله وحده أبرارهم وفجّارهم، وعند ذلك يأتيهم ربهم في غير الصورة التي رأوه فيها قبل أن ينادي المنادي بأن تتبع كل أمة الإله الذي كانت تعبده. فيسألهم عما ينتظرونه، ويكرر عليهم الأمر بأن يتبعوا الإله الذي كانوا يعبدونه.

فعند ذلك يقولون: إنهم فارقوا أهل الدنيا الذين كفروا بالله وفي حال حاجتهم إليهم في دنياهم ومعاشهم التزاماً بأمر الله، وحباً لله ورسوله، فهم ينتظرون ربهم الذي عبدوه وأطاعوه في الدنيا، فهم اليوم أحوج ما يكونون إليه.

فيقول الله لهم، وهو في تلك الصورة المغايرة عن الصورة التي رأوه عليها أولاً: أنا ربكم. فيعوذون بالله منه منكرين أنه ربهم، قائلين: لا نشرك

بالله شيئاً، (مرتين أو ثلاثاً). حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب، أي: يرجع عن الصواب، وهذا امتحان شديد، ولكن يثبتهم الله بإيمانهم وأعمالهم الصالحة ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] وهو يوم القيامة.

وهنا يسألهم ربهم عن آية وعلامة يعرفونه بها، فيكشف سبحانه عن ساقه، فيخرّ له كل المؤمنين ساجدين، الذين كانوا يعبدونه ويوحدونه ويسجدون له في الدنيا، ويذهب الذين كانوا يرفضون السجود له، أو كانوا يصلون رياءً في الدنيا ليسجدوا، فلا يستطيعون، ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [القلم: ٤٢]. ويجعل الله ظهورهم قطعة واحدة، كلما أراد الواحد منهم السجود خرّ على قفاه، ويرفع المؤمنون رؤوسهم، وقد تحول رب العزة سبحانه إلى الصورة التي رأوه فيها أول مرة، فيقول: أنا ربكم، فيتعرفون إليه، ويقولون: أنت ربنا.

ويضرب الجسر على متن جهنم، وهو الصراط، وعليه يكون المسير إلى الجنة، ولا طريق لأحد غيره، فجميع الذين يعبدون الله أخيارهم وفجّارهم يردون النار من على هذا الجسر ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۞ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

إن الذين يعبدون الأصنام والأوثان والطواغيت لا يمرّون على الصراط، فأمرهم مفروغ منه، فإنهم أهل النار، ويدخلون النار قبل أن ينصب الجسر على ظهراني النار، والذين ينصب لهم الجسر المؤمنون أخيارهم وفجّارهم. وأول من يجوز الصراط من الأمم أمة محمد

[البخاري: ٦٥٧٣، ٧٤٤٠]. (ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلّم سلّم) [البخاري: ٧٤٤٠].

والجسر كما يقول الرسول ﷺ الذي يمر عليه العباد، دحض مزلة، أي: طريق تزل فيه أقدام العباد، وعلى جنبتي الجسر، خطاطيف وكلاليب، وحسك يشبه في شكله شوك شجرة من شجر أهل نجد تسمى بشجر السعدان، غير أنه لا يعلم عظمها وقدرها إلا الذي خلقها، وقد جاء في وصف تلك الحسكة أنها (مفلطحة - أي: منبسطة - لها شوكة عقيفة - أي: معوجة إلى الخلف -، تكون بنجد، يقال لها السعدان) [البخاري: ٧٤٣٩].

ويبدأ الناس بالمرور على الصراط، وهم متفاوتون في ذلك تفاوتاً كبيراً، فمنهم الذي يمرّ كالطرف، ومنهم كالبرق، ومنهم كالريح، ومنهم كأجاويد الخيل والركاب، ومنهم من يركض ركضاً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم الذي يزحف زحفاً، حتى تعجز أعمال العباد عن حملهم، فالمؤمنون الأقوياء في دينهم، يمرون ويسلمون، ولا تقربهم تلك الكلاليب والخطاطيف وذلك الحسك، ومنهم من تخدشه، ولا توقع به، ومنهم من تعلق به، وتلقي به في النار.

إن الذي يطير بالعباد ويحملهم يوم القيامة فوق الصراط إيمانهم وأعمالهم، وليس قواهم الذاتية الخاصة بهم.

ويقع في النار من يقع، وينجو من ينجو، ويسلم، وعند ذلك يهم الناجين أمر الذين سقطوا في النار من أهل التوحيد الذين كثرت ذنوبهم، وعظمت معاصيهم، فيأخذون يناشدون الله تبارك وتعالى في إخوانهم الذين كانوا معهم في الدنيا، يصلون صلاتهم، ويصومون صيامهم، ويحجون

حجّهم، وهذا هو المقام الذي يشفع فيه النبي ﷺ ، ويشركه فيه الصديقون والشهداء والصالحون.

ويستجيب الله لشفاعة من رضي عن شفاعته، ويشفعه فيمن ارتضى شفاعته فيه ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

ويشفّع الله المؤمنين في الذين يعرفونهم، فيقول لهم: (أخرجوا من عرفتم) فيخرجون من يعرفونهم من أقربائهم، وجيرانهم، وأصدقائهم، ويعرفونهم وهم في النار، فإن الله يحرم على النار أن تُذهب صورهم، فيخرج من النار خلق كثير، تكون النار أخذت بعضهم إلى نصف ساقيه، وبعضهم إلى ركبتيه، ويأتي الشافعون ربّ العزة، قائلين: ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا بإخراجه، فيأذن لهم أن يرجعوا ويخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال دينار من خير، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم نصف دينار من خير، ثم مثقال ذرة من خير، فيقول رب العزة تبارك وتعالى عند ذاك: (شفع الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبقَ إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها أقواماً لم يعملوا خيراً قط، قد عادوا حمماً، أي: محترقين).

فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة، أي في أولها، يسمى بنهر الحياة، فينبتون على شواطئ ذلك النهر كما تنبت الحبة تكون على جانب السيل، فتعود إليهم أجسادهم، وترد إليهم أرواحهم، وتصفوا ألوانهم، ويستعيدون عافيتهم، وقد وصف الرسول ﷺ الحَبَّةَ التي تكون في حميل السيل كيف يكون نباتها وصفاً دقيقاً يدل على مدى درايته بمثل هذا النوع من النبات، (ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر، ما يكون إلى الشمس أصيفر

وأخيضر، وما يكون إلى الظل يكون أبيض) فالذي تقع عليه الشمس منها يكون أصفر وأخضر، والذي لا تقع عليه يكون لونه أبيض، وقد عجب الصحابة من دقة وصفه، فقالوا: يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية، فالرعاة لكثرة مكثهم في البادية يلحظون مثل هذا الملحظ.

ويخرج الذين خرجوا بتلك القبضة بعد أن يتم خلقهم، كاللؤلؤ في جمالهم وصفائهم، وهم محلّون بالحلي في رقابهم، وفيهم علامات يعرفهم أهل الجنة بها، ويسمونهم بعتقاء الله، لأنه أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قدّموه، ثم يقول لهم ربهم: ادخلوا الجنة، فما رأيتموه من خير فخذوه، فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم تعطِ أحداً من العالمين.

فيقول لهم ربهم: لكم عندي أفضل من هذا، فيقولون: يا ربنا، أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضاي، فلا أسخط عليكم أبداً.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- هذا الحديث وأمثاله يدل دلالة قاطعة على رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة، فمن كذب بذلك فهو على شفا تهلكة، فإنه ردّ على رسول الله ﷺ صريح قوله، وتعسف في تأويل ما أخبر القرآن به.

٢- يحشر الكفار إلى النار زمراً زمراً، ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾ [الزمر: ٧١] فكل أمة تتبع معبودها، فيقودها إلى النار.

٣- يجوز ضرب المثل للتوضيح والتفهيم، فالرسول ﷺ شبّه رؤية الرب تبارك وتعالى في إمكانها ويسرها وسهولتها برؤية الشمس والقمر في

أوضح أحوالهما حيث لا يوجد سحاب في السماء، فشبّه الرؤية بالرؤية، ولم يشبه الله بخلقه، سبحانه وتعالى.

٤- كل أمة تتبع ما كانت تعبده في الدنيا، وكل الذين يعبدون غير الله يتبعون تلك الآلهة، فتوردهم النار، وبئس الورد المورود.

٥- اليهود والنصارى الذين حرفوا دينهم، يدعون ويسألون عن الإله الذي كانوا يعبدونه، فيكذبهم الله في دعواهم أن عزير ابن الله والمسيح ابن الله، ويحشرون إلى النار وغضب الجبار.

٦- الكفرة يؤمر بهم إلى النار، ولا يمرون فوق الصراط، فإن أمرهم واضح، ولا يحتاجون إلى اختبار وامتحان، والجسر للمؤمنين صالحهم وطالحهم.

٧- يفتن المؤمنون في عرصات القيامة عندما يأتيهم ربهم في صورة غير الصورة التي رأوها فيها أول مرة، ثم يريهم آية يعرفونه بها، ذكرها الله في كتابه، فيكشف عن ساقه فيعرفونه، ويقعون له ساجدين.

٨- إثبات الساق لله تبارك وتعالى، إثباتاً لا نشبه به ساق الله بساق خلقه، فنكون مشبهين، ولا ننفي عنه ما أخبر به فنكون مكذبين، ولكننا نقول: إنها ساق تليق بجلال الله وكماله على حد قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

٩- يمتاز المؤمنون الموحدون المخلصون عن المنافقين والمرائين في يوم الدين عندما يسجد المؤمنون، ويدعى هؤلاء إلى السجود، فلا يستطيعون.

١٠- معرفة هيئة الصراط، وما يكون عليه من كلاليب وخطاطيف وحسك، وكيف يمر عليه العباد، ونجاة من قدر الله له النجاة، وهلاك من قدر الله له الهلاك.

١١- إثبات الشفاعة فيمن دخل النار من عصاة المؤمنين، فيشفع الملائكة ويشفع الأنبياء، ويشفع المؤمنون، والشفاعة المقبولة لا تكون إلا بعد استئذان الشافع، ورضا الله عن شفاعته، ورضاه عمن يشفع فيه، لا كما يظن بعض الذين لا علم عنده أن الشافع يهجم على النار، فيخرج منها من يريد، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. وقال: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

١٢- الذين يدخلون النار، فيحترقون فيها، ويموتون هم عصاة المؤمنين، أما أهل النار الذين لا يخرجون منها، فهم فيها خالدون، يأتيهم الموت من كل مكان فلا يموتون.

١٣- يدخل الله الجنة أقواماً لم يعملوا خيراً قط، ولكنهم لابد أن يكونوا مسلمين، فالكافر لا يدخل الجنة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط.

١٤- يحرم الله على النار أن تذهب بصور المؤمنين الموحدين، فهم وإن كانوا في النار، فإن الشافعين يعرفونهم بصورهم.

١٥- وجوب الاستعداد ليوم القيامة، بإخلاص الدين لله، وعبادته وحده لا شريك له، ومفارقة مبغضيه وشانئيه، وبغض الكفرة الذين يدينون بغير الإسلام.

١٦- وعظ الرسول ﷺ بهذا الحديث أصحابه، وهذا الحديث وأمثاله لا يزال صالحاً لأن يكون من الموضوعات التي ترقق القلوب، وتقرب العباد إلى ربهم، وتصلح مسارهم.

* * *

القِصَّةُ العِشْرُونَ
أول من يسمع نفخة الصّور

تمهيد

تحدثت فيما سبق عن طيب العيش بعد المسيح عليه السلام ، ولكن هذا العيش لا يستمر، فالأحوال تتغير وتتبدل، فيرفع القرآن، ويزول الإيمان، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق.

نص الحديث

عن عبدالله بن عمرو قال: قالَ رسولُ الله ﷺ : (يَخرُجُ الدَّجَّالُ في أمتي، فيمكث أربعين (لاَ أدْرِي: أرْبَعينَ يَوْماً، أوْ أرْبَعينَ شهراً، أو أرْبَعينَ عَاماً)، فيَبعثُ الله عيسى ابنَ مريمَ كأنَّـه عُروَةُ بنُ مسعودٍ فيَطلُبُهُ فيُهلكُهُ.

ثمَّ يَمكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِين، لَيسَ بَيْنَ اثنَيْنِ عَدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ رِيحاً بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّأْمِ، فَلاَ يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أوْ إيمانٍ إلاَّ قَبَضَتْهُ، حَتَّى لَوْ أنَّ أحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبَدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ، حَتَّى تَقْبِـضَهُ). قَالَ: سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

قَالَ: (فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلاَمِ السِّبَاعِ، لاَ يَعْرِفُونَ مَعْرُوفاً وَلاَ يُنْكِرُونَ مُنْكَراً، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: ألاَ تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بعِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَهُمْ فِي ذلِكَ دَارٌّ رِزْقُهُمْ، حَسَنٌ عَيْشُهُمْ.

ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلاَ يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إلاَّ أصْغَى لِيتاً وَرَفَعَ لِيتاً). قَالَ: (وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إبلِهِ، قَالَ: فَيَصْعَقُ، وَيَصْعَقُ النَّاسُ، ثمَّ يُرْسِلُ اللهُ - أَوْ قَالَ يُنْزِلُ الله - مَطَراً، كَأَنَّهُ الطَّلُّ أوِ الظِّلُّ (نُعْمَانُ الشَّاكُّ)، فَتَنْبُتُ مِنْهُ أجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَإذا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ.

ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، هَلُمُّوا إلَى رَبِّكُمْ، وَقِفُوهُمْ إنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ). قَالَ ثمَّ يُقَالُ: (أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ، فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ، تِسْعَمائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ). قَالَ: (فَذَاكَ يَوْمَ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً، وَذلِكَ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ).

تخريج الحديث

رواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجال، [ورقمه: ٢٩٤٠].

غريب الحديث

يبعث الله عيسى : ينزله.

في كبد جبل : داخله.

في خفة الطير وأحلام السباع : في سرعة الطير إلى الشرور، وفي أخلاق السباع العادية.

أصْغى لِيْتاً : الإصغاء الإمالة. والليت: جانب العنق.

يلوط حوض إبله : يطيِّنه، ويصلحه.

يصعق : يغشى عليه ويموت.

كأنه الطل : الندى الذي ينزل من السماء.

يكشف عن ساق : يكشف ربٌّ العزة عن ساقه في الموقف العظيم، فيسجد له من كان يعبده في الدنيا، ولا يستطيع ذلك المنافقون، كما صحّ في الأحاديث.

شرح الحديث

سبق أن ذكرنا خروج الدجال حتى يحاصر بيت المقدس، ومكثه في الأرض أربعين يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كأسبوع، وبقية أيامه كأيامنا، وينزل عيسى عليه السلام، فيقتل الدجال، ويفني أتباعه من اليهود، ثم يبعث يأجوج ومأجوج في عصره، فيفنيهم الله، ويزيل شرّهم ونتنهم، ويطيب العيش بعد المسيح أربعين عاماً.

ويأتي هذا الحديث ليحدثنا عن حال الناس بعد موت المسيح عليه السلام، فبعد موت عيسى عليه السلام، يبدأ الفساد يدبّ في عالم البشر، حتى إذا اقتربت الساعة، أرسل الله تبارك وتعالى ريحاً باردة من جهة الشام، فتقبض روح كل من كان في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان، حتى لو كان المؤمن مختبئاً أو مسجوناً في داخل جبل لدخلت عليه تلك الريح فتقبض روحه، وعند ذلك يستلم الشيطان قيادة البشرية، فالقرآن قد رُفع، والإيمان قد زال، ويبقى شرار الخلق، يتسابقون في العبّ من الشهوات، لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، ويعودون إلى الجاهلية الأولى أو أشدّ، ويعبدون الأصنام، وهم مع ذلك كله عيشهم حسن، وأرزاقهم كثيرة وافرة.

ففي صحيح مسلم عن عائشةَ، قالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: (لاَ يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، حَتَّى تُعْبَدَ اللاَّتُ وَالْعُزَّى). فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنْ كُنْتُ لأَظُنُّ حِينَ أَنْزَلَ الله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣] و [الصف: ٩] أَنَّ ذٰلِكَ تَامّاً. قَالَ: (إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذٰلِكَ مَا شَاءَ الله ، ثُمَّ يَبْعَثُ الله رِيحاً طَيِّبَةً، فَتَوَفَّى كُلَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَيَبْقَى مَنْ لاَ خَيْرَ فيهِ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ). [مسلم: ٢٩٠٧].

[وفي صحيح البخاري ٧١١٦. ومسلم: ٢٩٠٦] (أن الساعة لا تقوم حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة) .

وذو الخلصة صنم كان يُعبد في الجاهلية، وقال ابن الأثير: «ذو الخلصة: بيت أصنام كان لدوس وخثعم وبجيلة، ومن كان ببلادهم من العرب» [جامع الأصول: ١٠/ ٣٩٤].

وبينما الناس على هذه الحال في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، ينفخ إسرافيل في الصور، فيصعق الناس، وأول من يسمعه رجل يعمل في إصلاح حوض إبله، ثم يسمعه بقية البشر ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الزمر:٦٨] ثم ينزل الله مطراً كأنه الطل، وفي بعض الروايات كأنه مني الرجال، فتنبت منه أجساد العباد، ثم يُنفخ في الصور أخرى فإذا هم قيام ينظرون، فيساقون إلى ربّهم، فيوقفهم بين يديه، ويحاسبهم عما قدّموه، ويبعث في ذلك اليوم بعث النار، إذ يساق إلى النار من كل ألف تسعمائة وتسعةً وتسعين، فذلك هو اليوم الذي يجعل الولدان

شيباً، وفي ذلك اليوم يكشف ربّ العزة عن ساقه، فيسجد له كل من كان يسجد له في الدنيا، ولا يستطيع المنافقون السجود له.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- إثبات خروج الدجال ونزول عيسى ﷺ وقضائه على الدّجال وأتباعه.

٢- طيب العيش بعد قضاء المسيح على الدجال، ويأجوج ومأجوج.

٣- إرسال الله ريحاً طيبة باردة، فيقبض الله بها أرواح المؤمنين جميعاً.

٤- كثرة الشر والفساد قرب قيام الساعة، وعودة الناس إلى الجاهلية الجهلاء والضلالة العمياء.

٥- النفخ في الصور والقضاء على الأحياء، ثم إنزال مطر ينبت أجساد الناس من الأرض، ثم يُنفخ في الصور مرة أخرى فإذا هم قيام ينظرون.

٦- في ذلك اليوم يقوم الناس لرب العالمين، ويخرج بعث النار، ويكشف ربّ العزة عن ساقه، فلا يستطيع السجود إلا المؤمنون.

* * *



القِصَّةُ الحَادِيَةُ والعِشْرُونَ
أردتُ منكَ أهونَ من ذلكَ

تمهيد

هذا الحديث يبين شدة عذاب أهل النار، فلو أن أخف أهل النار عذاباً له مثل ما في الأرض ذهباً، لافتدى به من عذاب يوم القيامة.

نص الحديث

عن أنس بن مالك ﷺ، عن النبي ﷺ قال: (يقولُ الله تعالَى لأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذاباً يوم القيامة: لَوْ أنَّ لَكَ ما فِي الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟

فَيَقُولُ: نَعَمْ.

فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ من هَذا، وَأَنْتَ في صُلْبِ آدَمَ، أنْ لاَ تُشْرِكَ بي شَيْئاً، فَأَبَيْتَ إلاَّ أن تُشركَ بي).

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، [ورقمه: ٦٥٥٧] وانظره فيه [برقم: ٣٣٣٤، ورقم: ٦٥٣٨].

غريب الحديث

تفتدي به : الفداء ما يدفعه الأسير ليخلص من سجنه.

أهون من هذا : أخف من هذا.

أن لا تشرك بي شيئاً : أن لا تتخذ مع الله شريكاً في عباداته.

شرح الحديث

يؤتى بأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة، فيقول له ربُّ العزة تبارك وتعالى: لو أن لك ما في الأرض من شيء، أكنت تفتدي به؟ وفي رواية أخرى: (أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدي به؟) [البخاري: ٦٥٣٨] فيقول: نعم، فيقول له ربُّ العزة: (سألتك ما هو أهون من هذا، وأنت في صلب آدم، أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا الشرك) [البخاري: ٣٣٣٤].

إن عذاب الله شديد، وكثير من الفجرة الكفرة لا يجدون عذابه إلا عندما يحيط بهم، وقد قرر هذا الذي جاءت به الأحاديث القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٩١].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [الرعد:١٨].

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

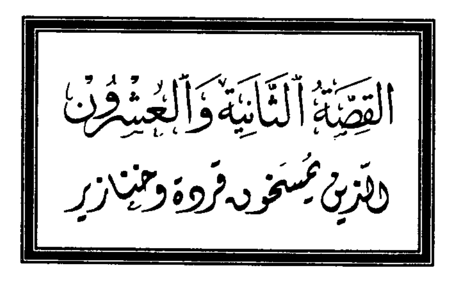
١- الكافر خالد مخلد في نار جهنم، لا يخرج منها بحال.

٢- لو كان لأخف أهل النار عذاباً ما في الأرض جميعاً ذهباً لافتدى به من عذاب يوم القيامة.

٣- اختار الذين كفروا في عالم الذر الكفر عندما أخذ الله عليهم العهد، ولكنهم لا يؤاخذون إلا على كفرهم بعد أن يرسل الله لهم الرسل، وينزل عليهم الكتب.

٤- إذا كان هذا حال أخف الناس عذاباً يوم القيامة، فما بالك بمن هو فوق ذلك.

* * *



تمهيد

في هذا الحديث إخبار من الرسول ﷺ بما يفعله الله تبارك وتعالى بالذين يستحلّون ما حرّمه الله تعالى على عباده، وكيف يمسخ بعض هؤلاء قردة وخنازير.

نص الحديث

عن عبدالرحمن بن غَنْم الأشعريُّ قال: حدّثني أبو عامر – أو أبو مالكٍ – الأشعري، والله ما كذَبني سمعَ النبيَّ ﷺ يقول: (ليكوننَّ من أُمّتي أقوام يَستحلُّونَ الْحِرَ والحَريرَ والخمر والمعازِف، ولينزِلنَّ أقوام إلى جَنبِ عَلَم يَروحُ عليهم بسارحةٍ لهم، يأتيهم – يعني الفقيرَ – لحاجة فيقولون: ارجِعْ إلينا غَداً فيُبيِّتُهمُ الله، ويَضَع العَلَمَ، ويَمسَخُ آخرينَ قِرَدةً وخنازيرَ إلى يوم القيامة).

تخريج الحديث

الحديث رواه البخاري في صحيحه في كتاب الأشربة، باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه. ورقمه: (٥٥٩٠).

وادعى ابن حزم أن البخاري لم يسمع هذا الحديث من شيخه هشام ابن عمار، ولذلك قال: «وقال هشام بن عمار» أورده مضعفاً إياه مدّعياً أن الحديث معلق.

والصواب الذي عليه علماء الحديث أن الحديث صحيح لا مطعن فيه، وقد جزم بصحته أمير المؤمنين في الحديث ابن حجر العسقلاني، وفي ذلك يقول: «والحديث صحيح معروف الاتصال بشرط الصحيح» [فتح الباري: ١٠/٦٦]. وأطال ابن حجر الكلام على إسناده ورواته في فتح الباري، فانظره فيه.

غريب الحديث

الحِرَ : الفرج، والمراد أنهم يستحلون الزنا.

الحرير : أي: للرجال، فهو عليهم حرام دون النساء.

المعازف : آلات الطرب.

عَلَم : العَلَمُ: الجبل العالي.

يروح عليهم بسارحة : السارحة الدابة التي يذهب بها إلى المرعى في الصباح، ثم يراح بها إلى أهلها في المساء.

فيبيتهم الله : أي يهلكهم الله ليلاً.

شرح الحديث

في هذا الحديث قصة أقوام يأتون في آخر الزمان من المنعَّمين في الدنيا، همّهم العبُّ من الشهوات، والخروج إلى البراري والخلوات، وإحياء الليالي

باللهو والطرب، فتغني عليهم القيان، وتعزف لهم الفرق الموسيقية الألحان، ويرقص الراقصون والراقصات، وهم في ذلك يشربون الخمور، ويتعاطون الزنا والفجور، ويلبسون الحرير من الثياب، وبعضهم تُنصب لهم الخيام في الأعالي والفلوات، وتروح عليهم الأغنام والأبقار والجمال، يشربون منها الألبان، ويأكلون اللحوم، فيبيّتهم الحق تبارك وتعالى، ويضع الجبل الذي ينزلون بقربه، ويمسخهم قردة وخنازير، والتبييت هو الفعل ليلاً.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- الوعيد الشديد لمن احتال على ارتكاب المحرمات بأنواع الحيل.
٢- آلات الطرب محرمة، لأن الاستحلال يكون للمحرمات.
٣- الحرير محرم على الرجال دون النساء.
٤- سيكون في هذه الأمة مسخ، فيحول الله بعض عُبّاد الشهوات إلى قردة وخنازير.
٥- سيكون فساد في هذه الأمة، وهذا مشاهد موجود.

* * *



القِصَّةُ الثَّالِثَةُ وَالعِشْرُونَ
الآن نبعث عليك شاهداً منك

تمهيد

عنوان هذه القصة عبارة يقولها الحق تبارك وتعالى لذلك الرجل الكاذب المغرور الذي يزعم أنه آمن بالله ورسله، وكان عابداً مطيعاً لله، لينجو في الموقف العظيم، فيكذبه ربّ العزة بإشهاد أعضائه عليه.

نص الحديث

عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ الله ! هَلْ نَـرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟

قَالَ: (هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ، لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟) قَالُوا: لاَ. قَالَ: (فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ؟) قَالُوا: لاَ.

قَالَ: (فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لاَ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ إِلاَّ كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا. قَالَ فَيَلْقَى الْعَبْدَ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ! أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى. قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لاَ. فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي.

ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِيَ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ! أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى. أَيْ رَبِّ! فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لاَ. فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي.

ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذلِكَ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! آمَنْتُ بكَ وَبكِتَابكَ وَبرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ وَصُمْتُ وَتَصَدَّقْتُ. وَيُثْنِي بخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ، (فَيَقُولُ: هَهُنَا إذاً).

قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ. وَيَتَفكَّرُ في نَفْسِهِ: مَنْ ذا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ. وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي. فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بعَمَلِهِ. وَذلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ.

وَذلِكَ الْمُنَافِقُ. وَذلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ).

تخريج الحديث

رواه مسلم في صحيحه في كتاب الزهد والرقائق، [رقم: ٢٩٦٨].

غريب الحديث

تضارون : أي: هل يصيبكم الضرر؟

فُلْ : أي: فلان، مرخم بحذف الألف والنون على خلاف القياس، وقيل: هي لغة بمعنى فلان.

أسودك : أجعلك سيداً على غيرك.

أذرك ترأس وتربع : معناه: ألم أجعلك رئيساً مطاعاً.

فإني أنساك : أتركك وأهملك.

لأركانه : جوارحه.

أنساك كما نسيتني : أي: أتركك كما تركت عبادتي.

هاهنا إذاً : قف هاهنا حتى يشهد عليك جوارحك.

ليعذر من نفسه : ليزيل الله عذره من قِبَل نفسه بكثرة ذنوبه، وشهود أعضائه عليه، بحيث لم يبقَ له عذر يتمسك به.

شرح الحديث

أخبرنا رسولنا ﷺ عن الرؤساء والزعماء والأغنياء الكفرة الذين كانوا في الدنيا يملكون المال والجاه، ويأمرون وينهون، وتُشاد لهم العمائر، وتقام لهم الصروح، ويتسيّدون عباد الله.

أخبرنا ﷺ أن هؤلاء يلقون ربهم الذي خلقهم لمعرفته وطاعته وعبادته، وسخّر لهم الدنيا، ليسخروا هم أنفسهم له، فيقول للواحد منهم: (يا فلان ألم أكرمك وأسودك وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع) أي: تكون رئيساً في قومك، تأخذ مرباعهم، أي: تأخذ من أموالهم، وقد كان بعض رؤساء القبائل يجبى له رُبع أموال قومه، فيقر ويعترف، ويقول: بلى يا ربّ، فيقول: أظننت أنك ملاقيَّ، فيقول: لا، فينساه الله كما نسيه في الدنيا.

ويقول للثاني مقالته للأول، ويجيب مثل ما أجاب الأول، فيقول رب العزة لهذا الصنف من الناس: (فإني أنساك كما نسيتني). ويا لخسارة من نسيه ربّه، فإنه يطرده من رحمته، ويوبقه في ناره، ويكون حظه الويل والثبور وعظائم الأمور.

وهناك صنف آخر من علية القوم حاله كحال الصنفين السابقين، ولكنه منافق، عليم اللسان، كان في الدنيا يتلاعب بالناس بلسانه، فيجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً، وظن أنه يستطيع أن ينجو بذلك الأسلوب

الماكر المخادع مع ربّ العزة، فيقول الله له مثل ما قاله للأولين، فيقول مجيباً: (أي رب: آمنت بكتابك وبرسلك، وصلّيت وصمت وتصدّقت، ويثني بخير ما استطاع).

يا للبجاحة والوقاحة والبهتان الذي ما بعده بهتان، ولمن يقول هذا الكلام؟ إنه يقوله للعليم الخبير، الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وأحاط علمه بكل شيء.

وتنجلي لهذا العبد الضعيف المغرور الكاذب قدرة الله إذ يبعث عليه شاهداً منه، فيختم على فيه، ثم يقول لأعضائه: انطقي وتكلّمي، فتنطق يده ورجله وعينه ولحمه وعظمه بأعماله التي كان يقوم بها، ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يس: ٦٥].

وقال الحق تبارك وتعالى في موضع آخر: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت: ٢٠].

إنه لأمر مذهل لمثل ذلك الصنف المخادع الكاذب الذي يريد أن ينجي أعضاءَه من النار وغضب الجبار، فيجد تلك الأعضاء تشهد عليه بما يقتضي إيباقه وإهلاكه، ويخاطب هذا العبد تلك الأعضاء منكراً عليها شهادتها بما يقضي إيباقها هي، لأنها جزء منه، ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [فصلت: ٢١].

١- يرى المؤمنون ربهم في يوم القيامة كما يرون الشمس في الظهيرة، والقمر ليلة البدر، في الليلة الصافية، ليس فيها سحاب.

٢- يكلم الله عباده يوم القيامة المؤمنين والكفار، ويسأل الكفار عن عبادتهم إياه.

٣- يترك الله الكفرة من عباده يوم المعاد جزاء تركهم عبادته في الدنيا.

٤- بعض الكفرة يزعم أنه كان مؤمناً بالله وكتبه ورسله، وأنه كان في الدنيا مصلياً صائماً، متصدقاً، فيختم على فمه، ويأمر أعضاءه بأن تشهد عليه.

٥- يوم القيامة يوم العدل الذي لا ظلم فيه.

٦- يتنازع الإنسان الكافر يوم القيامة مع أعضائه، حيث يزعم أنه كان مؤمناً عاملاً للصالحات، فتشهد عليه أعضاؤه بخلاف ذلك، فيقع الخصام والنزاع بينه وبين أعضائه.

* * *



القِصّة الرّابعَة والعِشرُون
حبس المؤمنين على قنطرة بين الجنة والنار

تمهيد

من حكمة الحكيم الخبير أن يوقف عباده المؤمنين بعد نجاتهم من النار على قنطرة، فيقتص لبعضهم من بعض قبل إدخالهم الجنة.

نص الحديث

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ : (يَخْلُصُ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ والنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ في الدُّنْيا، حَتَّى إذا هُذِّبُوا وَنُقُّوا، أُذِنَ لَهُمْ في دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحمَّدٍ بيَدِهِ، لأَحَدُهم أَهْدَى بمَنْزِلِه في الجَنَّةِ مِنْه بمَنْزِلِهِ كَانَ في الدُّنْيا).

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، [ورقمه: ٦٥٣٥، وانظره أيضاً برقم: ٢٤٤٠].

غريب الحديث

يخلص المؤمنون من النار : ينجو المؤمنون من السقوط في النار.

فيُقَصّ : يتتبع ما بينهم من المظالم ويسقط بعضها ببعض.
نقوا : من التنقية بالقصاص والتخليص من التبعات.
هذبوا : خلصوا من الآثام بالمقاصة.

شرح الحديث

ينصب الجسر فوق النار، ويمر الناس فوقه بإيمانهم وأعمالهم الصالحة، فإذا خلصوا من النار، أوقفوا على قنطرة بين الجنَّة والنار حتى يُصَفَّوْا ويهذَّبوا، فإنه (لا يحل لأحد من أهل الجنّة أن يدخل الجنّة، ولأحد قبله مظلمة) [رواه أحمد في «المسند» ٢٥/ ٤٣١-٤٣٢، الحديث (١٦٠٤٢)، والحاكم في «المستدرك» ٢/ ٤٧٥].

وعلى تلك القنطرة، بين الجنّة والنار، يقتصّ الحق للمؤمنين بعضهم من بعض مظالم كانت فيما بينهم في الدنيا، فالذي ضرب أخاه أو شتمه أو أخذ من ماله يقتص منه، بأن يؤخذ من حسناته، فيعطى للمشتوم أو المغتاب، فإن انتهت حسناته وفنِيت أُخِذَ من سيئات من ظلمهم.

فإذا اقتصَ لكل واحد من ظالمه، عند ذلك ينقَّوْا ويهذَّبُوا، ويُؤْذن لهم بدخول الجنة.

ويقسم الرسول ﷺ على أن المؤمنين إذا دخلوا الجنة يكون الواحد منهم أهدى بمنزله هناك من هدايته لمنزله الذي كان يسكنه في الدنيا.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- يُحبس المؤمنون على قنطرة بين الجنة والنار بعد أن يجوزوا الصراط.

٢- في هذا الموضع يقتصّ الله لعباده بعضهم من بعض، حتى يهذّبوا، فإنه لا يحلُّ لواحد منهم دخول الجنة إذا كان عليه حقٌّ من حقوق العباد.

٣- يهتدي داخل الجنة إلى منزله فيها بيسر وسهولة، وهدايته لمنزله في الجنة أيسر من هدايته لمنزله الذي كان يسكنه في دنياه.

* * *



القِصَّةُ الخَامِسَةُ والعِشْرُونَ

يخرج عنق من النار يوم القيامة

تمهيد

يخبرنا الرسول ﷺ عن مشهد مرعب يخلع قلوب الظالمين، حيث يخرج عنق من النار يبصر ويسمع ويتكلم، وكَّله الله بثلاثة أصناف من الناس.

نص الحديث

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (يَخْرج عُنُقٌ مِنَ النارِ يومَ القِيَامَةِ، لَهُ عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ، وأذنانِ تَسْمَعَانِ، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ، يَقُولُ: إني وُكِّلْتُ بثلاثةٍ:

بكُلِّ جَبّارٍ عَنِيدٍ، وَبكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ الله إلهاً آخرَ، وبالـمُصَوِّرين).

تخريج الحديث

أورده الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» [ورقمه: ٥١٢، ٢/ ٤١] وعزاه إلى الترمذي في سننه (٢٥٧٤)، وأحمد في مسنده (٨٤٣٠)، وذكر أن الترمذي قال فيه: «حديث حسن صحيح غريب».

شرح الحديث

من أهوال يوم القيامة التي تُرعب الناس وتخيفهم ما أخبر عنه الرسول ﷺ ، فقد أخبر أنه يَخرُج من النار يوم القيامة عنق من النار، له عينان تبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق، ويقول:

إني وُكِّلت بثلاثة، والمراد ثلاثة أصناف من الناس، وهذه الأصناف هي:

الأول: كل جبار عنيد، كفرعون ونمرود وأمية بن خلف، ومن سارَ مسارهم، وسلك سبيلهم، ممن طغى وتجبّر وعاند.

والثاني: الذين عبدوا مع الله آلهة أخرى، فالله هو الواحد الأحد، الذي ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الصمد: ٣-٤]. فالذي يدعو غير الله سبحانه، فإنَّ الله يبغضه، ويغضب عليه.

الثالث: المصورون، الذين يصورون بأقلامهم الإنسان والحيوان.

وهذا العنق الذي يسمع ويبصر ويتكلم يخلع قلوب الناس، وبالأخص الثلاثة الذين وكَّله الله بهم.

وقد تحدث القرآن كثيراً عن النار وأهوالها يوم القيامة، ومما يناسب هذا الحديث قوله تعالى: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفرقان: ١٢-١٣] فالنار بصرها حديد ترى أهلها وهم قادمون إليها من مكان بعيد، ويسمعون عند ذلك لها تغيظاً وزفيراً، فهي تسمعهم، وهم يسمعونها، ثم يُقذفون فيها، وهم أسرى مقيّدون، فينادون بالهلاك والثبور.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- العلم بالعنق الذي يخرج من النار على الصفة المذكورة في الحديث.

٢- هذا العنق له عينان تبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق.

٣- تحديد الأصناف التي وكَّلَ الله هذا العنق بها.

٤- الإيمان بالله ، وتوحيده، وعبادته دون سواه، يحفظ الله بها العبد من هذا العنق وأمثاله.

* * *



القِصَّةُ السَّادِسَةُ وَالعِشْرُونَ

إِنَّهُ فِي الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى

تمهيد

هذا الحديث، فيه ذكر صحابية، عزَّاها عن ابنها الذي سقط شهيداً في معركة بدر وأعلمها بأنه حطّ رحاله في الفردوس الأعلى.

نص الحديث

عن أنس: أنَّ أمَّ حارثة أتت رسولَ الله ﷺ ، وقد هَلَكَ حارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ، أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ.

فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله ، قَدْ عَلِمْتَ مَوْقِعَ حَارِثَةَ مِنْ قَلْبِي، فإنْ كَانَ فِي الجَنَّةِ لَمْ أَبْكِ عَلَيْهِ، وإلاَّ سَوْفَ تَرَى مَا أَصْنَعُ.

فَقَالَ لها: (هَبِلْتِ، أَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟ إِنَّها جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّه فِي الْفِرْدَوْسِ الأَعْلَى).

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، [ورقمه: ٦٥٦٧، ورواه في مواضع أخرى، انظره في: ٢٨٠٩، ٣٩٨٢، ٦٥٥٠].

غريب الحديث

أصيب حارثة : استُشهد.

هبلتِ : ثـكِلْتِ، كأنه قال: أفقدتِ عقلكِ بفقد ابنكِ، حتى جعلتِ الجنانَ جنةً واحدة؟.

شرح الحديث

في معركة بدر سقط حارثة بن سراقة بن عدي الأنصاري، شهيداً وكان غلاماً شابّاً، جاءه سهم ولم يدرِ أحد راميه، فصرعه.

وقد آلم أمّه مصرعه، وأمه هي الرُّبَيِّعُ بنت النضر، عمّة أنس بن مالك راوي الحديث، فجاءَت إلى الرسول ﷺ ، وقالت له: «قد علمت موقع حارثة من قلبي»، أي: أن له منزلة عالية، «فإن كان في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى تَرَ ما أصنع» [البخاري: ٣٩٨٢].

فبشّرها الرسول ﷺ بأنها جنان كثيرة في الجنة، وإن حارثة أصاب الفردوس الأعلى.

إن حارثة سقط شهيداً في أعظم معارك الإسلام معركة بدر، وقد قال الرسول ﷺ فيمن حضر بدراً: (لعلّ الله اطّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد وجبت لكم الجنّة، أو فقد غفرت لكم) [البخاري: ٣٩٨٣].

فهدأت أم حارثة، وتعزّت عن ابنها أنه من أهل الجنة.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- فضل شهداء معركة بدر، فقد أصابوا الفردوس الأعلى.
٢- المكانة العالية التي حازها حارثة بن سراقة باستشهاده في غزوة بدر.
٣- الجنة متفاوتة علواً، وأهلها فيها متفاوتون.
٤- كان علم الصحابة بما يناله معارفهم وأقرباؤهم يعزيهم ويصبرهم.

الزمرة الثانية

قصص الغيب التي وقعت



القِصّة السّابعة والعشرون

سيكون لكم أنماط

تمهيد

هذه قصة طريفة عما جرى بين الصحابي الجليل جابر بن عبدالله وزوجته بعد أن وسّع الله عليهم الدنيا، فهو لا يريد أن يدخل الأنماط داره، وهي تحتج عليه بأن الرسول ﷺ أخبره بأنه ستكون لهم أنماط.

نص الحديث

عن جابرٍ ﷺ قال: قال النبيُّ ﷺ : (هل لكم من أنماط؟) قلت: وأنّى يكون لنا الأنماط؟ قال: (أما وإنها ستكون لكم الأنماط). فأنا أقول لها - يعني امرأتهُ - أخّري عنا أنماطَكِ، فتقول: ألم يَقُلِ النبيُّ ﷺ : (إنها ستكون لكمُ الأنماط)، فأدَعُها.

تخريج الحديث

هذا الحديث رواه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة، [ورقمه: ٢٦٣١] وطرفه في رقم [٥١٦١]. ورواه مسلم بمعناه في كتاب اللباس والزينة، باب جواز اتخاذ الأنماط، [ورقمه: ٢٠٨٣].

غريب الحديث

أنماط : جمع نمط، والنمط عند العرب ضروب الثياب المصبغة، ولا يكادون يقولون: نمط إلا لما كان ذا لون من حمرة أو خضرة أو صفرة، فأما البياض فلا يقال له نمط [لسان العرب: ٣/ ٧٢٣].

شرح الحديث

سأل الرسول ﷺ جابر بن عبدالله أيام كان شابّاً فقيراً محتاجاً لا يملك من الدنيا إلا قليلاً، فقال: (هل لكم من أنماط).

والأنماط من الكماليات التي تتخذ في البيوت، كالبسط والفرش والستائر التي تكون على النوافذ ونحو ذلك. والناس لا يتخذون الأنماط إلا عندما تكثر أموالهم، ويوسّع الله عليهم.

وقد استغرب جابر سؤال الرسول ﷺ له عن ذلك، فقال مستغرباً: (وأنّى يكون لنا أنماط). فكأنه يقول: أنّى يكون لنا أنماط، ونحن على ما علمته من الحاجة، وضيق ذات اليد.

ودارت الأيام، وفتح الله على المسلمين الدنيا، وكثر بين أيديهم المال، وبنوا العمائر والبيوت، واتخذوا فيها الأنماط، وكان من جملة من اتخذها زوجة جابر.

وكره جابر أن تزين زوجته الدار بالبسط والفرش والأستار، فكان يأمرها بأن تبعد عنه هذه الأنماط، فإن الرسول ﷺ لم يتخذها من قبل، فتحتج عليه بأن الرسول ﷺ قال له: (ستكون لكم أنماط) وخبر الرسول ﷺ صدق لا كذب فيه، وقد صدّق فعلها قوله، ولو لم تتخذه فإن الرسول ﷺ لا يكون صادقاً، فكانت تسكته بجوابها، ويبقى بيتها مزيناً بأنماطها.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- صدق الرسول ﷺ فيما أخبر به عن الغيوب الآتية، فقد أخبر جابراً أنه سيكون له أنماط، وتحقق ما أخبر به الرسول ﷺ جابراً، فكان له أنماط.

٢- جواز اتخاذ الأنماط، كما اتخذت زوجة جابر الأنماط في بيتها في حياة زوجها، وهذه الإباحة مقيدة بقيود كثيرة دلّت عليها النصوص، ومن ذلك أن لا تكون تلك الأنماط من الحرير والديباج ولا من الذهب والفضة، وأن لا يكون فيها إسراف وخروج عن المألوف، وأن لا تُكسى بها الجدران، ونحو ذلك.

٣- نموذج للحوار الذي كان يدور بين الصحابة وأزواجهم، كما جرى بين جابر وزوجته، وكيف احتجت عليه بالحديث.

* * *

القِصَّةُ الثَّامِنَةُ وَالعِشْرُونَ
والله لا يكذب محمد إذا حدث

تمهيد

لقد بلغ من صدق الرسول ﷺ أن قومه الذين عرفوه حق المعرفة كانوا يعلمون أنه صادق فيما يخبر به، وأنه ليس هناك محل لكذبه بحال، حتى فيما كان يخبرهم به من أحوالهم الآتية.

وفي هذه القصة أخبر سعدُ بنُ معاذ أميَّةَ بنَ خلف أنه سمع الرسول ﷺ يخبر أنه قاتله، فحلف هو وزوجته أن محمداً لا يكذب إذا حدّث.

نص الحديث

عن عبدِ الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: (انطلقَ سعدُ بن مُعاذٍ معتمراً، قال: فنزَل على أميَّةَ بن خلَفٍ أبي صفوانَ، وكان أميةُ إذا انطلقَ إلى الشام فمرَّ بالمدينةِ نزل على سعدٍ، فقال أميةُ لسعدٍ: ألا انتَظِرْ حتى إذا انتصفَ النهارُ، وغفَلَ الناسُ، انطَلقت فطفت، فبينا سعدٌ يطوف إذا أبو جهلٍ، فقال: مَن هذا الذي يطوف بالكعبةِ؟

فقال سعدٌ: أنا سعد.

فقال أبو جهل: تطوفُ بالكعبةِ آمناً وقد آوَيتم محمداً وأصحابَه؟ فقال: نعم. فتلاحَيا بينهما. فقال أميةُ لسعدٍ: لا ترفع صوتَكَ على أبي الحكم، فإنهُ

سيِّدُ أهلِ الوادي. ثم قال سعد: والله لئن منعتني أن أطوفَ بالبيت لأقطعنَّ متجرَكَ بالشام. قال: فجعلَ أميةُ يقول لسعدٍ: لا ترفَعْ صوتَك - وجعلَ يُمسِكهُ - فغضبَ سعدٌ فقال: دَعْنا عنك، فإني سمعتُ محمداً ﷺ يزعم أنه قاتلُك. قال: إيّايَ؟ قال: نعم. قال: والله ما يكذبُ محمد إذا حدَّث.

فرجعَ إلى امرأتِه فقال: أما تعلمينَ ما قال لي أخي اليَثربيُّ؟ قالت: وما قال؟ قال: زعمَ أنه سمع محمداً يزعم أنه قاتلي. قالت: فوالله ما يكذب محمدٌ. قال: فلما خرجوا إلى بدرٍ وجاء الصريخُ قالت له امرأتهُ: أما ذكرتَ ما قال لك أخوك اليثربيُّ؟ قال: فأرادَ أن لا يخرُجَ، فقال له أبو جهل: إنكَ من أشرافِ الوادي، فسرْ يوماً أو يومَين، فسار معهم يومَين، فقتَلهُ الله).

ورواه البخاري في صحيحه في كتاب المناقب [٣٦٣٢]، وجاء فيه في كتاب المغازي [٣٩٥٠]: (فلما رجعَ أميةُ إلى أهله قال: يا أُمَّ صفوانَ، ألم تَرَي ما قال لي سعدٌ؟ قالت: وما قال لك؟ قال: زعمَ أنَّ محمداً أخبرهم أنـهُ قاتليَّ. فقلت له: بمكةَ؟ قال: لا أدري. فقال أميةُ: والله لا أخرجُ من مكةَ.

فلما كان يومُ بدرٍ استَنفَرَ أبو جهلٍ الناس قال: أدرِكوا عِيرَكم. فكَرِهَ أميةُ أن يَخرُجَ، فأتاهُ أبو جهلٍ فقال: يا أبا صفوان إنكَ متى ما يَراكَ الناسُ قد تخلَّفتَ، وأنتَ سيدُ أهلِ الوادي، تخلَّفوا معك.

فلم يَزَلْ به أبو جهلٍ حتى قال: أمّا إذ غَلَبْتَني فوالله لأشتَرِينَّ أجودَ بعير بمكةَ. ثمَّ قال أميةُ: يا أُمَّ صفوانَ جهِّزيني. فقالت له: يا أبا صفوانَ وقد نسيتَ ما قال لكَ أخوكَ اليَثْرِبيُّ؟ قال: لا، ما أُريدُ أن أَجُوزَ معَهم إلا قَريباً. فلما خَرجَ أميةُ أخذ لا يَنزِلُ منزِلاً إلا عَقَلَ بعيرَه، فلم يزَلْ بذلك حتى قتلَه الله عزَّ وجلَّ ببَدر).

تخريج الحديث

أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المناقب، باب علامات النبوة، [ورقمه: ٣٦٣٢]. والرواية الثانية رواها البخاري في كتاب المغازي، باب ذكر النبي ﷺ من يقتل ببدر. [ورقمه: ٣٩٥٠].

غريب الحديث

فتلاحيا : تنازعا وتخاصما بالكلام.

الصريخ : المراد به الشخص الذي جاء يصرخ في قريش مفزعاً إياها لتخرج لإنقاذ عيرها وتجارتها.

شرح الحديث

كان كثير من التجار – ولا يزالون – يعقدون صداقات فيما بينهم، فإذا حلّ أحدهم بديار صديقه نالَ إكرامه ورعايته، ومن هذا ما كان بين سعد بن معاذ وهو من سادة المدينة، وأمية بن خلف سيد مكة في الجاهلية، فكانا قد تصادقا وتآخيا، فإذا كان أمية في طريقه إلى الشام للتجارة ذاهباً أو آيباً نزل عند سعد في منزله، وكان سعد إذا حلَّ بمكة حاجّاً أو معتمراً نزل بمنزل أمية، واستمرت علاقتهما على ذلك إلى ما بعد الإسلام وهجرة الرسول ﷺ إلى المدينة.

وقبيل معركة بدر بقليل نزل سعد بأمية بن خلف لغرض له في مكة، فطلب من أمية أن يهيىء له فرصة للطواف بالكعبة، واختار منتصف النهار،

لأن أهل مكة يقيلون في هذا الوقت، ويفيئون إلى منازلهم، وإنما فعل سعد ذلك حتى لا يجري بينه وبين أحد من قريش خصام ونزاع، فقد كان أهل مكة ثائرين على أهل المدينة لإيوائهم خصومهم من المسلمين.

ولكن الله إذا قدّر شيئاً كان، فقد التقى سعد بأبي جهل ابن هشام، وكان سيد أهل مكة، فنادى أبو جهل أمية بكنيته، وكان يُكنى بأبي صفوان، وسأله عن الطائف معه من يكون؟

ولم يترك سعد الجواب لمضيفه خشية أن يحرجه في كشف أمره، أو يلجئه إلى الكذب، فسارع مجيباً: أنا سعد، فقال أبو جهل مبكتاً ومؤنباً إياه: تطوف بالكعبة آمناً، وقد آويتم محمداً وأصحابه.

وهنا وقع المحذور، فقد تخاصما وتنازعا، ورفع كل منهما صوته على الآخر، ولم يقبل سعد أن يهينه أبو جهل، ولو كان في عرينه وبين قومه، وهو وحيد في تلك الديار.

وبدل أن يسكت أبو صفوان الاثنين، ويهدئهما، ويتجاوز الإشكال أخذ يلوم سعداً في رفعه صوته على سيد الوادي، ويطلب منه أن يخفض صوته.

فأثار ذلك حفيظة سعد على أبي صفوان، لأنه لم يقف بجانبه، وهو ضيفه، فأخبره خبراً أذهله، أخبره أنه سمع الرسول ﷺ يقول: إنه سيقتله، فسأله أميّة متثبتاً قائلاً: إياي؟

قال: نعم.

قال: والله ما يكذب محمد إذا حدّث.

فرجع أمية إلى زوجته مهموماً مكروباً، وأخبرها بما قاله سعد، فقالت: فوالله ما يكذب محمد.

فلما أرسل أبو سفيان ضمضم بن عمرو الغفاري مستنجداً بأهل مكة كي يخرجوا لاستنقاذ العير قبل استيلاء المسلمين عليها [فتح الباري: ٧/ ٣٥٤] وأراد أمية الخروج ذكرته زوجته بما حدّثه به أخوه اليثربي.

وقد حاول أمية أن يتخلف، ولكن أبا جهل مارس عليه من الأساليب ما جعله يخرج راغماً، واشترى بعيراً باهظ الثمن، سريع الخطو، حتى يفر على ظهره، إن دارت الدائرة على قريش، ولكن أنّى ينجو، وقد كتب الله عليه أن يُقتل بيد النبي ﷺ ، إن الله إذا أراد شيئاً هيأ أسبابه، ولا ينجي حذر من قدر، ولله في خلقه شؤون.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- صدق الرسول ﷺ فيما أخبر به من الغيوب الآتية، فعندما كان يزعم أمية بن خلف أنه سيقتل الرسول ﷺ ، قال الرسول: بل أنا أقتله إن شاء الله، فكان الأمر على ما أخبر به الرسول ﷺ ، وقتله في غزوة بدر.

٢- علم الذين عرفوا الرسول ﷺ بأن الرسول ﷺ لا يكذب، فعندما أخبر سعد أمية بما سمعه من الرسول ﷺ أنه قاتله، قال أمية معقباً حالفاً بالله على ذلك: «والله ما يكذب محمد إذا حدّث» وعندما أخبر أمية زوجته بخبر سعد، قالت كقوله: «فوالله ما يكذب محمد».

٣- أفادنا الحديث ذكر نمط مما كان عليه التجار في الجاهلية، إذ كانوا يعقدون صداقات وإخاءات فيما بينهم، حيث يحل بعضهم على بعض، فيفيدون ويستفيدون، كما كان الحال بين سعد وأمية بن خلف.

٤- عزة سعد بن معاذ، فلم يرهبه أن يقف موقف العزة مع أبي جهل وأمية ابن خلف، وإن كان منفرداً عن قومه، ولا قوة تحميه وتمنعه.

٥- إذا شاء الله شيئاً كان، فمع أن سعداً أخبر أمية بما قاله الرسول ﷺ فإنه لم ينفعه حذره، فقد هيّأ الله الأسباب التي دفعته إلى الخروج فوقع المقدور وفق ما قدّره الله وقضاه.

٦- حسن استعمال الحجّة في خصام الأعداء، فأبو جهل أنكر على سعد طوافه بالكعبة، فحذره سعد أنه إن منعه الطواف فسيمنعه وقومه من الاتجار باتجاه الشام، وفي ذلك ضربة قاصمة لاقتصاد قريش.

* * *

القِصَّةُ التَّاسِعَةُ وَالعِشْرُونَ
اللهم عليك بقريش

تمهيد

آذت قريش الرسول ﷺ ، وبلغ إيذاؤهم له أن يضعوا فوق ظهره سَلَى جزور وهو ساجد عند الكعبة، فدعا عليهم، وأجيبت دعوته فيهم، فقد أذلّ الله الكفرة من قريش في بدر، وصرع خمسة من الذين دعا عليهم بأسمائهم، وضرب عنق الذي وضع سَلَى الجزور على ظهره، وهو عقبة ابن أبي معيط.

نص الحديث

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ. قَالَ: بينما رسُولُ الله ﷺ يُصَلي عِنْدَ الْبَيْتِ، وَأَبو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، وَقَدْ نُحِرَتْ جَزُورٌ بالأَمْسِ. فَقَالَ أَبو جَهْلٍ: «أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى سَلَى جَزُورِ بَنِي فُلاَنٍ فَيَأْخُذُهُ، فيضعُه في كَتِفَيْ مُحَمَّدٍ إذا سَجَدَ؟

فَانْبَعَثَ أَشْقَى الْقَوْمِ فَأَخَذَهُ. فَلَمَّا سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ. قَالَ: فَاسْتَضْحَكُوا. وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَميلُ عَلَى بَعْضٍ. وَأَنا قَائِمٌ أَنْظُرُ، لَوْ كَانَتْ لِي مَنَعَةٌ طَرَحْتُهُ عَنْ ظَهْرِ رَسُولِ الله ﷺ ، وَالنَّبِيُّ ﷺ سَاجِدٌ، مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ. حَتَّى انْطَلَقَ إِنْسَانٌ فَأَخْبَرَ فَاطِمَةَ، فَجَاءَتْ، وَهِيَ جُوَيْرِيَةٌ، فَطَرَحَتْهُ عَنْهُ. ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَشْتِمُهُمْ.

فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ صَلاَتَهُ رَفَعَ صَوْتَهُ ثُمَّ دَعَا عَلَيْهِمْ. وَكَانَ إذا دَعَا، دَعَا ثَلاَثاً. وَإذا سَأَلَ، سَأَلَ ثَلاَثاً. ثُمَّ قَالَ: (اللَّهُمَّ! عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ) ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ ذَهَبَ عَنْهُمُ الضِّحْكُ. وَخَافُوا دَعْوَتَهُ. ثُمَّ قَالَ: (اللَّهُمَّ! عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلِ ابْنِ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أبي مُعَيْطٍ) (وَذكَرَ السَّابِعَ وَلَمْ أَحْفَظْهُ) فَوَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّداً ﷺ بِالْحَقِّ! لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ سَمَّى صَرْعَى يَوْمَ بَدرٍ. ثُمَّ سُحِبُوا إِلَى الْقَلِيبِ، قَلِيبِ بَدْرٍ».

قَالَ أَبُو إِسْحَقَ: الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ غَلَطٌ في هَذا الْحَدِيثِ.

تخريج الحديث

رواه مسلم في صحيحه في كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي الرسول ﷺ من أذى المشركين، ورقمه: [١٧٩٤].

ورواه البخاري في مواضع من كتابه، وأتم هذه الروايات ما رواه في كتاب الصلاة، باب المرأة تطرح عن المصلي شيئاً، [ورقمه: ٥٢٠] وانظره في الأرقام التالية: [٢٤٠، ٢٩٣٤، ٣١٨٥، ٣٨٥٤، ٣٩٦٠].

غريب الحديث

جزور : الجزور الناقة.

سلى جزور : السلى للناقة، كالمشيمة للمرأة، وهو اللفافة التي يكون فيها الولد في الناقة أو الحيوان.

فاستضحكوا : أخذهم الضحك استهزاءً بالرسول ﷺ .

لو كانت لي منعة : لو كان لي قوة تمنع أذاهم.

جويرية : شابة صغيرة السنّ.

تشتمهم : تسبهم.

القليب : البئر التي لم تطو.

شرح الحديث

كان رسول الله ﷺ يوماً يصلي عند الكعبة قبل هجرته إلى المدينة، وكان سيد أهل مكة في ذلك الوقت أبا جهل جالساً مع أصحابه قرب الموضع الذي فيه الرسول ﷺ ، وكانت قريش حانقة على الرسول ﷺ للدين الذي جاءها به.

واقترح أبو جهل - عليه لعنة الله - على بعض من معه أن ينطلق إلى مكان بعينه، فيأتي بقاذورات ومخلفات جزور ذبح هناك، فيضعها على ظهر الرسول ﷺ إذا هو سجد. وتبرع للقيام بهذه المهمة القذرة أشقى القوم وهو عقبة بن أبي معيط، كما ثبت ذلك في رواية عند مسلم، فلما وضعه على ظهر الرسول ﷺ أخذوا يتضاحكون، ويتمايلون في ضحكهم سروراً بما آذوا به رسول الله ﷺ .

ولم يشهد الواقعة من المسلمين إلا راوي القصة، وهو عبدالله بن مسعود، ولم يكن يستطيع أن يدفع المشركين عن الرسول ﷺ ، إذ كان ضعيفاً في جسده مقارنةً بقوتهم وكثرتهم من جهة، ومن جهة أخرى لم يكن له عشيرة تمنعه، فقد كان من هذيل، والقبيلة التي حالفها في مكة كانت على الكفر، فلم تكن لتحميه وتمنعه.

وانطلق رجل إلى فاطمة ابنة الرسول ﷺ ، فأخبرها الخبر، فجاءت مسرعة، وألقت تلك القاذورات عن ظهره، ثم أخذت تسبّهم وتشتمهم، فرفع الرسول ﷺ رأسه من السجود، وأتمّ الصلاة. ثم رفع الرسول ﷺ صوته، ودعا الله عليهم، وكان إذا دعا، دعا ثلاث مرات، وإذا سأل الله سأله ثلاث مرات، (فشقّ عليهم إذ دعا عليهم، قال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة) [صحيح البخاري: ٢٤٠].

لقد كانوا يعلمون أن محمداً مستجاب الدعوة، فلما سمعوا صوته، ودعاءه ربه، ذهب الضحك عنهم، وأخذهم الهم والغم. لقد أجمل الرسول ﷺ في دعائه، ثمَّ خص، دعا على قريش أولاً، (اللهم عليك بقريش) ثم خصّ أولئك الذين آذوه بأسمائهم (اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة ابن أبي معيط).

ونسي أحد رواة الحديث السابع، ولكنه مذكور في رواية البخاري، وأنه عمارة بن الوليد [البخاري: ٥٢٠].

وأخطأ بعض رواة الحديث بذكر الوليد بن عقبة فيهم، وصوابه ما أثبتناه، وأنه الوليد بن عتبة، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري ورواية أخرى عند مسلم، والوليد بن عقبة بالقاف هو ابن أبي معيط كان صغيراً عند وقوع الحادثة، وقد مسح الرسول ﷺ على رأسه عند الفتح، وكان ناهز الحلم [النووي على مسلم: ١٠-١٢/ ٤٨٤]. واستجيبت دعوة الرسول ﷺ فيهم، فقد هُزمت قريش وأذلّت في معركة بدر، أما الذين سماهم الرسول ﷺ فستة منهم صرعوا في تلك المعركة، يقول ابن مسعود وهو الذي شهد

ما فعلوه بالرسول ﷺ وهو ساجد: «فوالذي بعث محمداً ﷺ بالحق، لقد رأيت الذي سمّى صرعى يوم بدر، ثمّ سحبوا إلى القليب، قليب بدر».

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- في الحديث ذكر بعض ما عاناه الرسول ﷺ من أذى قومه، فقد وضعوا فوق ظهره ذلك الأذى وهو ساجد، فلم يستطع رفع رأسه لثقل ما وضعوه عليه.

٢- أعداء الإسلام لا يراعون الحرمات ولا العهود والمواثيق إذا خاصموا المسلمين، فقد كان الرسول ﷺ ساجداً يصلي في المسجد الحرام عند الكعبة، فلم يراعوا حرمة الصلاة، ولا حرمة المسجد الحرام، ولا حرمة الكعبة، فإنهم أدخلوا المسجد الذي يدعون حرمته وتقديسه الأذى غير مبالين بحرمته واتباعاً لهوى نفوسهم.

٣- خوف المشركين من دعاء الرسول ﷺ عليهم، وما ذلك إلا لما علموه من صدقه، واستجابة الله لدعوته، وزاد تخوّفهم أنه دعا في مكة عند الكعبة، وكانوا يرون أن من دعا عندها تُجاب دعوته.

٤- استحباب الدعاء ثلاثاً، كما دعا الرسول ﷺ على من آذوه ثلاثاً.

٥- مشروعية دعاء المظلوم على ظالمه.

٦- جرأة فاطمة رضي الله عنها على صغرها على سادة مكة، وسبّها لهم، وإزاحتها ما وضع على ظهر أبيها من الأذى.

٧- أبو جهل خطط ورسم، وعقبة نفّذ وحسم، والمنفّذ أنكى في الفعل، ولذلك كان هو الأشقى، والأكثر عقوبة، ولذلك فإن الرسول ﷺ قتله

بعد أسره له في بدر صبراً، فكان مصيره أشد من الذين ألقوا في القليب. ولعقبة سوابق كثيرة غير هذه آذى بها الرسول ﷺ ، فقد كان النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه دفعه عن النبي ﷺ . [رواه البخاري من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص: ٣٨٥٦].

* * *

القِصَّةُ الثَّلاثُونَ
إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين

تمهيد

عنوان هذه القصة كلمة قالها ملك الجبال للرسول ﷺ عندما ردّ عليه قومه دعوته، فأهمّوه وغمّوه، فأرسل الله إليه ملك الجبال، ليأمره بأمره، فيفعل بأهل مكة ما يريد.

نص الحديث

عن عروةَ: «أنَّ عائشةَ رضيَ الله عنها زوجَ النبيِّ ﷺ حدَّثتهُ أنها قالت للنبيِّ ﷺ : هل أتى عليكَ يومٌ كان أشدَ من يوم أحُدٍ؟ قال: (لقد لَقِيتُ من قومك ما لقيت، وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يومَ العقبةِ إذ عرَضتُ نفسي على ابنِ عبد ياليل بن عبد كُلال فلم يُجبني إلى ما أردت، فانطلقتُ وأنا مَهمومٌ، على وَجهِي، فلم أستَفق إلا وأنا بقرن الثّعالب، فرَفَعتُ رأسي، فإذا أنا بَسحابةٍ قد أظلّتني، فنظرتُ فإذا فيها جِبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمعَ قولَ قومكَ لك وما رَدوا عليك، وقد بعث الله إليكَ مَلَكَ الجبال لتأمرَهُ بما شِئتَ فيهم، فناداني ملكُ الجبال فسلَّم عليّ ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئتَ، إن شِئتَ أن أطبقَ عليهم الأخشَبَينِ؟ فقال النبي ﷺ : بل أرجو أن يُخرجَ الله من أصلابهم من يَعبُدُ الله وحدَهُ لا يُشركُ بهِ شيئاً) ».

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه في كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين. [ورقمه: ٣٢٣١].

ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين. [ورقمه: ١٧٩٥].

غريب الحديث

لم أستفق : لم أفطن لنفسي وأنتبه لحالي.

قرن الثعالب : هو قرن المنازل الذي هو ميقات أهل نجد، وأصل القرن كل جبل صغير ينقطع من جبل كبير.

الأخشبان : جبلا مكة، وهما جبل أبي قبيس وجبل قُعَيْقِعان، وهما متقابلان.

شرح الحديث

سألت عائشة رضي الله عنها الرسول ﷺ : «هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من أحد؟».

فأخبرها أن أشد يوم أتى عليه هو يوم العقبة، فقد كان الرسول ﷺ يعرض نفسه على القبائل في موسم الحج، ويدعوهم إلى الإسلام، ويطلب منهم أن ينصروه حتى يبلغ دعوة ربه.

وفي تلك السنة عرض الرسول ﷺ نفسه ليلة العقبة على القبائل كما كان يفعل، وكان فيهم سيد أهل الطائف ابن عبد ياليل بن كلال، فردّ عليه ردّاً قبيحاً.

وقد آلم الرسول ﷺ وآذاه ما أجابه به ذلك الرجل، فذهل عن نفسه، وكذلك الوقائع العظام، تذهل أحياناً أعظم الرجال عن نفسه، فيهيم على وجهه، ويقطع المسافات الشاسعة، وهو لا يدري، وهذا ما حدث للرسول ﷺ ، فإنه لم يفق على نفسه إلا وهو بقرن الثعالب، وهو موضع على مرحلتين من مكة، ويسمى هذا المكان بقرن المنازل، ومنه كان يحرم أهل نجد وهم منطلقون إلى الحج أو العمرة.

وقد كان الرب – تبارك وتعالى – يواسي رسوله فيما يصيبه من رهق نفسي أو جسدي، وفي ذلك اليوم أرسل له جبرائيل وبصحبته ملك الجبال.

وعندما رفع الرسول ﷺ رأسه بعد إفاقته رأى سحابة فيها جبرائيل، فناداه قائلاً: (إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال، لتأمره بما شئت فيهم).

(فناداه) ملك الجبال، فسلّم، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين).

والأخشبان هما جبلا مكة، وقد أعطى الله ملك الجبال القدرة على أن يضم جبلي مكة الكبيرين، فيطبقهما على أهل مكة، وبذلك يصبحون أثراً بعد عين.

ولكن الرسول الكريم، عليه صلوات الله وسلامه، لم يخرجه ما أصابه به قومه عن طوره، ولم ينتقم لنفسه، بل قرر الصبر واحتساب الأجر، لعل

الله يهدي قومه، أو يخرج من أصلابهم من يعبد الله تبارك وتعالى، وقد صدق ظنه، واستجاب الله لرجائه، قد دخل الناس في دين الله أفواجاً، وأخرج الله من أصلاب الذي فعلوا به ما فعلوه من أصبح حاملاً راية الإسلام، مجاهداً في سبيل الله.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- شدة معاناة الرسول ﷺ في تبليغ دعوة العرب إلى الإسلام، حتى إنه كان يذهله ما كان يلاقيه عن نفسه.

٢- ثبات الرسول ﷺ على دعوته، وإصراره على البلاغ مع شدة ما كان يلاقيه منهم.

٣- عناية الله برسوله ﷺ ومواساته له فيما يصاب به، ومن ذلك إرساله ملك الجبال له، ليفعل بأهل مكة ما يأمره به.

٤- عظم شفقة الرسول ﷺ على قومه، ومدى حلمه وصبره على ما يوقعونه به من أذى.

٥- عظم القوة التي أوتيها ملك الجبال، حتى كان بمقدوره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة.

* * *

القِصَّةُ الحَادِيَةُ والثَّلاثُونَ
أُدعُ اللهَ أَنْ يَجعَلَني مِنهُم

تمهيد

قالَ[1] الرسول ﷺ في منزل أم حرام زوجة عبادة بن الصامت، فرأى رؤيا سرّته وأضحكته، رأى أقواماً من أمته يركبون ثبج البحر، في أبهة وعظمة ظاهرين، كأنهم الملوك على الأسرّة، منطلقين فوق أسطولهم البحري مجاهدين في سبيل الله، فطلبت منه أم حرام أن يدعو الله أن يجعلها منهم، فدعا لها بذلك. ثم عاود نومه، فرأى مثل ذلك، فطلبت منه أم حرام أن يدعو الله أن يجعلها منهم، فقال: أنتِ من الأولين.

نص الحديث

عن أنس بن مالكٍ ﷺ قال: «كان رسولُ الله ﷺ إذا ذهبَ إلى قُباء يَدخل على أمِّ حرام بنت ملحان، فتُطعِمه – وكانت تحتَ عُبادةَ بن الصامت – فدخلَ يوماً فأطعَمتْه، فنام رسولُ الله ﷺ ، ثم استيقظَ يَضحكُ، قالت: فقلتُ: ما يُضحككَ يا رسولَ الله؟ فقال: (ناسٌ من أمتي عُرِضوا عليَّ غُزاةً في سبيلِ الله، يَركبون ثَبَجَ هذا البحر مُلوكاً على الأسرَّة – أو قال: مثلَ الملوك على الأسرَّة يشكُّ إسحاقُ – قلتُ: ادعُ الله أن يجعلَني

(١) من قال يقيل قيلاً وقيلولة: نام نصف النهار.

منهم، فدعا ثم وضعَ رأسَهُ فنام، ثم استيقظَ يضحك. فقلتُ: ما يُضحككَ يا رسولَ الله؟ قال: ناسٌ من أمتي عُرضوا عليَّ غزاةً في سبيلِ الله، يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرَّة - أو مثلَ الملوك على الأسرَّة - فقلتُ: ادعُ الله أن يجعلَني منهم، قال: أنتِ من الأولين). فركبتِ البحرَ زمن معاوية، فصُرِعت عن دابتِها حين خرَجت من البحر، فهلكَت».

تخريج الحديث

هذا الحديث رواه البخاري في كتاب الاستئذان، باب من زار قوماً فقالَ عندهم، ورقمه: [٦٢٨٢، ٦٢٨٣] وأورده في مواضع كثيرة من كتابه. انظره تحت الأرقام التالية: [٢٧٨٨، ٢٧٨٩، ٢٧٩٩، ٢٨٠٠، ٢٨٧٧، ٢٨٧٨، ٢٩٩٤، ٢٩٩٥، ٧٠٠١، ٧٠٠٢].

ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة، باب فضل الغزو في سبيل الله، ورقمه: [١٩١٢].

غريب الحديث

ثبج البحر : ظهره.
صرعت عن دابتها : ألقتها عن ظهرها.

شرح الحديث

كانت أم حرام بنت ملحان خالة أنس بن مالك وزوجة الصحابي عبادة بن الصامت تسكن في قباء، وكان الرسول ﷺ إذا زار قباء، يزورها، ويدخل بيتها.

فدخل عليها يوماً، فقدّمت له طعاماً فأكل، ثم قال في دارها، ثم أفاق من نومه وهو يضحك، فسألته عما يضحكه، فأخبرها أنه رأى في نومته تلك ناساً من أمته عُرضوا عليه غزاة في سبيل الله، يركبون ظهر البحر، كأنهم ملوك على أسرة، ولا يكونون كذلك إلا إذا كانت سفنهم فارهة، وملابسهم مَوْشِيَّة زاهية، وأسلحتهم بالغة القوة والمتانة، فذلك حال الملوك إذا خرجوا للحروب.

وهذا يدل على الحال العظيمة التي ستصير إليها أمته من بعده، فطلبت أم حرام أن يدعو الله أن يجعلها من هؤلاء، فدعا لها.

وعاد الرسول ﷺ إلى نومه مرة أخرى، ثم استيقظ يضحك، كما وقع له أول مرة، فسألته أم حرام عن ضحكه، فأخبرها أنه رأى مثل ما رآه أول مرة، فعادت تطلب منه أن يدعو الله أن يجعلها منهم، فقال لها: أنت من الأولين، وهذا يعني أنها لن تدرك أن تكون مع أصحاب الغزوة الثانية.

وقد وقع الأمر كما أخبر به الرسول ﷺ ، فقد ركب زوجها عبادة بن الصامت ثبج البحر في أول غزوة غزاها معاوية أيام ولايته على الشام في زمن عثمان عام ثمانية وعشرين [فتح الباري ١١/ ٩١] وركبت معه زوجته أم حرام، فغزا المسلمون جزيرة قبرص، فلما خرجت من البحر، قدمت إليها دابتها لتركبها، فصرعتها، واندقّت عنقها فماتت، ولا يزال قبرها هناك إلى اليوم على شاطئ البحر، شاهداً على أن الرسول ﷺ لا يقول إلا الحق، وشاهداً على العزّ الغابر الذي كان ينعم فيه المسلمون في ظلال الإسلام.

والغزوة الثانية التي رآها الرسول ﷺ في الرؤيا كانت كما يقول ابن كثير سنة (٥٢ هـ) في خلافة معاوية، وولى فيها إمرة الجيش ابنه يزيد، وقد غزت

القسطنطينية، وكان فيها من الصحابة خالد بن يزيد، وأبو أيوب الأنصاري، وهناك مات، وقُبر عند أسوار القسطنطينية [النهاية في الفتن والملاحم: ١/ ٦].

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- أخبر الرسول ﷺ بأن أمته من بعده ستكون لها قوة بحرية عظيمة، وتغزو في البحر مرة بعد أخرى، وأن بعض أصحابه سيكونون في الغزوة الأولى، وأن أم حرام ستكون في تلك الغزوة، فكان الأمر وفق ما أخبر به.

٢- جواز ركوب البحر للغزو في سبيل الله، ولغيره من الأسفار المشروعة، كالسفر للحج والتجارة وزيارة الأهل والأقارب ونحو ذلك.

٣- إظهار القوة في الغزو في آلات الحرب والقتال، وقوة المراكب وسعتها، ونحو ذلك مشروع، بل مأمور به، فقد سرّ رسول الله ﷺ وهو يرى في منامه الغزاة في سبيل الله كالملوك على الأسرَّة.

٤- في إخبار الرسول ﷺ عن هؤلاء الغزاة ثناء عليهم وإشادة بهم، وهذا يدل على الحثّ والترغيب في الغزو البحري.

٥- جواز خروج النساء إلى الغزو بصحبة الرجال، كما فعلت أم حرام، فقد أقرها الرسول ﷺ على طلبها ذلك، ودعا لها به، وقد كان كثير من النساء يخرجن بصحبة أزواجهن في الغزو مع رسول الله ﷺ ، يُجَهِّزن طعام المقاتلين، ويمددنهم بالماء، ويداوين الجرحى.

٦- إذا أصيبت النساء المسلمات في الغزو نلن الشهادة في سبيل الله، كما وقع لأم حرام.

٧- دخول الرسول ﷺ على أم حرام، ونومه عندها من غير وجود زوجها، وتفليتها لشعره كما ورد في بعض روايات الحديث هو من خصائص

الرسول ﷺ ، فهو معصوم، لا شك في عصمته، أما غيره فلا يجوز لأحد أن تفعل به امرأة أجنبية ذلك، وقد نهت عنه الأحاديث. وقد كان يفعل مثل ذلك مع أختها أم سليم أم أنس، وقد استشكل هذا كثير من أهل العلم، وذهبوا فيه مذاهب كثيرة، حتى إن ابن عبد البر فيما نقله عنه النووي ذهب إلى أن أم حرام كانت إحدى خالاته من الرضاع، وقال آخرون: بل كانت خالة لأبيه، أو لجدّه، لأن عبد المطلب كانت أمه من بني النجار [شرح النووي على مسلم: ١٣-١٥/ ٥١] وهذه الأقوال بعيدة عن الصواب، ولا تثبت في مجال التحقيق والتمحيص، والقول السديد هو ما ذكرته أولاً، وهو الذي رجّحه ابن حجر العسقلاني [فتح الباري: ١١/ ٩٤].

٨- إخبار الرسول ﷺ أن أم حرام ستبقى حية إلى أن تدرك الغزوة الأولى، وأنها لن تكون في الغزوة الثانية، وفيه إشارة إلى موتها قبل الثانية.

* * *



القِصَّةُ الثَّانِيَةُ وَالثَّلاثُونَ
قصة الإسراء

تمهيد

ذهب الله برسوله ﷺ برحلة أرضية إلى موطن الأنبياء، وجمع الله له هناك الأنبياء فأمَّهم، ثم عرج به إلى السموات، فأراه هناك بعضاً من آياته الكبرى، وتنقل بين السموات، وجاوز المنتهى الذي لم يجزه أحد غيره، وفرض على رسوله هناك الصلوات، وعاد محفوظاً برعاية الله مكرماً معززاً، وفي هذه القصة تفصيل لذلك كله.

نص الحديث

عن أنسِ بن مالكٍ، عن مالكِ بن صَعصعةَ ﷺ : (أنَّ نبيَّ الله ﷺ حدَّثه عن ليلةِ أسري به قال: بينما أنا في الحَطيم – وربما قال في الحِجر – مضطجعاً، إذ أتاني آتٍ فقَدَّ – قال: وسمعته يقول: فشقَّ – ما بين هذه إلى هذه، فقلتُ للجارودِ وهوَ إلى جَنبي: ما يعني به؟ قال: من ثُغرةِ نحره إلى شِعرَته – وسمعتهُ يقول: من قَصِّهِ إلى شِعرته – فاستخرج قلبي، ثمَّ أُتيتُ بطَسْتٍ من ذهبٍ مملوءةٍ إيماناً، فغُسِلَ قلبي، ثم حُشي، ثمَّ أُعيدَ، ثمَّ أُتيتُ بدابَّة دُونَ البَغلِ وفوقَ الحمار أبيضَ – فقال له الجارودُ: هوَ البُراقُ يا أبا حمزةَ؟ قال أنسٌ: نعم – يَضَعُ خَطوَهُ عندَ أقصى طَرْفهِ، فحُملتُ عليه.

فانطلَقَ بي جبريلُ حتى أتى السماءَ الدُّنيا فاستفتَح، فقيل: مَن هذا؟ قال: جبريل. قيلَ: ومَن معك؟ قال: محمد. قيلَ: وقد أرسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مَرحباً به، فنِعمَ المجيءُ جاء، فَفَتَح.

فلما خَلَصتُ فإذا فيها آدمُ، فقال: هذا أبوك آدمُ، فسلّمْ عليه. فسلمتُ عليه، فرَدَّ السلامَ، ثم قال: مَرحَباً بالابنِ الصالح والنبيِّ الصالح. ثم صَعِدَ بي حتى أتى السماء الثانيةَ فاستفتحَ، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أُرسِلَ إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً بهِ، فنعمَ المجيء جاء، ففَتَح. فلما خَلَصْتُ إذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة. قال: هذا يحيى وعيسى فسلمْ عليهما، فسلّمتُ، فردّا، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبيِّ الصالح.

ثمَّ صَعِدَ بي إلى السماءِ الثالثة فاستَفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أُرسلَ إليهِ؟ قال: نعم. قيل: مرحَباً به فنعمَ المجيء جاء، ففُتح، فلما خَلصتُ إذا يوسُف، قال: هذا يوسُف فسلمْ عليه، فسلمتُ عليه، فردَّ ثمَّ قال: مَرحباً بالأخ الصالح والنبيِّ الصالح. ثم صَعِدَ بي حتى أتى السماء الرابعة فاستَفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: أوَقد أرسِلَ إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعمَ المجيء جاء، ففتح.

فلما خلصتُ فإذا إدريس، قال: هذا إدريسُ فسلّم عليه، فسلمتُ عليه، فردَّ ثم قال: مَرحباً بالأخ الصالح والنبيِّ الصالح. ثم صَعِدَ بي حتى أتى السماء الخامسة فاستَفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال محمد ﷺ ، قيل: وقد أُرسلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به فنعمَ

المجيء جاء، فلما خلصتُ فإذا هارونُ، قال: هذا هارونُ فسلمْ عليه، فسلمتُ عليه، فردَّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيِّ الصالح.

ثم صَعِدَ بي حتى أتى السماء السادسة فاستَفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسِلَ إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصتُ فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلمْ عليه، فسلمتُ عليه، فردَّ ثمَّ قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيِّ الصالح، فلما تجاوَزتُ بكى، قيلَ له: ما يُبكيك؟ قال: أبكي لأنَّ غُلاماً بُعثَ بعدي يدخُلُ الجنةَ من أمَّتهِ أكثرُ ممن يدخُلها من أمّتي.

ثم صَعِدَ بي إلى السماء السابعة، فاستَفتحَ جبريل، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به، ونعمَ المجيء جاء، فلما خلصتُ فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك فسلمْ عليه، قال: فسلمتُ عليه، فردَّ السلام، ثمَّ قال: مرحباً بالابنِ الصالح والنبيِّ الصالح.

ثم رُفعَت لي سِدرةُ المنتهى، فإذا نبقُها مثلُ قِلالِ هَجَر، وإذا وَرقُها مثلُ آذانِ الفِيَلة. قال: هذه سِدرة المنتهى، وإذا أربعةُ أنهارٍ: نهران باطنان، ونهرانِ ظاهران. فقلتُ: ما هذانِ يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهرانِ في الجنة، وأما الظاهرانِ فالنيلُ والفُرات. ثم رُفعَ لي البيتُ المعمور. ثمَّ أُتيتُ بإناءٍ من خَمر وإناءٍ من لَبَن وإناءٍ من عَسَل، فأخذتُ اللبَن، فقال: هيَ الفِطرةُ التي أنت عليها وأمَّتُك.

ثمَّ فُرِضت عليَّ الصلاةُ خمسينَ صلاةً كلَّ يوم، فرجَعْتُ فمرَرْتُ على موسى، فقال: بما أُمِرتَ؟ قال: أُمِرتُ بخمسينَ صلاةً كل يوم، قال: إن

أمتكَ لا تَستطيعُ خمسينَ صلاةً كل يوم، وإني والله قد جربتُ الناسَ قبلك، وعالجتُ بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجعْ إلى ربِّك فاسألْهُ التخفيف لأمتك، فرجَعت، فوضعَ عني عَشْراً، فرجَعتُ إلى موسى فقال مثله. فرجعتُ فوَضع عني عَشراً، فرجعتُ إلى موسى فقال مثله. فرجعت فوَضَعَ عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله. فرجعتُ فأمِرتُ بعَشرِ صلوات كلَّ يوم، فرجعتُ فقال مثله.

فرجعتُ فأمِرتُ بخمس صلواتٍ كل يوم، فرجعتُ إلى موسى فقال: بما أُمِرتَ؟ قلت: أُمِرتُ بخمسِ صلوات كل يوم. قال: إن أمتكَ لا تستطيعُ خمسَ صلواتٍ كل يوم، وإني قد جَربتُ الناسَ قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجعْ إلى ربِّكَ فاسألهُ التخفيف لأمتك. قال: سألتُ رَبي حتى استحيَيتُ، ولكن أرضى وأُسَلِّمُ، قال: فلما جاوَزت نادَى مُنادٍ: أمضَيتُ فريضتي، وخَفَّفت عن عبادي).

تخريج الحديث

رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، ورقمه: [٣٨٨٧] ورواه في مواضع كثيرة أخرى منها كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، [ورقمه: ٣٢٠٧] وفي كتاب التوحيد، باب قوله: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ [النساء: ١٦٤]. [ورقمه: ٧٥١٧]. عن أبي هريرة، ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب الإسراء، [ورقمه: ١٦٢].

غريب الحديث

الحطيم : هو حِجْر الكعبة.

ثغرة نحره : هي الثغرة المنخفضة التي تكون في أعلى الصدر بين الترقوتين.

شعرته : أسفل البطن.

قصّه : رأس الصدر.

الطَّسْتُ : إناء مصنوع من الصُّفْر، وهو النحاس، [راجع: لسان العرب: ٢/ ٥٩١] والمذكور في الحديث مصنوع من الذهب.

لغاديده : اللحمات التي بين الحنك وصفحة العنق واحدها لغدود.

البراق : هي الدابة التي ركبها الرسول ﷺ في إسرائه من مكة إلى القدس، سميت البراق لسرعتها.

فاستفتح : طلب أن يفتح له، أي: استأذن.

مرحباً به : أصاب رحباً وسعة.

سدرة المنتهى : السدر نوع من الشجر، وسدرة المنتهى شجرة عظيمة رآها الرسول ﷺ في معراجه إلى السماوات العُلى، سُميت بسدرة المنتهى، لأن علم الملائكة ينتهي إليها، ولم يجاوزها إلا الرسول ﷺ .

البيت المعمور : كعبة ملائكة السماء، وهي في السماء السابعة حيال الكعبة.

الفطرة : اخترت ما تهدي إليه الخلقة السوية وتدل عليه، والفطرة الإسلام.

شرح الحديث

عندما اشتد على الرسول ﷺ أذى قومه، وكان قد توفي عمّه أبو طالب الذي كان يحوطه ويدفع عنه، وتوفيت زوجه خديجة التي كانت تخفف عنه معاناته وآلامه، أخذ الرب تبارك وتعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ في رحلة

أرضية إلى بيت المقدس، ثم رحلة علوية إلى السموات العُلى، وأراه في هذه الرحلة شيئاً من آياته الكبرى، وفرض عليه في رحلته تلك الصلوات الخمس، وقابل في السموات الأخيار الكرام من الأنبياء والرسل، وكان موضع ترحيبهم وترحيب ملائكة السماء، ورأى جبريل عليه السلام على صورته التي خلقه الله عليها، ورأى سدرة المنتهى، وما غشيها من بديع الألوان، وما لا يعلمه إلا الله.

وعاد إلى الأرض بعد هذا الإكرام الذي ما بعده إكرام، ليكون له هذا زاداً عظيماً يعينه على مواصلة مسيرة الدعوة بقوة، ويمضي في طريقه غير عابئ بما يلاقيه، موقناً بالنصر، ناظراً إلى العالم الكبير الذي جالَ فيه في ملكوت الله نظرة تجعل عالم الناس عالماً محدوداً صغيراً.

وهذه الرحلة أعظم رحلة يقوم فيها إنسان في تاريخ البشرية، وستبقى كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لقد صفق البشر كثيراً عندما حطّ أول رواد الفضاء قدميه على القمر، وافتخرت أمريكا على العالم كله بتحقيقها هذا الإنجاز، وافتخرت أميركا على غيرها من الدول عندما أرسلت مركبة غير مأهولة وحطّت رحالها على المريخ، وهم في إنجازاتهم لم يقطعوا من أجواء الفضاء إلا قلامة أظفر، ثم ما الذي رأوه من عوالم السموات والأرض؟! إنه قليل قليل، ليس إلا هباءَة من عاصفة غبار هائلة. وقد وصف الرسول ﷺ رحلته الأرضية إلى بيت المقدس، ثم عروجه من هناك إلى السموات العُلى.

لقد أسري به أولاً إلى أرض الأنبياء، وإلى المسجد الذي كان قبلة بني إسرائيل، إيذاناً بتحول قيادة البشرية من فرع إسحاق بن إبراهيم التي كانت

متمثلة في يعقوب الذي هو إسرائيل وذريته، إلى فرع إسماعيل بن إبراهيم، متمثلة في محمد ﷺ ومن آمن به من العرب، ولتصبح هذه الرسالة رسالة عالمية، وليست محصورة في شعب بعينه أو قبيلة بعينها، وقد جمع الله لرسوله ﷺ الأنبياء في بيت المقدس، فصلى بهم إماماً، ليعلن الله لخلقه أن محمداً ﷺ إمام للبشرية، لا في الحاضر والمستقبل فحسب، بل في الماضي الغابر، ولتصبح شريعته هي المهيمنة على الشرائع كلها.

وقد هيأت ملائكة الرحمن الرسول ﷺ لتلك الرحلة العلوية السماوية، فمع عظيم إيمانه، وطهارة قلبه وروحه، فإنه احتاج إلى مزيد من الطهر والنقاء، ومزيد من الحكمة والإيمان، ولذلك جاء به جبريل عليه السلام وجمع من الملائكة إلى بئر زمزم، وشق جبريل صدره وبطنه، من أعلى صدره إلى أسفل بطنه، فاستخرج قلبه، وغسله وجوفه بماء زمزم حتى أنقاه، ثم جيء بإناء مملوء إيماناً وحكمةً، فحشا به صدره وعروقه وأعصابه، ففي حديث أبي هريرة قال الرسول ﷺ : (فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته، حتى فرغ من صدره وجوفه، فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه، ثم أتي بطست من ذهب، فيه تور من ذهب، محشواً إيماناً وحكمة، فحشا به صدره ولغاديده، يعني عروق حلقه، ثم أطبقه) [البخاري: ٧٥١٧، ومسلم: ١٦٤].

وليست هذه أول مرة يشق جبريل صدره، فقد وقع له ذلك في صباه وهو مسترضع في بني سعد، (فقد جاءه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثمّ غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَهُ، ثمّ أعاده إلى مكانه) [مسلم: ١٦٢].

ولم يقف الأمر في رحلة الإسراء والمعراج على غسل قلبه، بل حشي قلبه إيماناً وحكمةً، وهذا أبلغ مما وقع له في صغره.

وبعد عملية التطهير التي قام بها جبريل للرسول ﷺ أتي بدابة تدعى البراق، وقد وصف الرسول ﷺ هذه الدابة بقوله: (هو دابة أبيض طويل، فوق الحمار، ودون البغل) وسرعته سرعة خارقة لا يعلم قدرها إلا الله، فهو: (يضع حافره عند منتهى طرفه).

فركبه الرسول ﷺ ، فانطلق به حتى أتى به بيت المقدس، فربط الرسول ﷺ البراق بحلقة هناك، ثم دخل فصلى في المسجد ركعتين، ففي حديث أنس عند مسلم: (فركبته حتى أتيت بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، قال: ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين) [مسلم: ١٦٢].

وهناك جمع الله له الأنبياء، فصلى بهم إماماً، قال ابن حجر في [الفتح: ٧/ ٢٦١]: وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي (حتى أتيت بيت المقدس، فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء تربط بها – وفيه – فدخلت أنا وجبريل بيت المقدس فصلى كل واحد منا ركعتين).

وفي رواية أبي عبيدة بن عبدالله بن مسعود عن أبيه نحوه، وزاد (ثم دخلت المسجد، فعرفت النبيين من بين قائم وراكع وساجد، ثم أقيمت الصلاة فأممتهم).

وفي رواية يزيد بن أبي مالك عن أنس عند ابن أبي حاتم (فلم ألبث إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثير، ثم أذن مؤذن فأقيمت الصلاة، فقمنا صفوفاً ننتظر من يؤمّنا، فأخذ بيدي جبريل فقدمني فصليت بهم).

وفي حديث ابن مسعود عند مسلم (وحانت الصلاة فأممْتهم). وفي حديث ابن عباس عند أحمد (فلما أتى النبي ﷺ المسجد الأقصى قام يصلي، فإذا النبيون أجمعون يصلون معه) وفي حديث عمر عند أحمد أيضاً أنه (لما دخل بيت المقدس قال: أصلي حيث صلى رسول الله ﷺ ، فتقدم إلى القبلة فصلى).

وبعد أن صلى في المسجد وخرج (جاءه جبريل عليه السلام بإناء من خمر، وإناء من لبن) قال: (فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة) [مسلم: ١٦٢].

وفي رواية عن أنس: أن الضيافة كانت بعد أن رُفع إلى سدرة المنتهى، وأنه أُتِي بثلاثة أقداح، وليس بقدحين (قدح فيه لبن، وقدح فيه عسل، وقدح فيه خمر، فأخذت الذي فيه اللبن، فشربت، فقيل لي: أصبت الفطرة أنت وأمتك) [البخاري: ٥٦١٠].

ولا تعارض بين النصين، فالضيافة قدمت له مرتين، الأولى في الأرض بعد صلاته في المسجد الأقصى، وهناك قدّم له جبريل اللبن والخمر فحسب، والثانية في السماء بعد صعوده إلى سدرة المنتهى، وهناك جيء له بالأصناف الثلاثة، وفي كلا المرتين أثني على اختياره الفطرة.

وقيل له في اختياره اللبن: (أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك) [البخاري: ٣٣٩٤]. وفي رواية أن جبريل قال له: (الحمد لله الذي هداك للفطرة، لو أخذت الخمر غوت أمتك) [البخاري: ٤٧٠٩، ٥٥٧٦].

ثم عرج به إلى السموات العُلى، وكان جبريل يستأذن عند مجيئه كل سماء، قال الرسول ﷺ : (فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء).

وقد وقع مثله عند كل سماء من السماوات السبع. وقد وجد في كل سماء نبياً أو أكثر، كلهم يستقبله، ويرحب به، ويدعو له، ففي السماء الأولى وجد آدم عليه السلام ، فقال له جبريل: (هذا أبوك فسلّم عليه، فسلمت عليه، فردّ السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح، والنبي الصالح). وفي رواية أنه قال: (مرحباً وأهلاً بابني، نعم الابن أنت). [البخاري: ٧٥١٥ عن أبي هريرة].

وفي رواية أنس عن أبي ذر أن الرسول ﷺ قال: (فلما علونا السماء الدنيا، فإذا رجل عن يمينه أسودة، وعن يساره أسودة، قال: فإذا نظر قِبَل يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَل شماله بكى، قال: فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح.

قال: قلت: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه، فأهل اليمين أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر قِبَل يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَل شماله بكى) [البخاري: ٣٤٩، مسلم: ١٦٣].

وفي السماء الثانية استقبله ابنا الخالة عيسى ويحيى عليهما السلام، فعرَّفه جبريل بهما، وطلب منه أن يسلِّم عليهما، قال الرسول ﷺ : (فسلمت، فردا، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح، والنبي الصالح). وفي رواية عند مسلم أنه قال: (فرحبا ودعوا لي بخير) [مسلم: ١٦٢].

وقد وصف لنا الرسول ﷺ عيسى وصفاً بيّناً واضحاً فقال: (ليلة أسري بي رأيت موسى، وإذا هو ضرب من الرجال، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى فإذا هو رجل ربعة، كأنما خرج من ديماس)

[البخاري عن أبي هريرة: ٣٣٩٤] وفي حديث أبي هريرة عند مسلم: (وإذا عيسى ابن مريم قائم يصلي، أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي) [مسلم: ١٧٢].

وقابل الرسول ﷺ في السماء الثالثة نبي الله يوسف عليه السلام ، فسلّم عليه، (فردّ، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح). قال ابن حجر: «زاد مسلم في رواية ثابت عن أنس (فإذ هو أعطي شطر الحسن). وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي، وأبي هريرة عند ابن عائذ والطبراني (فإذا أنا برجل أحسن ما خلق الله قد فضل الناس بالحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب) [فتح الباري: ٧/ ٢٦٣]. وقابل في السماء الرابعة إدريس عليه السلام فسلّم عليه، وردّ عليه قائلاً: مرحباً بالأخ الصالح، والنبي الصالح.

ووجد في السماء الخامسة هارون، فسلم عليه ورد عليه كما رد عليه مرحباً قائلاً: أهلاً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ولقي في السماء السادسة نبي الله موسى عليه السلام كليم الرحمن، فرد عليه لما سلّم عليه قائلاً: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، قال الرسول ﷺ : (فلما تجاوزته بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بُعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي).

وقد وصف الرسول ﷺ موسى لأمته، وفي ذلك يقول: (وأما موسى فآدم جسيم سبط، كأنه من رجال الزط) [البخاري: ٣٤٣٨]. وفي الحديث الذي اعتمدناه: قال: (ليلة أسري بي رأيت موسى، وإذا هو ضرب من الرجال، كأنه من رجال شنوءة). وفي السماء السابعة وجد أباه إبراهيم عليه السلام ، فسلّم عليه، فردّ عليه، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح.

وقد رآه مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، قال: (فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه) وقد وصفه بأن شبهه بنفسه، فالرسول ﷺ كان شبيهاً بخلقه بأبيه إبراهيم والبيت المعمور لملائكة السماء كالكعبة لأهل الأرض، يحج إليه كل يوم من الملائكة سبعون ألف ملك، ومن دخله مرة لم يرجع إليه أخرى. وقد أكرم الله إبراهيم بوجوده في كعبة أهل السماء، جزاء بنائه كعبة أهل الأرض.

ثم رفع الرسول ﷺ إلى سدرة المنتهى، والسدر شجر معروف عند العرب، ولكن هذه الشجرة نوع آخر من الشجر، وهي الشجرة التي ذكرها الله في محكم كتابه في قوله: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۞ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۞ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۞ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ [النجم: ١٣-١٦].

لقد رأى الرسول ﷺ سدرة المنتهى، فإذا ثمرها الذي يسمى النبق مثل قلال هجر، وهجر مدينة في البحرين كانت مشهورة بصناعة القلال، وهذه الجرار تصنع من الفخار، ومعهود الناس في نبق الدنيا أنه صغير، تقبض في يدك عشرة منه في المرة الواحدة، وورق السدرة كآذان الفيلة، قال الرسول ﷺ : (فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها) [مسلم: ١٦٢].

ورأى الرسول ﷺ عند أصلها (أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران) فقال لجبريل: (ما هذان يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات).

ورأى الرسول ﷺ عند سدرة المنتهى جبريل عليه السلام على هيئته التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [التكوير: ٢٣]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ [النجم: ١٣].

وقد سألت عائشة رضي الله عنها عن المراد بهاتين الآيتين، فقال: (إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خُلِقَ عليها إلا هاتين المرتين، رأيته منهبطاً من السماء، ساداً عِظَمُ خَلْقِهِ ما بين السماء إلى الأرض) [مسلم: ١٧٧].

وتحديد عدد الأجنحة بستمائة جناح ذكره ابن مسعود [البخاري: ٣٢٣٢] وبعد سدرة المنتهى أدخل الرسول ﷺ الجنة، (قال: ثم انطلق بي جبريل حتى نأتي سدرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدري ما هي، ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك) [البخاري: ٣٤٩، مسلم: ١٦٣]. ورأى هناك صلوات الله وسلامه عليه الكوثر الذي أعطاه ربه في الجنة، فعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: (بينما أنا أسير في الجنة، إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل، قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا طيبه أو طينه مسك أذفر) [البخاري: ٦٥٨١].

ثمّ فرض الله عليه وعلى أمته خمسين صلاة في اليوم والليلة، فلما مرّ بموسى عليه السلام ، فاستفسر منه عما فرض عليه ربّه، فأخبره، فقال له: (إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله) فما زال الرسول ﷺ يتردد بين موسى وبين ربه حتى أصبحت خمساً، فقال موسى للرسول ﷺ كما قال أول مرة، وطلب منه أن يرجع إلى ربّه فيسأله التخفيف، فقال

رسولنا ﷺ : (سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى وأسلم. قال: لما جاوزت نادى منادٍ: أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي).

وبعد هذه الرحلة السماوية العلوية رجع إلى مكة في صبيحة تلك الليلة، فأخبر الرسول ﷺ قومه بما كان من إسراء الله به، فكذّبوه أعظم التكذيب، وكان بعضهم قد أتى بيت المقدس، وعرف صفته، فسألوه عن صفته، امتحاناً له، ولم يكن الرسول ﷺ قد أثبت صفته، فمثل الله له بيت المقدس، فأخذ يخبرهم بصفته وهو ينظر إليه، فعن جابر بن عبدالله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (لما كذبتني قريش قمت في الحجر، فجلا الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته، وأنا أنظر إليه) [البخاري: ٣٨٨٦، ٤٧١٠، ومسلم: ١٧٠] وفي رواية: (لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس...) الحديث [البخاري: ٤٧١٠].

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- فضل الرسول ﷺ وتكريمه بالإسراء به إلى المسجد الأقصى، وصلاته بالأنبياء إماماً، والعروج به إلى السموات العُلى، ومقابلته عظماء الأنبياء، واستقبال أهل السماء له، واطلاعه على الآيات العظام.

٢- رأى الرسول ﷺ في هذه الرحلة جملة من الآيات المخالفة لمعهود البشر، فقد كشف له ظهر منزله، وأخرج منه من غير أن يهدم المنزل أو يتشقق، وشُقّ صدره، وغسل قلبه وداخل جوفه، ومُلِئ إيماناً وحكمة، ثم ردّ إلى ما كان عليه، من غير أن تسيل منه الدماء، ومن غير ألم ولا تعب، وقطع المسافات الشاسعة العظيمة التي يحتاج البشر إلى قطعها إلى مئات الألوف من السنين في بعض ليلة.

٣- كان الرسول ﷺ في منزله عندما أخذ إلى زمزم. ومن هناك أسري به بعد غسل قلبه وجوفه ومَلْئِهِ إيماناً وحكمةً، وصدق الله إذ يقول: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ [الإسراء: ١].

٤- فضل زمزم على غيره من المياه إذ غسل جبريل قلب الرسول وجوفه من مائه، وكان الله قادراً أن ينزل له ماءً من الجنة.

٥- يوجد في السماء دواب غير دواب الأرض، لها خصائص لا توجد في شيء من دواب الأرض، ومن ذلك البراق الذي ركبه الرسول ﷺ ، وركبه بعض الأنبياء من قبله، وسمي براقاً لسرعته الخارقة، حيث يضع خطوه عند أقصى طرفه.

٦- الرسول ﷺ وإن آذاه بعض أهل الأرض، ولا يزالون يؤذونه، كان ولا يزال موضع ترحيب الملائكة والأنبياء، وقد أخبرنا الرسول ﷺ كيف كان موضع ترحيب الملائكة والأنبياء في السماوات.

٧- من قدم على قوم فإنه هو الذي يبدؤهم بالسلام، ولذلك كان جبريل عليه السلام يعرف الرسول ﷺ على كل نبي يمران به، ثم يطلب منه أن يسلم عليه.

٨- استحباب التعارف مع الذين نلقاهم في أسفارنا، كما عرّف جبريل الرسول ﷺ بالأنبياء، وبعض الملائكة كمالك خازن النار.

٩- وجوب الاستئذان عندما نطرق ديار غيرنا وبيوتهم، كما استأذن جبريل عليه السلام عندما كان يريد دخول كل سماء من السموات.

١٠- من الأدب العظيم أن يرحب المرء بمن يقدم عليه من الخيار، ويثني عليه إن كان يعلم مناقبه، ويدعو له، كما فعل الأنبياء حين كانوا يستقبلون الرسول ﷺ .

١١- نباهة الرسول ﷺ وحضور ذهنه، فقد عرفنا بصفات بعض من لقيه من الأنبياء، ومنهم عيسى وموسى ويوسف وإبراهيم.

١٢- إدريس ليس من آباء إبراهيم عليه السلام ، فإنه لم يدعُ الرسول ﷺ ابناً، بل دعاه أخاه، خلافاً لما قررته التوراة أنه من آباء نوح عليه السلام .

١٣- معرفة مراتب المذكورين من الرسل والأنبياء في السماوات، فآدم في الأولى، وعيسى ويحيى في الثانية، وهكذا..

١٤- فضل إبراهيم عليه السلام على بقية الأنبياء في جعله في السماء السابعة، وفي إسناد ظهره إلى البيت المعمور.

١٥- للملائكة كعبة في السماء السابعة يصلّون إليها، ويحجّون إليها، ويدخلها كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة، وكل من دخلها لا تُسنح له فرصة للعودة إليها.

١٦- فضل موسى عليه السلام ، وغبطته للرسول ﷺ أن جعل الداخلين من أمته أكثر من الداخلين من أمة موسى عليه السلام .

١٧- تعريفنا بالشجرة العظيمة سدرة المنتهى التي رآها الرسول ﷺ وقد غشاها ما غشّى، ومعرفة أن ثمارها كقلال هجر، وأوراقها كآذان الفيلة، ومن عند أصلها تتفجر أنهار الجنة.

١٨- هداية الله رسوله ﷺ إلى الفطرة حيث اختار اللبن على الخمر، ولو اختار الخمر لغوت أمته.

١٩- فرض الله على رسوله ﷺ خمسين صلاة، ثم تخفيفها إلى خمس في الفعل وخمسين في الأجر.

٢٠- شفقة موسى عليه السلام على هذه الأمة في نصح الرسول ﷺ أن يرجع فيطلب من الله التخفيف من عدد الصلوات، لأن أمته لا تطيق ما أمرت به.

٢١- للتجارب أثرها في صقل مواهب الإنسان، ومعرفة الطريقة التي يقاد بها البشر، فموسى عليه السلام نصح الرسول ﷺ بالعودة إلى الله وسؤاله التخفيف بناءً على ما جربه في الحياة، وعرفه من بني إسرائيل فيما أمرهم به.

٢٢- الأقوام الماضية كانوا أطول أعماراً، وأقوى أجساداً، فقد قال موسى للرسول ﷺ : (فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً) [البخاري عن أبي هريرة: ٧٥١٥].

٢٣- الاستجابة لمشورة الأدلاء الناصحين كما استجاب رسولنا ﷺ لنصيحة موسى في العودة إلى الله وسؤاله التخفيف.

٢٤- القدرات الفائقة لجبريل عليه السلام ، فقد كشف سقف بيت الرسول ﷺ ، وشق صدره، وعِظَمَ خلقه، وكثرة أجنحته.

٢٥- استحباب الرحيل إلى المسجد الأقصى والصلاة فيه، فقد صلى الرسول ﷺ فيه ركعتين، وكذلك فعل جبريل عليه السلام .

٢٦- كان الإسراء بالرسول ﷺ والعروج به إلى السموات العلى بجسده وروحه، وليس بالروح فقط كما زعم ذلك من زعم، يدلك على هذا قوله تعالى: ﴿ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١] فالعبد الروح والجسد، ولو أسري بروحه فحسب لما كذبه قومه.

٢٧- الصواب من القول أن الذي رآه الرسول ﷺ في الأفق الأعلى، ثم دنى فتدلى هو جبريل عليه السلام ، وليس هو الله، وقد جاءت الأحاديث كثيرة وافرة دالة على صحة ذلك، وقد قالت عائشة: (من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب) [البخاري: ٧٣٨٠].

٢٨- القرابة التي بين عيسى ويحيى، فهما ابنا خالة، وزكريا الذي كفل مريم هو زوج أختها.

٢٩- ورد في الأحاديث أن للسماء أبواباً يدخل ويخرج منها، ولكل سماءٍ خازن، ولا يدخل ولا يخرج منها إلا بإذن.
٣٠- فضل الصلاة إذ فرضت دون غيرها من الفرائض في السماوات العلى، وفرضها الله على رسوله مشافهاً إياه بها، وكلم الله رسوله ﷺ في فرضها عليه من غير واسطة، وجعلها خمس صلوات، وهي في الأجر خمسين.
٣١- حال آدم عليه السلام في ضحكه إذا نظر إلى أرواح الصالحين من نسم بنيه وبكائه إذا نظر إلى أرواح الطالحين منهم.
٣٢- جواز مدح الإنسان الذي تؤمن عليه الفتنة في وجهه كما مدح الأنبياء الذين قابلوا الرسول ﷺ عندما مرّ بهم.
٣٣- جواز نسخ الحكم الشرعي قبل وقوع العمل به، فقد فرض الله على رسوله ﷺ وأمته خمسين صلاة، ثم لم يزل يخفف عنه، حتى أصبحت خمساً.
٣٤- الجنة والنار مخلوقتان، فقد شاهد الرسول ﷺ النار في الإسراء، ودخل الجنة ومشى فيها، ورأى بعض نعيمها.
٣٥- جواز استناد المرء بظهره إلى الكعبة وتولية وجهه إلى خلافها، كما فعل إبراهيم في إسناد ظهره إلى البيت المعمور.
٣٦- ورد في الأحاديث أن الرسول ﷺ رأى في السماء الدنيا كما رأى عند سدرة المنتهى نهرين يجريان، وهما النيل والفرات. وقال جبريل لما سأله الرسول ﷺ (هذان النيل والفرات عنصرهما) [البخاري: ٧٥١٧] (والعنصر بضم العين وفتح الصاد، الأصل، وقد تضم الصاد) [النهاية في غريب الحديث: ٣/ ٣٠٩. ولسان العرب: ٢/ ٩٠٢]. فالمراد على ذلك أن أصل هذين النهرين كان من النهرين اللذين في السماء، وليس المراد أنهما الآن يتدفقان من النهرين اللذين يخرجان من عند سدرة المنتهى.

القِصَّةُ الثَّالِثَةُ والثَّلاثُونَ
أرواحهم في حواصل طير خضر

تمهيد

إنهم الشهداء الذين بذلوا أنفسهم في سبيل الله، يسقطون صرعى في ميدان الحرب والقتال، فيهب الله لهم حياة أكمل من حياتهم الدنيا، إذ تنقل أرواحهم من تلكم الأجساد إلى أجواف طير خضر، تسرح في رياض الجنة، تأكل من ثمارها، وتشرب من أنهارها، وتأوي إلى قناديل معلقة في سقف عرش الرحمن، فطوبى لهم.

نص الحديث

عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللهِ (هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ) عَنْ هذِهِ الآيَةِ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذلِكَ، فَقَالَ: (أَرْوَاحُهُمْ في جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ. لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلاَعَةً، فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئاً؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي؟ وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذلِكَ بِهِمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ! نُرِيدُ

أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا).

تخريج الحديث

رواه مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون: [ورقمه ١٨٨٧].

غريب الحديث

الروح : الروح لا يعلم حقيقتها إلا الذي خلقها، وهي التي تكون بها الحياة، فإذا نزعت من الجسد وفارقته مات الإنسان.

شرح الحديث

جاء تلامذة الصحابي الجليل العالم الفقيه عبدالله بن مسعود إليه يسألونه عن حياة الشهداء المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وتفسير الذي سألوا عنه لا يكون إلا بوحي إلهي، فكيفية حياة الشهداء أمر غيبي، لا اطلاع لأحد من البشر عليه، وقد كان عند ابن مسعود علم من الرسول ﷺ يبين الأمر المسؤول عنه، فقد سأل أصحاب الرسول ﷺ عن هذه الحياة المذكورة في الآية كما سئل ابن مسعود.

وقد أخبر الرسول ﷺ أن أرواح الشهداء تكون في البرزخ في جوف طيور خضر، ولهذه الطيور الخضراء الجميلة قناديل معلقة في سقف عرش

الرحمن، فهي تسرح في رياض الجنة، وتحلق فوق أشجارها وأنهارها، ثم تعود لتأوي إلى تلك القناديل.

وأخبرنا ربنا – تبارك وتعالى – أن رب العزة اطلع على الشهداء اطلاعة وسألهم عما يريدون ويطلبون ويشتهون، فلم يجدوا فيما هم فيه نقصاً ليطلبوا إتمامه.

فقالوا: أي شيء نشتهي، ونحن نسرح في الجنة حيث شئنا، والجنة كمال لا نقص فيها.

وكرر عليهم ربهم السؤال ثلاث مرات، وأجابوا في كلِّ مرة الإجابة نفسها، فلما رأوا أنهم لا يتركون، طلبوا من ربهم أن يعيدهم إلى الدنيا، ليقاتلوا في سبيله مرة أخرى فيقتلون ثانيةً، عند ذلك تركوا.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- فضل الشهداء، وبيان أنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وحياتهم أن تجعل أرواحهم في أجواف طير خضر تسرح في رياض الجنة، تأكل من ثمارها وتشرب من أنهارها، وتأوي إلى قناديل معلقة في سقف عرش الرحمن.

٢- الجنة مخلوقة، وهذا هو مذهب أهل السنّة والجماعة، والدليل على ذلك دخول الشهداء الجنة، وطيرانهم في أجوائها.

٣- الشهداء يجزون في البرزخ نعيماً، وهذا يدل على أن المؤمنين ينعمون بالبرزخ بصورة ما، وبعضهم في ذلك فوق بعض، وحسبنا أن نعلم أن قبر المؤمن روضة من رياض الجنة.

٤- أرواح العباد لا تفنى، وموت العباد يكون بنزع أرواحهم من أجسادهم، وبعد ذلك النزع تبقى الأرواح منعمة أو معذبة، ولكنها لا تفنى.

٥- إكرام الله للشهداء من عباده باطلاعه عليهم وسؤالهم عما يشتهون.

٦- تمنى الشهداء الرجوع إلى الدنيا ليجاهدوا ويُقتلوا في سبيل الله مرة أخرى، لما يرون من عِظَم أجر الشهيد.

* * *

القِصَّةُ الرَّابِعَةُ والثَّلاثُونَ
رحلة الموت

تمهيد

يتطلع الناس إلى معرفة ما يقع لهم بعد موتهم ورحليهم عن هذه الحياة، ومَنْ عَلِمَ عقائد الأمم في ذلك وجدها ترهات وتخيلات وأساطير، فما بعد الموت غيب، ولا يعلم الغيب إلا الله، فمن أراد المعرفة الحقة لمصيره ومنتهاه وهو في هذه الحياة، فعليه أن يعلم ذلك من عالِم الغيب والشهادة.

وفي هذا الحديث تفصيل وافٍ لرحلة الإنسان منذ أن ينزل به الموت وإلى أن يستقر في قبره مؤمناً كان أو كافراً.

نص الحديث

عن البراء بن عازب قال: «خرجنا مع النبيِّ ﷺ في جَنَازةِ رجلٍ من الأنصارِ، فانتهينا إلى القبر ولما يُلْحَدْ، فجلس رسولُ الله ﷺ (مستقبلَ القبلةِ)، وجلسنا حولَه، وكأنَّ على رؤوسنا الطيرُ، وفي يده عُودٌ يَنكُتُ في الأرض، (فجعلَ ينظرُ إلى السماء، وينظرُ إلى الأرضِ، وجعلَ يرفعُ بصرَه ويخفضُه، ثلاثاً)، فقال: استعيذُوا بالله من عذابِ القبرِ، مرتين، أو ثلاثاً، (ثم قال: اللهمَّ إني أعوذ بكَ من عذابِ القبرِ) (ثلاثاً).

ثم قال: (إن العبدَ المؤمنَ إذا كان في انقطاع من الدُّنيا، وإقبالٍ من الآخرةِ، نَزلَ إليه ملائكةٌ من السماء، بيضُ الوجوهِ، كأن وجوهَهُم الشمسُ، معهم كَفَنٌ من أكفان الجنة، وحَنوطٌ من حَنُوط الجنة، حتى يجلسوا منه مَدَّ البصرِ، ثم يجيءُ مَلَكُ الموتِ عليه السلام، حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتُها النفسُ الطيبةُ (وفي رواية: المطمئنةُ)، اخرُجِي إلى مَغفرةٍ من الله ورضوان.

قال: فتخرج تَسيلُ كما تَسيلُ القَطرةُ مِن في السقاءِ، فيأخذُها، (وفي رواية: حتى إذا خرجت روحُه صلَّى عليه كلُّ مَلَكٍ بين السماء والأرض، وكلُّ مَلَكٍ في السماء، وفُتِحت له أبوابُ السماء، ليس من أهلِ بابٍ إلا وهم يدعون الله أن يُعرَجَ بروحه مِن قِبَلِهم)، فإذا أخذها لم يَدَعوها في يَدِه طَرفةَ عينٍ حتى يأخُذُوها، فيجعلوُها في ذلك الكفنِ، وفي ذلك الحَنُوطِ، (فذلك قوله تعالى: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١] ويَخرجُ منها كأطيبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَت على وجه الأرض.

قال: فيصعدون بها فلا يمرُّون - يعني بها - على ملأ من الملائكةِ إلا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الطيبُ؟ فيقولون: فلانُ ابن فلانٍ بأحسنِ أسمائه التي كانوا يُسمُّونه بها في الدنيا، حتى يَنتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيَستفتِحون له، فيُفتَحُ لهم، فيشيِّعُه من كلِّ سماء مُقَرَّبوها، إلى السماء التي تليها، حتى يُنتهَى به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابَ عبدي في عِلِّيِّين، [﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين: ١٩-٢١]، فيكتب كتابه في عليين، ثم يقال]: أعيدُوه إلى الأرضِ، فإني (وعدتُهم أني) منها خلقتُهم، وفيها أعيدُهم ومنها أخرجُهم تارةً أخرى..

قال: فـ (يُرَد إلى الأرض، و) تُعادُ روحُه في جسدِه، (قال: فإنه يَسمعُ خَفْقَ نِعالِ أصحابِه إذا وَلَّوْا عنه) (مُدبِـرِينَ)، فيأتيه مَلَكانِ (شَدِيدا الانتهارِ) فـ(ينتهرانه، و) يُجلسانِه فيقولان له: مَن ربُّك؟ فيقولُ: رَبِّيَ الله، فيقولان له: ما دينُك؟ فيقول: دينيَ الإسلامُ، فيقولان له: ما هذا الرجلُ الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هو رسولُ الله ﷺ ، فيقولان له: وما عِلْمُكَ؟ فيقول: قرأت كتابَ الله، فآمنتُ به، وصدَّقتُ، وهي آخرُ فتنةٍ تُعرَضُ على المؤمنِ، فذلك حين يقول الله عز وجل: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٧]، فيقولُ: رَبِّيَ الله، ودينيَ الإسلامُ، ونَبيِّيَ محمدٌ ﷺ ، فيُنادي منادٍ في السماء: أن صَدَقَ عبدي، فأفْرِشُوه من الجنة، وألْبِسُوه من الجنةِ، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيهِ من رَوْحِها وطِيبِها، ويُفسَحُ له في قبرِهِ مَدَّ بصرِهِ.

قال: ويأتيه (وفي رواية: يمثل له) رجلٌ حَسَنُ الوجهِ، حَسَنُ الثيابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فيقول: أبْشِرْ بالذي يَسُرُّكَ، (أبشِرْ برضوانٍ من الله، وجناتٍ فيها نعيمٌ مقيمٌ)، هذا يومُكَ الذي كنتَ تُوعَدُ، فيقول له: (وأنت فبشَّرك الله بخيرٍ) مَن أنت؟ فوجهُك الوجهُ يجيءُ بالخيرِ، فيقول: أنا عملُك الصالحُ (فوالله ما علمتُكَ إلا كنتَ سريعاً في إطاعةِ الله، بطيئاً في معصيةِ الله، فجزاكَ الله خيراً)، ثم يُفتَحُ له بابٌ مِن الجنةِ، وبابٌ من النارِ، فيقال: هذا منزِلُكَ لو عصيتَ الله، أبدَلكَ الله به هذا، فإذا رأى ما في الجنةِ قال: رَبِّ عَجِّلْ قيامَ الساعةِ، كيما أرجعَ إلى أهلي ومالي، (فيقال له: اسكُنْ).

قال: وإن العبدَ الكافرَ (وفي رواية: الفاجر) إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا، وإقبالٍ من الآخرة، نَزَلَ إليه من السماء ملائكةٌ (غلاظٌ شِدادٌ)، سودُ

الوجُوهِ، معهم المُسوحَ (من النار)، فيَجلِسونَ منه مَدَّ البصرِ، ثم يجيءُ مَلَكُ الموتِ حتى يجلسَ عند رأسِه، فيقول: أيتُها النفسُ الخبيثةُ اخرُجِي إلى سَخَطٍ من الله وغضبٍ.

قال: فَتَفَرَّقَ في جسدِه فينتزِعُها كما يُنتَزَعُ السُّفُّودُ (الكثيرُ الشُّعَبِ) من الصوفِ المبلولِ، (فتُقطَع معها العروقُ والعصبُ)، (فيلعنُه كلُّ مَلَكٍ بين السماء والأرض، وكلُّ مَلَكٍ في السماء، وتُغلَقُ أبوابُ السماء، ليس من أهلِ بابٍ إلا وهم يَدْعُونَ الله ألا تَعرُجَ رُوحُه مِن قِبَلِهِمْ)، فيأخذُها، فإذا أخذَها، لم يَدَعُوها في يده طَرفةَ عينٍ حتى يجعلوها في تلكَ المُسوحِ، ويَخرجُ منها كأنتنِ ريحِ جيفةٍ وُجِدَت على وجه الأرضِ، فيصعدون بها، فلا يَمرُّون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروحُ الخبيثُ؟ فيقولون: فلانُ ابن فلانٍ - بأقبحِ أسمائِه التي كان يُسمَّى بها في الدنيا، حتى ينتهيَ به إلى السماء الدنيا، فيُستَفْتَحُ له، فلا يُفتَحُ له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: ٤٠].

فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابَه في سِجِّينٍ، في الأرض السُّفلَى، (ثم يقال: أعيدوا عبدي إلى الأرضِ فإني وعدتُهم أني منها خلقتُهم، وفيها أعيدُهم، ومنها أخرِجُهم تارةً أخرى)، فتُطرَحُ رُوحُه (من السماء) طرحاً (حتى تقع في جسدِه) ثم قرأ ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١] فتُعادُ رُوحُه في جَسَدِه، (قال: فإنه ليسمَعُ خَفْقَ نعالِ أصحابِه إذ وَلَّوْا عنه).

ويأتيه ملكانِ (شديداً الانتهارِ، فينتهرانه، و) يُجلِسانه، فيقولان له: مَن ربُّك؟ (فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما دينُكَ؟ فيقول: هاه هاه لا أدري)، فيقولان له: فما تقول في هذا الرجل الذي بُعثَ فيكِم؟ فلا يهتدي لاسمه، فيقال: محمدٌ! فيقول: هاه هاه لا أدري (سمعتُ الناسَ يقولون ذاك! قال: فيُقالُ: لا دريتَ)، (ولا تَلَوتَ)، فينادي منادٍ من السماء أن كَذَبَ، فأفرِشُوا له من النارِ، وافتَحُوا له باباً إلى النار، فيأتيه مِن حَرِّها وسَمُومِها، ويُضَيَّقُ عليه قبرُهُ حتى تختلفَ فيه أضلاعُه..

ويأتيه (وفي رواية: ويمثل له) رجلٌ قبيحُ الوجهِ، قبيحُ الثيابِ، مُنتِنُ الريحِ، فيقول: أبشِرْ بالذي يَسُوؤُكَ، هذا يومُك الذي كنتَ تُوعَدُ، فيقولُ: (وأنتَ فبشَّرَكَ الله بالشرِّ) مَن أنتَ؟ فوجهُك الوجهُ يجيء بالشرِّ! فيقول: أنا عملُكَ الخبيثُ، (فوالله ما علمتُ إلا كنتَ بطيئاً عن طاعةِ الله، سريعاً إلى معصيةِ الله)، (فجزاكَ الله شراً، ثم يُقَيَّضُ له أعمَى أصَمُّ أبكَمُ في يدِهِ مِرْزَبَّةٌ! لو ضُرِبَ بها جَبَلٌ كان تُراباً، فيضرِبُهُ ضَرْبَةً حتى يصيرَ بها تُراباً، ثم يعيدُه الله كما كان، فَيَضْرِبُه ضَرْبَةً أُخرَى، فيصيحُ صيحةً يسمعُه كلُّ شيءٍ إلا الثقلَيْنِ، ثم يُفتَحُ له بابٌ مِن النارِ، ويُمْهَدُ مِن فُرُشِ النارِ)، فيقولُ: رَبِّ لا تُقِمِ الساعةَ».

تخريج الحديث

جمع الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى في كتابه: «الجنائز» روايات الحديث الواردة في كتب السنّة، وعنه نقلنا الحديث كما جمعه، وقال في تخريجه:

«أخرجه أبو داود والحاكم والطيالسي وأحمد والسياق له، والآجري في «الشريعة»».

وروى النسائي وابن ماجه القسم الأول منه إلى قوله: «وكأن على رؤوسنا الطير»، وهو رواية لأبي داود بأخصر منه، وكذا أحمد، وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين». وأقره الذهبي، وهو كما قالا، وصححه ابن القيم في «إعلام الموقعين» و«تهذيب السنن»، ونقل فيه تصحيحه عن أبي نعيم وغيره، [كتاب الجنائز: ص ٥٦]. وعزى في الهامش الزيادات التي أوردها لمراجعها في كتب السنّة، وكذلك انظر تمام تخريجه في «مسند الإمام أحمد» [٣٠/ ٤٩٩-٥٠٥]، طبعة مؤسسة الرسالة.

غريب الحديث

يلحد : اللحد في القبر الشق في جانب القبر.

ينكت به : يحرك به تراب الأرض.

حنوط: الحنوط : الطيب الذي يجعل في أكفان الموتى وفي أجسادهم.

ملأ : جماعة.

المُسُوح : بضمتين، جمع مِسْح، بكسر الميم، ما يلبس من نسيج الشعر على البدن تقشفاً وقهراً للبدن.

سِجّين : اسم كتاب تدون فيه أسماء الكفرة الذين يدخلون البرزخ، وهو يقابل العليين الذي تكتب فيه أسماء الأخيار الذين يرحلون عن الحياة.

خفق نعالهم : صوت نعالهم.

يتتهرانه : يزجرانه.

السَّفُّود : الحديدة التي يشوى بها اللحم. [مختار الصحاح: ص ٣٠٠].

هاه، هاه : المراد بها أن يقول ذلك متوَجعاً.

لا دريت، ولا تلوت : لم تعلم، ولم تتبع من يعلم.

شرح الحديث

خرج الرسول ﷺ يوماً مع أصحابه في جنازة رجل من الأنصار، وعندما وصلوا إلى المقبرة لم يكن قد اكتمل حفر القبر بعد، فجلس الرسول ﷺ على الأرض مستقبلاً القبلة، وجلس أصحابه حوله ساكنين كأن على رؤوسهم الطير.

ووصف لنا راوي الحديث الهيئة التي كان عليها الرسول ﷺ في تلك الساعة، فقد أخذ عوداً يحرك به الأرض، ثم أخذ ينظر إلى السماء مرة، وإلى الأرض أخرى، وهو في ذلك يرفع بصره ويخفضه، فعل ذلك ثلاث مرات. ثم قال لأصحابه: استعيذوا بالله من عذاب القبر، مرتين أو ثلاث مرات، ثم قال: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، كررها ثلاث مرات.

وكان هذا منه صلوات الله وسلامه عليه مقدمة لحديث طويل، وصف فيه الرسول ﷺ لأصحابه حال الإنسان منذ أن ينزل به الموت، وإلى أن يوضع في قبره، ويرحل عنه أهله وأصحابه، وما يحل به، وما يقع له أثناء ذلك وبعده.

أخبرهم ﷺ أن الناس في تلك الحال فريقان: مؤمنون وكفار، وهم يختلفون فيما بينهم اختلافاً عظيماً.

فالعبد المؤمن عندما تبدأ حياته الدنيا في الذهاب والتلاشي، ويبدأ بالدخول في عالم الآخرة، تتنزل عليه ملائكة الرحمن من السماء، فيحلون بساحة، وهم في أجمل صورة، وأبهى حلّة، ينظر إليهم، وروحه لم تغادر بدنه بعدُ، وجوههم بيضاء مشرقة، كأنها شموس، معهم أكفان من الجنّة يكفنون بها روحه، ومعهم طيبٌ من الجنة يطيبون بها تلك الروح، ويجلسون منه مدّ بصره، وبعض الصالحين يحدثون وهم في سياق الموت عما يرونه ويشاهدونه، والناس حولهم عما يرونه محجوبون.

ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول مخاطباً تلك الروح: أيتها النفس الطيبة، أو قال: المؤمنة، اخرجي إلى رحمةٍ من الله ورضوان، فلا تملك أن تتأخر، وتخرج تسيل من الجسد كهيئة قطرات الماء النقي الصافي التي تسيل من فم قربة الماء.

فإذا خرجت تلك الروح المؤمنة الطيبة النقية من الجسد صَلَّى عليها كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملائكة السماء، وفتحت لها أبواب السماء، وأخذ كل أهل باب يدعون الله عز وجل أن يعرج بروحه من ناحيتهم.

فإذا تكامل خروج روح العبد في يد ملك الموت، لم يدع الملائكة الذين حضروا موته تلك الروح في يد ملك الموت طرفة عين، فيأخذونها منه، ويضعونها في ذلك الكفن الذي جاؤوا به من الجنة، ويطيبونها بذلك الطيب الذي من الجنة، وهذا هو التوفي الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١].

وعندما تخلص الروح من الجسد تفوح منها رائحة طيبة عطرة، تعطر الدنيا بطيبها، وقد وصف الرسول ﷺ طيب تلك الرائحة بقوله: (ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وُجدت على وجه الأرض).

إن هذا العبد طَيَّبَ نفسه في الدنيا بإيمانه وعمله الصالحات، وظهر أثر ذلك من روحه الطيبة عندما تخلص من جسده، ويجد هذه الرائحة ملائكة الرحمن، وقد يجد الأحياء من البشر هذه الرائحة من بعض الأموات، ولا تكاد تخلو أجساد الشهداء منها، وقد تواترت الأخبار قديماً وحديثاً عن الشهداء الذين عطروا الأحياء وتربة القبور بعبق روائحهم الطيبة، وقد توجد من بعض المؤمنين غير الشهداء في بعض الأحيان.

وينطلق الملائكة الذين أخذوا تلك الروح برحلة علوية إلى السماوات العُلى، وكلما مرّوا في صعودهم وانطلاقتهم بجمع من الملائكة سألوا عن تلكم النسمة الطيبة التي تتضوع عطراً ومسكاً، فيقول الموكلون بها: هذه روح فلان بن فلان، ويسمونه بأحسن الأسماء التي كانوا يسمونه بها في الدنيا.

وتنتهي ملائكة الرحمن بتلك الروح إلى السماء الدنيا، فيستأذنون له، فيؤذن له بالدخول، ويشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى يبلغوا بها إلى السماء السابعة، فيقول ربّ العزة تبارك وتعالى: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۞ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۞ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين:١٩-٢١] فيكتب كتابه في عليين، ثم يقال: أعيدوه إلى الأرض، فإني وعدتهم أني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارةً أخرى.

وبعد تلك الرحلة العلوية السماوية، وكتابة اسمه في عليين، يُرَدُّ إلى الأرض، وتعاد روحه إلى جسده، فيسمع صوت نعال أصحابه، وهم مولين عنه، عائدين إلى بيوتهم.

وبعد عودة الروح إلى الجسد في القبر، والله أعلم بكيفية هذه العودة، فأحوال البرزخ ليست كأحوال الدنيا، يأتيه ملكان يصيحان به بشيء من الغلظة والفظاظة، ويجلسانه، ويسألانه أربعة أسئلة: يسألانه عن ربّه الذي كان يعبده في الحياة الدنيا، فيقولان له: من ربك؟ فيقول ربي الله، ثم يسألانه عن دينه، والدين هو المنهج الذي يُعَبِّدُ المرء للإله الذي كان يعبده، فيقول: ديني الإسلام، والسؤال الثالث سؤاله عن موقفه من الرسول الذي بعث في هذه الأمة، فيقول: هو رسول الله ﷺ ، والسؤال الرابع يسألانه فيه عن عمله في حياته الدنيا، فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به، وصدقت.

وهذه الأسئلة تمثل فتنة القبر، وهي الفتنة الأخيرة التي تُعرض على المؤمن، ولا ينفع في النجاح في تلك الفتنة الذكاء والخداع والتغشيش، ولو جلس الكافر يحفظ الأجوبة السديدة في الدنيا، فإنه لا يوفق إلى الإجابة السديدة، والموفق هو المؤمن الذي يثبته الله بإيمانه وعمله الصالح، فيحسن الجواب، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. لقد اختبر هذا العبد في قبره، فنجح في الاختبار، وهداه الله بإيمانه إلى الجواب السديد، وصدَّق حاله في الدنيا جوابه في القبر، وعند ذلك ينادي منادٍ من السماء بتصديقه فيما قاله وأخبر به، ويطلب فيه من الملائكة أن يحوّل قبره إلى روضة من رياض الجنة، (فينادي منادٍ من السماء، أن صدق عبدي، فأفرشوه من

الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من رَوْحِها وطيبها، ويفسح له في قبره مدّ بصره).

وبعد ذلك النداء العلوي يأتيه رجل أو يمثل له رجل، ذو وجه حسن، وثيابه حسنة، ورائحته طيبة، فيزف له البشرى التي تطمئن قلبه، وتهدئ روعه، (قال: ويأتيه [وفي رواية يمثل له] رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، أبشر برضوان من الله، وجنات فيها نعيم مقيم، هذا يومك الذي كنت توعد).

ويستعلم ذلك العبد من ذلك الرجل الذي يزف إليه تلك البُشَر، فيقول: (وأنت فبشرك الله بخير، من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير؟).

وتكون المفاجأة أن حامل البشرى هو العمل الصالح الذي كان يعمله في الحياة الدنيا، لقد غاب عنه المال والأهل والولد، وبقي معه عمله يحمل له البُشَر، ويؤنسه في قبره، فيقول له ذلك الذي مُثّل له رجلاً: (أنا عملك الصالح، فوالله ما علمتك إلا كنت سريعاً في إطاعة الله، بطيئاً في معصية الله، فجزاك الله خيراً).

ثم يبين الله الحال الذي كان سيؤول إليها يوم القيامة لو كان كافراً، والحال التي سيصير إليها في ذلك اليوم بإيمانه وصلاحه، (ثم يفتح له باب من الجنة، وباب من النار، فيقال: هذا منزلك لو عصيت الله، أبدلك الله به هذا).

إن العبد يعرف معرفة يقينية بمدى نعمة الله عليه عندما يرى النار يحطم بعضها بعضاً، وكيف كان حاله لو لم يهتد إلى الإسلام، ثمّ يرى مكانه في جنات النعيم.

وعندما ينظر ذلك العبد إلى ما ينتظره في دار الخلد، يطلب من ربّه أن يعجّل بقيام الساعة، ليحل في تلك الدار، وينعم بما أعدّه الله له فيها، فيقال له: اسكن، فلكل أجل كتاب، وحين يأتي الأجل يكون ما قدّر الله أن يكون.

ذلك ما يجري للعبد المؤمن منذ أن تنزل به سكرات الموت، وإلى أن يطلب منه أن يبقى ساكناً في قبره إلى حين الوقت المعلوم، أما العبد الكافر أو الفاجر عندما يقارب الخروج من الدنيا ودخول عالم الآخرة، تنزل عليه ملائكة من السماء على صورة ترعبه وتخيفه، فهم غلاظ شداد، سود الوجوه، فيجلسون منه مدّ بصره، ومعهم كفن من النار، وحنوط من النار، ويأتي ملك الموت، فيجلس عند رأسه، ويقول له: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب.

عند ذلك تفزع تلك الروح، وتتفرق في جسده، محاولة أن تهرب وتختبىء، عند ذلك ينتزع ملك الموت تلك الروح الخبيثة انتزاع السفود ذي الشعب الكثيرة من الصوف المبلول إذا أدخل فيه، والسفود هو الحديدة التي يشوى بها اللحم، فإنها إذا كانت ذات شعب وأدخلت الصوف المبلول لا تُنزع منه إلا بمشقة، ولا تنزع منه إلا إذا انتزع من ذلك الصوف بعضه، وفي هذا دلالة على شدة ما يعانيه الكافر في موته، ولذلك قال الرسول ﷺ في الحديث واصفاً حال ذلك الكافر أو الفاجر: (فتقطع معها العروق والعصب) وعند ذلك تلعنه الملائكة جميعهم، من كان منهم بين السماء والأرض، أو كان في السماء، وتغلق أبواب السماء في وجه تلك القاذورة النجسة، ويتوجس أهل كل باب أن يكون مروره من ناحيتهم، فيدعون الله أن يبعده عنهم.

وتأخذ الملائكة الذين يحضرون موته تلك الروح الخبيثة، فتزداد خبثاً بوضعها في تلك الأكفان التي جاؤوا بها من النار، وتنبعث منها الروائح الخبيثة النتنة الناشئة من الكفر والأعمال الضالة السيئة، فتتأذى الملائكة الذين تمرّ بهم تلك الروح، فيسألون عنها، فيقول الموكلون بحفظها: هذه روح فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا.

وعندما ينتهى بتلك الروح إلى السماء الدنيا، لا يؤذن لها بدخول السماء، فالسماء لا يدخلها إلا الأطهار أهل الإيمان والتُّقى، والكفرة الفجرة ليسوا بأهل لذلك التكريم، وقد قرأ الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وعند ذلك يأمر الحق تبارك وتعالى، أن يكتبوا كتابة في سجين في الأرض السفلى، وأن يعيدوه إلى الأرض، التي خلقهم منها، وسيعيدهم إليها، ثم يخرجهم منها تارةً أخرى يوم القيامة.

ثم يرمى بتلك الروح الخبيثة من السماء، فإنها ليست بأهل للتكريم والاحترام، فقد كانت في الدنيا تطرح دين الله جانباً، وتلقي بشرعه وراء ظهورها، فناسب أن لا تحمل ولا تُكرّم، وإنما تُلقى إلقاءً، وهذا ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١].

وتعاد الروح إلى الجسد، فيسمع قرع نعال أصحابه، وهم منصرفون عنه إلى بيوتهم، تاركيه إلى مصيره المحتوم، لا يملكون دفع الضر عنه، ولا

تخليصه مما يحيط به، لا فرق في ذلك بين ملك من الملوك وبين صعلوك من الصعاليك، لقد فقد الملوك ملكهم، والجبارون جبروتهم، والأثرياء ثرواتهم، والوجهاء أصدقاءهم، وغادر هؤلاء جميعاً، تاركين هؤلاء يقابلون مصيرهم المحتوم وحدهم. ثم يأتيه الملكان اللذان يفتنان الناس ويختبرانهم في قبورهم، فيسألانه عن الرب الذي كان يعبد، والدين الذي كان يدين به، والرسول الذي كان يقتدي به ويتأسى، فلا يدري، وفي كل ذلك يقول: هاه، هاه، لا أدري، فيقال له: لا دريت، أي: لا عرفت، ولا تلوت، أي: ولا اتبعت من يدري.

وعند ذاك ينادي منادٍ من السماء أن كذب عبدي، فأفرشوا له من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرّها وسمومها، ويُضيَّق عليه قبرُه حتى تختلف فيه أضلاعه.

ثم يمثل له عمله في صورة رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيبشره بالذي يسوؤه، ويقول له: هذا يومك الذي كنت توعد، أي الذي كان يَعِدُ الله به الكفرة الفجرة في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ.

وعندما يسأل العبد ذلك المبشِّر بالشر عن نفسه، يقول له: أنا عملك الخبيث، فوالله ما علمت إلا كنت بطيئاً عن طاعة الله، سريعاً إلى معصية الله، فجزاك الله شراً.

ثم يهيىء الله له من يقوم بتعذيبه في قبره، وهذا القائم بذلك أعمى لا يبصر، أصم لا يسمع، أبكم لا يتكلم، في يده مطرقة من حديد لو ضرب بها جبل لصار تراباً، فيضربه بها، فيصبح تراباً، ثم يعيده الله إلى ما كان، ليضرب مرة أخرى، وهكذا دواليك، وفي كل مرة يصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الإنس والجن.

ثم يرى مقعده في الجنة لو كان مؤمناً، ومقعده في النار الذي سيحل فيه بسبب كفره وضلاله، عند ذلك يدعو ربه أن لا يقيم الساعة، فإنه يرى من العذاب الآتي، ما يجعل عذابه في القبر – على شدته – أهون وأسهل منه في قبره، ويصبح قبره عليه روضة من رياض النار، نعوذ بالله من مصير أهل النار.

إن مسار كل من الأخيار والفجار مختلف في الدنيا، فكان المصير مختلفاً في الآخرة، وكل عبد سيأخذ أحد المسارين اللذين حدثنا عنهما الرسول ﷺ بدءاً من بداية الموت وإلى أن يأخذ المؤمنون أخذاتهم في الجنة، والكفار مقاعدهم في النار، والسعيد من وعظ فاتعظ، وعلم فتعلم، ونبّه فانتبه، ولم يبق سادراً في غيّه، غافلاً عن آخرته، مقصراً في حق نفسه، حتى يأتيه اليقين.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- مشروعية الجلوس لمن يشيع الجنازة حين حفر القبر، ودفن الميت، فقد جلس الرسول ﷺ وأصحابه لحين دفن الميت.

٢- بيان الحال التي كان عليها الرسول ﷺ حين علَّم أصحابه ما يكون عليه الميت بعد دفنه، فقد نكت بالعود الأرض، ورفع بصره وخفضه، وأمرهم بالاستعاذة من عذاب القبر، واستعاذ هو من عذاب القبر، ولا شك أن ما فعله الرسول ﷺ وقاله، له أثر في السامع، فالمتحدث يؤثر في السامع سمته، وحركته، وقوله.

٣- بيان الحال التي ينبغي أن يكون عليها طالب العلم مع معلمه، فقد كان الصحابة وهم حول الرسول ﷺ يعلمهم مما علّمه ربه ساكنين كأن الطير واقف فوق رؤوسهم، فهم لا يحركونها مخافة طيرانها عنهم.

٤- استحباب الموعظة عند القبر كما فعل الرسول ﷺ في عظة أصحابه، ولا شك أن الناس الذين يشيعون الميت مؤهلين لسماع الموعظة، فالميت الذي فارقهم، والموتى في المقابر كل ذلك يقرب العباد إلى الله، ويجعل الموعظة أكثر تأثيراً منها في المنازل والأسواق ونحوها.

٥- تلقين الميت الذي يفعله بعض المسلمين فعل مبتدع غير مشروع، فلم يلقن الرسول ﷺ صاحب تلك الجنازة، ولم يؤثر ذلك في حديث صحيح، وما ورد في الدلالة عليه لا يصح، والوارد هو الاستغفار للميت بعد الدفن والدعاء له بالتثبيت.

٦- استحباب التعوذ من عذاب القبر عند تشييع الجنائز، وأمر به الرسول ﷺ المصلي بعد أن يتم تشهده الآخر، والإكثار من الاستعاذة منه في غير هذين الموضعين مشروع.

٧- يرى الذي نزل به الموت الملائكة، المؤمن يراهم في صورة حسنة، والكافر في صورة مرعبة، وبعض الذين يكونون في سياق النزع يحدثون بما يرون.

٨- الذي يقوم بنزع الروح هو ملك الموت، ولملك الموت أعوان وأتباع يحضرون الموتى، يأتون معهم بأكفان وحنوط، فيجعلون الروح في تلك الأكفان وذلك الحنوط بعد قبض ملك الموت لها.

٩- الحال التي تقبض عليها نفس المؤمن ونفس الكافر، وما يكون من حالهما بعد نزع الروح، فهذا تصلي عليه الملائكة، وذاك تلعنه، وهذا يوضع في كفن وحنوط من الجنة، وذاك كفنه وحنوطه من النار، وهذا تخرج منه كأحسن نفحة مسك وجدت، وذاك تفوح منه أخبث الروائح، وهذا تفتح له أبواب السماء، وذلك تغلق في وجهه أبواب

السماء، وهذا كتابه في عليين، وذاك في سجين، وهذا يفتن فيُحسن الجواب وينادي بتصديقه منادٍ من السماء، وذاك يضل عن الجواب، وينادى بتكذيبه من السماء، وهذا يصبح قبره روضة من رياض الجنة، ويوسع له في قبره، وينور له فيه، ويأتيه عمله يبشره ويؤنسه، وذلك يكون قبره روضة من رياض النار، ويضيق عليه في قبره، ويصبح كله ظلمة، ويبشره عمله بالنار وغضب الجبار، وهذا يتمنى قيام الساعة عندما يريه الله مصيره في الجنة، وذاك يدعو بعدم إقامتها عندما يرى ما ينتظره في النار.

١٠- الحيوانات تسمع أصوات المعذبين في قبورهم، وقد صحّت في ذلك جملة من الأحاديث.

١١- تمثل الأعمال في صورة رجال تحسن الخطاب، المؤمن يبشره عمله بالخير، والكافر يبشره بالشر.

١٢- كتاب المؤمنين في عليين في السماء السابعة، وكتاب الكفرة في سجين، في الأرض السابعة.

١٣- الأرضون سبع، والسموات سبع.

١٤- فيه إثبات عذاب القبر وفتنة القبر، وقد صحت في ذلك أحاديث، وهي متواترة تواتراً معنوياً، وفي القرآن إشارات إلى ذكر هذه الحقيقة، والإيمان بذلك من الغيب الذي صحّت به النصوص، والذي مدح الله المؤمنين المصدقين به، ويخشى على من كذب بعذاب القبر وفتنته أن يكون مكذباً للرسول ﷺ في خبره.

* * *



القِصّةُ الخامِسَةُ والثّلاثُون
نبأ اجتياح التتر للعالم الإسلامي

تمهيد

هذا الحديث ينبئ عن واقعة عظيمة، وفتنة استطال شرّها واستطار، اجتاحت العالم الإسلامي، وهي ما عُرف بفتنة التتار، وقد أغرق التتار العالم الإسلامي في بحار من دماء، وأوسعوه قتلاً ونهباً وحرقاً وتشريداً، ثم استوعب المسلمون الصدمة الكبرى التي أحدثها التتار، فأخذوا لهم أهبتهم، وأعدوا لهم العدة، فأطاحوا بهم، فخرجوا من ديار المسلمين مهزومين، وقطع دابر القوم الذي كفروا، والله غالب على أمره، والحمد لله رب العالمين.

نص الحديث

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : (لا تَقومُ الساعةُ حتَّى تُقاتِلوا التُّركَ، صِغارَ الأعيُنِ، حُمرَ الوجوهِ، ذُلْفَ الأنوفِ كأنَّ وجوهَهُم المَجانُّ المُطْرَقَةُ، ولا تقومُ الساعةُ حتى تقاتلوا قوماً نِعالُهمُ الشعرُ).

تخريج الحديث

رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب قتال الترك، ورقمه: [٢٩٢٨]. ورواه مسلم في كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، ورقمه: [٢٩١٢].

غريب الحديث

المَجَانُ المُطْرَقة : المجان بفتح الميم جمع مجن، وهو الترس، والمُطْرَقة، بإسكان الطاء وتخفيف الراء، يقال: طَرَّقْتُ الترس إذا خصفته على جلد آخر فوقها، شبَّه وجوه الترك في عرضها وتنور وجناتها بالترسة المطرقة، أي: أنهم غلاظ الوجوه عراضها.

ذلف الأنوف : صغار الأنوف، والعرب تقول: أملح النساء الأذلف [فتح الباري: ٦/ ١٢٨].

يلبسون الشعر : ينتعلون الشعر، كما صرّح به في الرواية الأخرى.

شرح الحديث

هذا الحديث خبر من الرسول ﷺ عن قتال المسلمين للترك، وهو لا يُشَكِّل قصةً في ذاته، ولكن هذا الخبر وقع كما أخبر به الرسول ﷺ ، وكان القتال الذي جرى بينهم وبين المسلمين قصة من أعظم القصص كما سيأتي بيانه، ومن أجل ذلك أدخلناه في هذا الكتاب.

والحديث الذي أوردناه في غاية الصراحة والوضوح في أننا سنقاتل الترك في آخر الزمان بين يدي الساعة، فقد سماهم الرسول ﷺ باسمهم «الترك» ووصفهم بصفاتهم «صغار الأعين، حمر الوجوه، ذلف الأنوف، كأن وجوههم المجان المطْرَقة».

وهؤلاء هم الذين قاتلهم المسلمون عندما اجتاحوا العالم الإسلامي بقيادة ملكهم جنكيزخان ابتداءً من سنة [٦١٦] للهجرة، وذكرهم علماء

المسلمين من المؤرخين والمحدثين والمفسرين، وبلادهم التي منها خرجوا هي الصين.

وقد أدخل فيهم بعض العلماء غيرهم، للتقارب بينهم وبين الترك في بعض الصفات، ففي حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا خوزاً وكرمان من الأعاجم، حمر الوجوه، فطس الأنوف، صغار الأعين، وجوههم المجان المطرقة» [البخاري: ٣٥٩٠، ومسلم: ٢٩١٢].

وهذا الحديث وصفَ القومَ الذين نقاتلهم بوصف قريب من الوصف الذي وصف به الترك، فهم «حمر الوجوه، صغار الأعين، كأنَّ وجوههم المجان المطرقة» ولكنه وصفهم بأنهم فطس الأنوف. والفَطَسُ في الأنف انخفاض في قصبة الأنف وتطامنها وانتشارها، والاسم الفَطَسَة، لأنها كالعاهة [راجع: لسان العرب: ٢/ ١١١٠].

أما قوله: (الذلف) الذي وصف به الترك فهو قصر الأرنبة، واستواء في القصبة من غير نتوء، والذلف فيه جمال وملاحة [لسان العرب بتصرف واختصار: ١/ ١٠٧٤].

ولأجل الصفات المشتركة بين هذين القومين، فسّر بعض أهل العلم الذلف بالفطس، وليس الأمر كذلك، ثم الذلف في الأنف عند العرب جمال وملاحة، والفطس شبيه بالعيب، وقد يرى فيه بعضهم قباحة.

وأوضح ما يدل على أنهما قومان أن فطس الأنوف كما في حديث البخاري هم أهل خوز وكرمان، وهؤلاء ليسوا من الترك جزماً.

وخوز وكرمان – كما يقول ابن حجر - : من بلاد الأهواز، وهي من عراق العجم، وقيل: الخوز صنف الأعاجم، وأما كرمان فبلدة مشهورة من بلاد العجم بين خراسان وبحر الهند.

ومن تأمل في الأحاديث الواردة في وصف المقاتلين فإنه يظهر له بجلاء أنهم أمّتان لا أمة واحدة، وصنفان لا صنف واحد.

والذي يعنينا في هذا الموضع هو قتال الترك للمسلمين فهم الذين جرى بينهم وبين المسلمين أهوال عظام، وأفسدوا في ديار المسلمين فساداً لم يجرِ على أحد قبلهم مثله، وقد لا يجري على أحد بعدهم مثله، إلا أن يشاء الله.

وقد تحدَّث علماء الإسلام الذين عاصروا خروج التتار عن قتال التتار، وأخبروا عن رؤيتهم ما وصفه رسول الله ﷺ في القوم الذين اجتاحوهم وقاتلوهم.

ومن هؤلاء النووي الذي حدثنا أن قتال الترك كان جارٍ في الوقت الذي كان يؤلف فيه شرحه لمسلم، ويتحدث فيه عن الحديث الذي أخبر الرسول ﷺ فيه عن قتالنا للترك، وفي ذلك يقول: «وهذه كلها معجزات لرسول الله ﷺ ، فقد وجد قتال هؤلاء الترك بجميع صفاتهم التي ذكرها ﷺ (صغار الأعين، حمر الوجوه، ذلف الأنف، عراض الوجوه، كأن وجوههم المجان المطرقة، ينتعلون الشعر) فوجدوا بهذه الصفات كلها في زماننا، وقاتهلم المسلمون مرات، وقتالهم الآن» [شرح النووي على مسلم: ١٨/ ٣٥٦].

وأورد القرطبي الأحاديث الواردة في قتال الترك، ثم قال: «والحديث الأول يدل على خروجهم وقتالهم المسلمين وقتلهم، وقد وقع ذلك على نحو ما أخبر ﷺ ، فخرج منهم في هذا الوقت، لا [يحمينا] إلا الله، ولا يردّهم عن المسلمين إلا الله، حتى كأنهم يأجوج ومأجوج أو مقدمتهم» [التذكرة: ٢/ ٤٢٨].

ونقل القرطبي عن ابن دحية أن خروجهم كان في [٦١٧] للهجرة، والصواب ما ذكره ابن كثير أنه في سنة [٦١٦هـ] كما سيأتي ذكره.

ونقل القرطبي عن ابن دحية ما فعلوه بالعالم الإسلامي، فقد اجتاحوا بلاد خراسان، وخرّبوا بيوت مدينة نشاور، ثم أحرقوها، وقتلوا أهل مدن أخرى، ثم أهلكوها بإغراقها بالنهر الجاري قربها، وأنهم وصلوا إلى بلاد قهستان، فخرّبوا مدن الري وقزوين وأبهر وزنجان، ومدينة أردبيل ومدينة مراغة كرسي بلاد أذربيجان، واستأصلوا شأفة من في تلك البلاد من العلماء والأعيان، واستباحوا قتل النساء وذبح الأولاد، ومدّ ابن دحية النفس في وصف ما فعله الترك بالمسلمين قتلاً وتخريباً وتحريقاً، إلى أن أتى على تدميرهم بغداد، وختم ما ذكره بما كان من قتال العساكر المصرية لهم بقيادة قطز، وانتصاره عليهم في معركة عين جالوت. [التذكرة: ٤٢٩].

وذكر ابن كثير أن بداية خروجهم كان في سنة (٦١٦هـ) فقال: «وفيها عبرت التتار نهر جيحون صحبة ملكهم جنكزخان، وكانوا يسكنون جبال طمغاج من أرض الصين، ولغتهم مخالفة للغة سائر التتار» [البداية والنهاية: ٣/ ٨٢]. والسبب في خروجهم «أن جنكزخان بعث تجاراً له، ومعهم أموال كثيرة إلى بلاد خوارزم شاه يبتضعون له ثياباً للكسوة، فكتب نائبها إلى خوارزم شاه يذكر له ما معهم من كثرة الأموال، فأرسل إليه أن يقتلهم ويأخذ ما معهم، ففعل ذلك». فلما بلغ جنكزخان خبرهم أرسل يتهدد خوارزم شاه، ولم يكن ما فعله خوارزم شاه فعلاً جيداً.

فلما تهدده أشار من أشار على خوارزم شاه بالمسير إليهم، فسار إليهم وهم في شغل شاغل بقتال كشلى خان، فنهب خوارزم شاه أموالهم وسبى

ذراريهم وأطفالهم، فأقبلوا إليه محروبين فاقتتلوا معه أربعة أيام قتالاً لم يسمع بمثله، أولئك يقاتلون عن حريمهم والمسلمون عن أنفسهم، ويعلمون أنهم متى ولوا استأصلوهم، فقتل من الفريقين خلق كثير، حتى إن الخيول كانت تزلق في الدماء، وكان جملة من قتل من المسلمين نحواً من عشرين ألفاً، ومن التتار أضعاف ذلك.

ثم تحاجز الفريقان وولَّى كل منهم إلى بلاده، ولجأ خوارزم شاه وأصحابه إلى بخارى وسمرقند فحصنها، وبالغ في كثرة من ترك فيها من المقاتلة، ورجع إلى بلاده ليجهز الجيوش الكثيرة.

فقصدت التتار بخارى وبها عشرون ألف مقاتل فحاصرها جنكزخان ثلاثة أيام، فطلب منه أهلها الأمان فأمنهم، ودخلها فأحسن السيرة فيهم مكراً وخديعة، وامتنعت عليه القلعة، فحاصرها واستعمل أهل البلد في طم خندقها، وكانت التتار يأتون بالمنابر والربعات فيطرحونها في الخندق يطمونه بها، ففتحوها قسراً في عشرة أيام، فقتل من كان بها، ثم عاد إلى البلد فاصطفى أموال تجارها وأحلّها لجنده، فقتلوا من أهلها خلقاً لا يعلمهم إلا الله عز وجل.

وأسروا الذرية والنساء، وفعلوا معهن الفواحش بحضرة أهليهن، فمن الناس من قاتل دون حريمه حتى قتل، ومنهم من أسر فعذب بأنواع العذاب، وكثر البكاء والضجيج بالبلد من النساء والأطفال والرجال، ثم ألقت التتار النار في دور بخارى ومدارسها ومساجدها فاحترقت حتى صارت بلاقع خاوية على عروشها، ثم كروا راجعين عنها قاصدين سمرقند.

وذكر ابن كثير في أحداث سنة (٦١٧هـ) أنه عمّ البلاء في تلك السنة، وعظم العزاء بجنكزخان المسمى بتموجين لعنه الله تعالى، ومن معه من

التتار، قبحهم الله أجمعين، واستفحل أمرهم، واشتد إفسادهم من أقصى بلاد الصين إلى أن وصلوا بلاد العراق وما حولها، حتى انتهوا إلى إربل وأعمالها، فملكوا في سنة واحدة وهي هذه السنة سائر الممالك إلا العراق والجزيرة والشام ومصر، وقهروا جميع الطوائف التي بتلك النواحي الخوارزمية والقفجاق والكرج واللان والخزر وغيرهم، وقتلوا في هذه السنة من طوائف المسلمين وغيرهم في بلدان متعددة كبار ما لا يحد ولا يوصف.

وبالجملة فلم يدخلوا بلداً إلا قتلوا جميع من فيه من المقاتلة والرجال، وكثيراً من النساء والأطفال، وأتلفوا ما فيه بالنهب إن احتاجوا إليه، وبالحريق إن لم يحتاجوا إليه، حتى إنهم كانوا يجمعون الحرير الكثير الذي يعجزون عن حمله فيطلقون فيه النار، وهم ينظرون إليه، ويخربون المنازل، وما عجزوا عن تخريبه يحرقونه، وأكثر ما يحرقون المساجد والجوامع، وكانوا يأخذون الأسارى من المسلمين فيقاتلون بهم، ويحاصرون بهم، وإن لم ينصحوا في القتال قتلوهم.

وقد بسط ابن الأثير في كامله خبرهم في هذه السنة بسطاً حسناً مفصلاً، وقدّم على ذلك كلاماً هائلاً في تعظيم هذا الخطب العجيب، قال فنقول: «هذا فصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى، التي عقمت الليالي والأيام عن مثلها، عمّت الخلائق وخصّت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم منذ خلق الله آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا يدانيها.

ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعل بخت نصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب بيت المقدس، وما بيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب

هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس، وما بنو إسرائيل بالنسبة لما قتلوا، فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلائق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج، وأما الدجال فإنه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه، وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا الرجال والنساء والأطفال، وشقّوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة.

فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، لهذه الحادثة التي استطار شررها وعمّ ضررها، وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح، فإن قوماً خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغون، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهما، فيملكونها ويفعلون بأهلها ما نذكره، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكاً وتخريباً وقتلاً ونهباً، ثم يجاوزونها إلى الري وهمذان وبلد الجبل وما فيه من البلاد إلى حد العراق، ثم يقصدون بلاد أذربيجان وأرانية ويخربونه ويقتلون أكثر أهلها، ولم ينج منهم إلا الشريد النادر في أقل من سنة، هذا ما لم يسمع بمثله.

ثم ساروا إلى دربند شروان فملكوا مدنه، ولم يسلم غير قلعته التي بها ملكهم، وعبروا عندها إلى بلد اللان اللكز ومن في ذلك الصقع من الأمم المختلفة، فأوسعوهم قتلاً ونهباً وتخريباً، ثم قصدوا بلاد قفجاق وهم من أكثر الترك عدداً، فقتلوا كل من وقف لهم، وهرب الباقون إلى الغياض، وملكوا عليهم بلادهم.

وسارت طائفة أخرى إلى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها مثل أفعال هؤلاء وأشد، هذا ما لم يطرق

الأسماع مثله، فإن الإسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في سنة واحدة، إنما ملكها في نحو عشر سنين، ولم يقتل أحداً بل رضي من الناس بالطاعة، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأطيبه وأحسنه عمارة وأكثره أهلاً وأعدلهم أخلاقاً وسيرة في نحو سنة، ولم يتفق لأحد من أهل البلاد التي لم يطرقوها بقاء إلا وهو خائف مترقب وصولهم، وهم مع ذلك يسجدون للشمس إذا طلعت، ولا يحرمون شيئاً، ويأكلون ما وجدوه من الحيوانات والميتات لعنهم الله تعالى.

ثم شرع في تفصيل ما ذكره مجملاً، فذكر أولاً ما قدمنا ذكره في العام الماضي من بعث جنكزخان أولئك التجار بمال له ليأتونه بثمنه كسوة ولباساً، وأخذ خوارزم شاه تلك الأموال، فحنق عليه جنكزخان، وأرسل يهدده فسار إليه خوارزم شاه بنفسه وجنوده، فوجد التتار مشغولين بقتال كشلى خان، فنهب أثقالهم ونسائهم وأطفالهم فرجعوا وقد انتصروا على عدّوهم، وازدادوا حنقاً وغيظاً، فتواقعوا هم وإياه وابن جنكزخان ثلاثة أيام فقتل من الفريقين خلق كثير.

ثم تحاجزوا ورجع خوارزم شاه إلى أطراف بلاده فحصّنها، ثم كرّ راجعاً إلى مقره ومملكته بمدينة خوارزم شاه، فأقبل جنكزخان فحصر بخارى كما ذكرنا فافتتحها صلحاً وغدر بأهلها حتى افتتح قلعتها قهراً وقتل الجميع، وأخذ الأموال وسبى النساء والأطفال وخرب الدور والمحال، وقد كان بها عشرون ألف مقاتل، فلم يغن عنهم شيئاً.

ثم سار إلى سمرقند فحاصرها في أول المحرم من هذه السنة، وبها خمسون ألف مقاتل من الجند فنكلوا، وبرز إليهم سبعون ألفاً من العامة،

فقتل الجميع في ساعة واحدة، وألقى إليه الخمسون ألف السَّلم فسلبهم سلاحهم، وما يمتنعون به، وقتلهم في ذلك اليوم، واستباح البلد، فقتل الجميع وأخذ الأموال، وسبى الذرية، وحرقه وتركه بلاقع، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وأقام لعنه الله هنالك وأرسل السرايا إلى البلدان، فأرسل سرية إلى بلاد خراسان، وتسميها التتار المغربة، وأرسل أخرى وراء خوارزم شاه، وكانوا عشرين ألفاً، قال: اطلبوه، فأدركوه ولو تعلق بالسماء، فساروا وراءه فأدركوه وبينهم وبينه نهر جيحون وهو آمن بسببه، فلم يجدوا سفناً، فعملوا لهم أحواضاً يحملون عليها الأسلحة، ويرسل أحدهم فرسه، ويأخذ بذنبها فتجرّه الفرس بالماء، وهو يجر الحوض الذي فيه سلاحه، حتى صاروا كلهم في الجانب الآخر.

فلم يشعر بهم خوارزم شاه إلا وقد خالطوه، فهرب منهم إلى نيسابور، ثم منها إلى غيرها، وهم في أثره لا يمهلونه يجمع لهم، فصار كلما أتى بلداً ليجتمع فيه عساكره يدركونه، فيهرب منهم، حتى ركب في بحر طبرستان، وسار إلى قلعة في جزيرة فيه فكانت فيها وفاته، وقيل: إنه لا يعرف بعد ركوبه في البحر ما كان من أمره، بل ذهب فلا يدرى أين ذهب، ولا إلى أي مفر هرب.

وملكت التتار حواصله فوجدوا في خزانته عشرة آلاف ألف دينار، وألف حمل من الأطلس وغيره، وعشرون ألف فرس وبغل، ومن الغلمان والجواري والخيام شيئاً كثيراً، وكان له عشرة آلاف مملوك كل واحد مثل ملك، فتمزق ذلك كله.

وقد كان خوارزم شاه فقيهاً حنفياً فاضلاً، له مشاركات في فنون من العلم، يفهم جيداً، وملك بلاداً متسعة وممالك متعددة إحدى وعشرين سنة وشهوراً، ولم يكن بعد ملوك بني سلجوق أكثر حرمة منه، ولا أعظم ملكاً منه، لأنه إنما كانت همّته في المُلك لا في اللذات والشهوات، ولذلك قهر الملوك بتلك الأراضي، وأحلّ بالخطا بأساً شديداً، حتى لم يبق ببلاد خراسان وما وراء النهر وعراق العجم وغيرها من الممالك سلطان سواه، وجميع البلاد تحت أيدي نوابه.

ثم ساروا إلى مازندران، وقلاعها من أمنع القلاع، بحيث إن المسلمين لم يفتحوها إلا في سنة تسعين من أيام سليمان بن عبدالملك، ففتحها هؤلاء في أيسر مدة، ونهبوا ما فيها، وقتلوا أهاليها كلهم، وسبوا وأحرقوا، ثم ترحلوا عنها نحو الري، فوجدوا في الطريق أم خوارزم شاه ومعها أموال عظيمة جداً، فأخذوها وفيها كل غريب ونفيس مما لم يشاهد مثله من الجواهر وغيرها.

ثم قصدوا الري، فدخلوها على حين غفلة من أهلها، فقتلوهم وسبوا وأسروا، ثم ساروا إلى همذان فملكوها، ثم إلى زنجان فقتلوا وسبوا، ثم قصدوا قزوين فنهبوها، وقتلوا من أهلها نحواً من أربعين ألفاً، ثم تيمموا بلاد أذربيجان فصالحهم ملكها أزبك بن البهلوان على مال حمله إليهم لشغله بما هو فيه من السكر، وارتكاب السيئات، والانهماك على الشهوات، فتركوه وساروا إلى موقان فقاتلهم الكرج في عشرة آلاف مقاتل، فلم يقفوا بين أيديهم طرفة عين حتى انهزمت الكرج، فأقبلوا إليهم بحدّهم وحديدهم، فكسرتهم التتار وقعة ثانية أقبح هزيمة وأشنعها».

وههنا قال ابن الأثير: «ولقد جرى لهؤلاء التتر ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه، طائفة تخرج من حدود الصين لا تنقضي عليهم سنة حتى يصل بعضهم إلى حدود بلاد أرمينية من هذه الناحية، ويجاوزون العراق من ناحية همذان، والله لا أشك أن مَنْ يجيء بعدنا إذا بعد العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها ويستبعدها، والحق بيده، فمتى استبعد ذلك فلينظر أننا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ في أزماننا هذه في وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة، قد استوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها، يسر الله للمسلمين والإسلام من يحفظهم ويحوطهم، فلقد دفعوا من العدو إلى أمر عظيم، ومن الملوك المسلمين إلى من لا تتعدى همّته بطنه وفرجه، وقد عدم سلطان المسلمين خوارزم شاه.

قال: وانقضت هذه السنة وهم في بلاد الكرج، فلما رأوا منهم ممانعة ومقاتلة يطول عليهم بها المطال عدلوا إلى غيرهم، وكذلك كانت عادتهم، فساروا إلى تبريز فصالحهم أهلها بمال. ثم ساروا إلى مراغة فحصروها ونصبوا عليها المجانيق وتترسوا بالأسارى من المسلمين، وعلى البلد امرأة، ولن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة، ففتحوا البلد بعد أيام، وقتلوا من أهله خلقاً لا يعلم عدّتهم إلا الله عز وجل، وغنموا منه شيئاً كثيراً، وسبوا وأسروا على عادتهم لعنهم الله لعنة تدخلهم نار جهنم، وقد كان الناس يخافون منهم خوفاً عظيماً جداً حتى إنه دخل رجل منهم إلى درب من هذه البلد وبه مائة رجل لم يستطع واحد منهم أن يتقدم إليه، وما زال يقتلهم واحداً بعد واحد حتى قتل الجميع، ولم يرفع منهم أحد يده إليه، ونهب ذلك الدرب وحدَه.

ودخلت امرأة منهم في زي رجل (بيتاً) فقتلت كل من في ذلك البيت وحدها، ثم استشعر أسير معها أنها امرأة فقتلها لعنها الله، ثم قصدوا مدينة إربل فضاق المسلمون لذلك ذرعاً، وقال أهل تلك النواحي هذا أمر عصيب.

ثم سار التتار إلى ناحية همذان فصالحهم أهلها، وترك عندهم التتار شحنة، ثم اتفقوا على قتل شحنتهم، فرجعوا إليهم فحاصروهم، حتى فتحوها قسراً وقتلوا أهلها عن آخرهم، ثم ساروا إلى أذربيجان ففتحوا أردبيل، ثم تبريز، ثم إلى بيلقان فقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً وجماً غفيراً.

وحرّقوها وكانوا يفجرون بالنساء، ثم يقتلونهن، ويشقون بطونهن عن الأجنة، ثم عادوا إلى بلاد الكرج، وقد استعدت لهم الكرج، فاقتتلوا معهم، فكسروهم أيضاً كسرة فظيعة، ثم فتحوا بلداناً كثيرة يقتلون أهلها، ويسبون نساءها، ويأسرون من الرجال ما يقاتلون بهم الحصون، يجعلونهم بين أيديهم ترساً يتقون بهم الرمى وغيره، ومن سلم منهم قتلوه بعد انقضاء الحرب.

ثم ساروا إلى بلاد اللان والقبجاق فاقتتلوا معهم قتالاً عظيماً، فكسروهم، وقصدوا أكبر مدائن القبجاق وهي مدينة سوداق، وفيها من الأمتعة والثياب والتجائر من البرطاسى والقندر والسنجاب شيء كثير جداً.

ولجأت القبجاق إلى بلاد الروس، وكانوا نصارى فاتفقوا معهم على قتال التتار، فالتقوا معهم، فكسرتهم التتار كسرة فظيعة جداً.

ثم ساروا نحو بلقار في حدود العشرين وستمائة، ففرغوا من ذلك كله، ورجعوا نحو ملكهم جنكزخان لعنه الله وإياهم. هذا ما فعلته هذه السرية

المغرّبة، وكان جنكزخان قد أرسل سرية في هذه السنة إلى كلانة، وأخرى إلى فرغانة فملكوها، وجهّز جيشاً آخر نحو خراسان، فحاصروا بلخ فصالحهم أهلها، وكذلك صالحوا مدناً كثيرة أخرى، حتى انتهوا إلى الطالقان فأعجزتهم قلعتها، وكانت حصينة فحاصروها ستة أشهر حتى عجزوا، فكتبوا إلى جنكزخان فقدم بنفسه، فحاصرها أربعة أشهر أخرى حتى فتحها قهراً، ثم قتل كل من فيها، وكل من في البلد بكماله خاصة وعامة.

ثم قصدوا مدينة مرو مع جنكزخان فقد عسكر بظاهرها نحو من مائتي ألف مقاتل من العرب وغيرهم، فاقتتلوا معه قتالاً عظيماً حتى انكسر المسلمون فإنا لله وإنا إليه راجعون، ثم حصروا البلد خمسة أيام، واستنزلوا نائبها خديعة، ثم غدروا به وبأهل البلد، فقتلوهم، وغنموهم، وسلبوهم، وعاقبوهم بأنواع العذاب، حتى إنهم قتلوا في يوم واحد سبعمائة ألف إنسان، ثم ساروا إلى نيسابور ففعلوا فيها ما فعلوا بأهل مرو، ثم إلى طوس، فقتلوا وخرّبوا مشهد علي بن موسى الرضا سلام الله عليه وعلى آبائه، وخرّبوا تربة الرشيد الخليفة فتركوه خراباً.

ثم ساروا إلى غزنة فقاتلهم جلال الدين بن خوارزم شاه فكسرهم، ثم عادوا إلى ملكهم جنكزخان لعنه الله وإياهم، وأرسل جنكزخان طائفة أخرى إلى مدينة خوارزم، فحاصروها حتى فتحوا البلد قهراً، فقتلوا من فيها قتلاً ذريعاً، ونهبوها، وسبوا أهلها، وأرسلوا الجسر الذي يمنع ماء جيحون منها فغرقت دورها، وهلك جميع أهلها.

ثم عادوا إلى جنكزخان وهو مخيم على الطالقان، فجهز منهم طائفة إلى غزنة، فاقتتل معهم جلال الدين بن خوازم شاه فكسرهم جلال الدين

كسرة عظيمة، واستنقذ منهم خلقاً من أسارى المسلمين، ثم كتب إلى جنكزخان يطلب منه أن يبرز بنفسه لقتاله، فقصده جنكزخان فتواجها، وقد تفرّق على جلال الدين بعض جيشه ولم يبقَ بدّ من القتال، فاقتتلوا ثلاثة أيام لم يعهد قبلها مثلها من قتالهم، ثم ضعفت أصحاب جلال الدين، فذهبوا، فركبوا بحر الهند، فسارت التتار إلى غزنة فأخذوها بلا كلفة ولا ممانعة، كل هذا أو أكثره وقع في هذه السنة.

وقد كان هذا الذي فعله التتار بالمسلمين عذاباً سلطه عليهم بسبب بُعدهم عن ربهم، واشتغالهم بالدنيا، وكثرة اعتنائهم بالأموال والشهوات، واقتتالهم واحترابهم فيما بينهم.

ومن جملة الأسباب لوقوع هذه الأهوال جهل المسلمين بدينهم، وخاصة أحاديث الفتن التي تقع في مستقبل الأيام، ففيها من التوجيه والنصح ما ينجي المسلمين من البلاء العظيم، فلو كان مع الملك خوارزم شاه من العلماء من نبهه إلى ما صحّ عن الرسول ﷺ أنه نهى أمته عن التعرض للترك، وأمر بتركهم ما تركونا، ففي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: (دعوا الحبشة ما وَدَعُوكم، واتركوا الترك ما تركوكم) [صحيح أبي داود: ٣٦١٥، وصحيح النسائي: ٣١٧٦. وإسناده حسن كما ذكر الألباني].

فالملك خوارزم شاه قتل تجار التتار، وما كان التجار ليقتلوا، وعندما أرسل ملكهم جنكزخان يستعلم منه عن ذلك، وهل كان ذلك برضاه قتل الرسل، والرسل لا تُقتل في شريعتنا، ثم استشار أصحابه، فأشاروا عليه بغزوهم وقتالهم، وما كان فيهم أهل علم يبينون له أن الرسول ﷺ أمرنا أن نتركهم ما تركونا، فوقع ما وقع، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعملون.

وقد انتصر المسلمون على التتار بقيادة قطز في عين جالوت فيما بعد، ثم كانت الحرب بينهم وبين المسلمين سجالاً، وانتهى أمرهم بعودة قسم منهم إلى ديارهم، وأسلم كثير منهم، وأصبحوا من جند الإسلام.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- إخبار الرسول ﷺ بقتال المسلمين الترك، ووصفه لهؤلاء الذين نقاتلهم، ووقوع ذلك مطابقاً لما أخبر به الرسول ﷺ في سنة [٦١٦هـ].

٢- جهل المسلمين بأحاديث الفتن والملاحم جرّ هذا البلاء الذي تحدثنا عنه على المسلمين، وكان الواجب أن نترك الترك ما تركونا، ولا نتعرض لهم على النحو الذي فعله خوارزم شاه، وهذا يدل على عظم جريرة الذين يستهينون بأحاديث الفتن، ظانين أن العلم بها وتعليمها من الترف العلمي الذي لا ينبغي الاعتناء به.

٣- عظم مصاب المسلمين في اجتياح التتار للعالم الإسلامي، وما أوقعه التتار بأهل الإسلام، مما يعد أعظم ما أصاب المسلمين، أو من أعظمه، وما ذلك إلا لابتعاد المسلمين عن دينهم.

٤- ربط بعض التتار خيولهم بسواري المساجد كما أخبر الرسول ﷺ بذلك.

٥- إخبار الرسول ﷺ بأن المسلمين سينتصرون على الترك في نهاية المطاف، حتى لا يصيبهم الوهن، ولا يستسلموا لعدوّهم، وهذا ما وقع فعلاً.

* * *

القصة السادسة والثلاثون
لا تؤذيه قاتلك الله

تمهيد

أعلمنا الرسول ﷺ في هذا الحديث بما تقوله زوجة العبد الصالح من الحور العين للزوجة في الدنيا حينما تؤذي هذا العبد الذي هو زوجها.

نص الحديث

عن معاذ بن جبل، عن رسول الله ﷺ ، قال: (لاَ تُؤْذِي امرأة زَوْجَهَا في الدُّنْيَا إلاّ قَالَتْ زَوْجَته مِنَ الحُورِ العِينِ: لاَ تُؤْذِيه قَاتَلَكِ الله ، فإنّما هُوَ دَخِيلٌ عِنْدَكِ، يُوشِكُ أنْ يُفَارِقَكِ إلينا).

تخريج الحديث

قال الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى في تخريجه: [سلسلة الأحاديث الصحيحة: ١/ ١٢٤، ورقمه: ١٧٣]: «أخرجه الترمذي (١١٧٤) بشرح التحفة، وابن ماجه (٢٠١٤)، وأحمد (٢٢١٠١)، ونقل الألباني توثيقه عن أحمد وابن معين والبخاري وغيرهم في رواية إسماعيل بن عياش عن الشاميين، وهذه منها». (باختصار).

غريب الحديث

دخيل : كالضيف والنزيل.

يوشك : يقرب.

شرح الحديث

في هذا الحديث إنذار للزوجات المؤذيات في الدنيا، فقد أخبر الرسول ﷺ أن العبد الصالح عندما تؤذيه زوجته في الدنيا، تطلع زوجته من الحور العين على أذيتها له، فتقول لها مقرّعة: لا تؤذيه قاتلك الله، فإنما هو عندك بمثابة الضيف، والضيف في واقع الأمر لا يطول مقامه، فهو غريب عن الدار، وقلبه يحن إلى منزله وأهله، والمؤمن منزله الجنة، وأهله فيها.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- يطلع الله الزوجات من الحور العين على حال أزواجهن في الدنيا.

٢- فيه ما تقوله الزوجة من الحور العين للزوجة المؤذية لزوجها في الدنيا.

٣- العبد المؤمن سريعاً ما يرتحل إلى جنة الخلد، وفيها مقامه وأهله.

٤- في الحديث ترهيب للزوجات اللواتي يؤذين أزواجهنّ الصالحين.

* * *

القِصَّةُ السَّابِعَةُ وَالثَّلاثُونَ
كيف أنت إذا غرقت أحجار الزيت بالدم

تمهيد

يرشد الرسول ﷺ أصحابه وأمّته من بعده في هذا الحديث كيف يتصرفون عندما تغلو القبور وترتفع أثمانها، وعندما تثور الفتن، ويرتفع عجاجها.

نصّ الحديث

عن أبي ذرٍّ، قال: قال لي رسول الله ﷺ : (يا أبا ذرٍّ) قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، فذكر الحديث، قال فيه: (كيف أنتَ إذا أصاب الناسَ موتٌ يكون البيتُ فيه بالوصيف؟) [يعني القبرَ]. قلت: الله ورسولُه أعلم، أو قال: ما خارَ الله لي ورسولُه، قال: «عليكَ بالصبرِ» أو قال: «تَصْبِرُ».

ثم قال لي: (يا أبا ذرٍّ) قلت: لبيك وسَعْدَيْكَ، قال: (كيف أنتَ إذا رأيت أحْجارَ الزيت قد غرقَتْ بالدم؟)، قلت: ما خارَ الله لي ورسولُه، قال: (عليكَ بمَنْ أنتَ منه)، قلت: يا رسول الله ، أفلا آخُذُ سيفي وأضَعُه على عاتقي؟ قال: (شاركْتَ القومَ إذنْ)، قلت: فما تأمرني؟ (تلزمُ بيتَكَ) قلت: فإن دُخِلَ عليَّ بيتي؟ قال: (فإن خَشيتَ أن يَبْهَرَكَ شُعاعُ السيفِ فألْقِ ثوبَكَ على وجهِكَ يَبُوءُ بإثمِكَ وإثمِهِ).

تخريج الحديث

رواه أبو داود في سننه في كتاب الفتن والملاحم، باب في النهي عن السعي في الفتنة، ورقمه: (٤٢٦١).

غريب الحديث

يكون البيت فيه بالوصيف : الوصيف: الخادم، يريد أن الناس يشغلون عن دفن موتاهم، حتى لا يوجد من يحفر قبراً للميت ويدفنه إلا أن يُعطَى وصيفاً أو قيمته.

يبهرك شعاع السيف : يغلبك ضَوْؤُهُ وبريقه.

أحجار الزيت : محلة أو موضع بحَرَّة بالمدينة.

يبوء بإثمك وإثمه : يتحمل عقوبة قتلك وعقوبة ذنبه.

شرح الحديث

هذا الحوار الذي جرى بين الرسول ﷺ وصاحبه أبي ذر المراد منه توجيه المسلمين إلى الموقف الصواب في الأحوال الصعبة التي تصيب المسلمين، وهي:

١- إذا غلت القبور، فقد كانت القبور فيما مضى لا يُدفع فيها ثمن، وكان أصدقاء الرجل وأقرباؤه يقومون بحفرها، ولم يكن يتكلف أهل الميت شيئاً عندما يدفنون موتاهم، فيسأل الرسول ﷺ أبا ذر عن حاله عندما تغلو القبور، حتى لا يُدفن أحد إلا إذا دُفع في قيمة قبره قيمة وصيف، وهو الخادم، وهذه الحال موجودة في هذه الأيام في كثير من المدن

الإسلامية، فللقبر ثمنه، ولحفره ثمن آخر، وقد أمر الرسول ﷺ أبا ذر بالصبر على هذه الحال إن هو أدركها وشاهدها.

٢- إذا هبّت الفتن على الأمة الإسلامية، وغرقت أحجار الزيت بالدم، وأحجار الزيت موضع بالمدينة المنورة، وقد أرشد الرسول ﷺ أبا ذر إلى السكون، والابتعاد عن المشاركة في مثل هذه الفتن.

وقد أمر الرسول ﷺ أبا ذر ومن على شاكلته في مثل هذه الفتن، أن يلزم بيته، ويكون مثل خير ابني آدم، ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَ ﴾ [المائدة: ٢٨].

وقال الرسول ﷺ لأبي ذر عما يفعله في مثل هذه الحال: (فإن خشيت أن يبهرك شعاع السيف فألق ثوبك على وجهك يبوء بإثمك وإثمه).

على المسلم في مثل هذه الحال أن يكفّ عن المشاركة في الفتنة، ولو أدى به ذلك إلى أن يُقتل، كما فعل خير ابني آدم عندما قتله أخوه.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- إذا غلت القبور، وأصبحت ذات ثمن باهظ، فعلى المرء أن يصبر على مثل ذلك.

٢- إذا هبّت الفتن التي تسفك فيها الدماء على بلاد المسلمين، فعلى المؤمن أن يعتزل تلك الفتن، وينأى بنفسه عنها.

٣- الإشارة إلى فتنة عظيمة تقع في المدينة المنورة، يكون من ثمراتها أن تغرق أحجار الزيت بالدم.

٤- دلالة الرسول ﷺ من وقع في المنطقة التي ثارت فيها الفتنة أن يضع ثوبه على وجهه حتى لا يبهره شعاع السيف الذي سيقع على رقبته.



القِصَّةُ الثَّامِنَةُ والثَّلاثُونَ
الذين يوضع لهم القبول في الأرض

تمهيد

إذا أحب الله عبداً، فإنه يحبّه جبريل وملائكة السماء، ويوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض الله عبداً أبغضه جبريل وملائكة السماء، ووضع له البغضاء في الأرض.

نص الحديث

عن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «إنَّ الله ، إذا أَحَبَّ عَبْداً، دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إنِّي أُحِبُّ فُلاَناً فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي في السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إنَّ الله يُحِبُّ فُلاَناً فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ: ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ في الأَرْضِ، وَإِذا أَبْغَضَ عَبْداً دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إنِّي أُبْغِضُ فُلاَناً فَأَبْغِضْهُ. قَالَ: فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إنَّ الله يُبْغِضُ فُلاَناً فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ في الأَرْضِ».

تخريج الحديث

رواه مسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة والأدب، باب: «إذا أحبّ الله عبداً حبّبه إلى عباده». [ورقمه: ٢٦٣٧]. وروى البخاري الشطر الأول منه، إلى قوله: (ثم يوضع له القبول في الأرض) [البخاري: ٣٢٠٩، ٦٠٤٠، ٧٤٨٥].

شرح الحديث

إذا استقام العبد على أمر الله تبارك وتعالى، وأحبّه ربّه، فإنه ينادي جبريل ﷺ، ويخبره أنه يحب فلاناً من عباده، فيحبه جبريل ﷺ، ثم ينادي في أهل السماء مخبراً إياهم أنّ الله يحبه، آمراً إياهم بأن يحبوه، فيحبوه، ثم يوضع له القبول في الأرض.

وإذا أبغض الله رجلاً، فإنه ينادي جبريل ﷺ مخبراً إياه أنه يبغض فلاناً، آمراً إيّاه بإبغاضه، فيبغضه، ثم ينادي جبريل ﷺ أهل السماء، مخبراً إياهم أن الله يبغض فلاناً، آمراً إياهم ببغضه، فيبغضونه، ثم يوضع له البغضاء في الأرض.

وقد رأى أحد رواة هذا الحديث وهو سهيل بن أبي صالح عمر بن عبدالعزيز وهو على موسم الحج، فقال لأبيه: «يا أبت إني أرى الله يحب عمر بن عبدالعزيز، قال: وما ذاك؟

قلت: لما له من الحب في قلوب الناس» [مسلم: ٢٦٣٧].

والمؤمن المتبصر في دينه يرى القبول قد وقع في قلوب العباد لبعض عباد الله الصالحين، فترى قلوبهم تنبض بحبه، وألسنتهم تلهج بالثناء عليه، وتراهم مدفوعين إلى الدعاء والاستغفار له، فإذا قبضه الله إليه تقاطروا إليه زرافات ووحداناً يصلون عليه، ويسألون الله له المثوبة والرحمة.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- يحب الله بعض عباده، ويبغض آخرين.

٢- إذا أحب الله أحداً من عباده أخبر جبريل بذلك، فيحبه جبريل، وينادي في أهل السماء في محبته.

٣- إذا أحب الله عبداً، ثم أحبّه جبريل، وأهل السماء وضع له القبول في الأرض.

٤- وإذا أبغض الله بعض خلقه، فإن الله يخبر جبريل بذلك، فيبغضه جبريل وأهل السماء، وتوضع له البغضاء في قلوب العباد.

* * *

القصة التاسعة والثلاثون
يا ليتني مكان صاحب هذا القبر

تمهيد

في هذا الحديث إخبار الرسول ﷺ أمّته عن البلاء الذي يصيب بعضاً منها، ولشدة البلاء يتمرغ من يصيبه بقبر يمر عليه، متمنياً أن يكون مكانه.

نص الحديث

عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ : (وَالَّذِي نَفْسِيَ بِيَدِهِ لا تَذْهَبُ الدُّنيا، حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ على الْقَبْرِ، فَيَتَمَرَّغُ عَلَيْه، وَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِيَ كنتُ مَكَانَ صَاحِبِ هَذا الْقَبْرِ، وَلَيْسَ بهِ الدِّيْنُ، مَا بهِ إلاَّ البلاء).

وفي رواية: قال: (لا تقومُ السَّاعةُ حتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بقَبْرِ الرَّجلِ، فَيَقُولُ: يَا لَيْتَني مكانـهُ).

تخريج الحديث

أورده ابن الأثير في جامع الأصول [١٠/ ٣٩٩، ورقمه فيه: ٧٩١٠] وعزاه إلى مسلم (١٥٧) (٥٤) وذلك بإثر الحديث (٢٩٠٧)، وقال روى البخاري الثانية (٧١١٥)، وأخرجه الموطأ ١/ ٣٢٤ حديث (٥٨١) في الجنائز باب جامع الجنائز.

شرح الحديث

تمرّ بعض الأزمان على المسلمين يكون البلاء فيها شديداً، ومن ذلك ما أخبر به الرسول ﷺ في هذا الحديث، فالرجل - في حال شدّة البلاء - يمر بالقبر، فيتمرغ عليه وهو يقول: يا ليتني مكان صاحب هذا القبر، وليس ذلك لقلة المال، وإنما هو بسبب البلاء الذي أصابه.

ولا شك أنه قد مرّ على بعض المسلمين فتن عظيمة في الأزمنة الغابرة، لقد سُلخ بعض المسلمين، وهم أحياء، ونُشِرَ بعضهم من قمة الرأس حتى سقط شقّاه، وأُحرق بعضهم بالنار حرقاً، ومُنع الطعام والشراب عن آخرين حتى ماتوا عطشاً وجوعاً.

إنه البلاء الذي لا مدفع له في بعض الأزمنة، والذي يتمنى فيه المرء أن ينتقل إلى جوار ربّ العباد سبحانه.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- إخبار الرسول ﷺ بالبلاء الذي يصيب بعض المسلمين حتى إذا مرّ بقبر تمرّغ عليه متمنياً أن يكون في موضعه.

٢- يجوز أن يحلف المرء لتأكيد الموضوع الذي يحدث به.

٣- أحوال المسلمين مختلفة باختلاف الأوقات والأزمان.

٤- جواز تمنّي الموت في الكرب العظيم.

* * *

الزمرة الثالثة

قصص الغيوب الآتية التي

لم تقع بعد



القِصَّةُ المُتَمِّمَةُ للأربعين
معركة جبل الذهب

تمهيد

مثلما يتألم المسلم لمآسي المسلمين في الماضي، فإنه يألم لمآسيهم في مقبل الأيام، فالرسول ﷺ يخبر أن المسلمين سيقتتلون في معركة كبيرة على جبل من ذهب ينحسر عنه ماء الفرات، حتى يُقتَل تسعة وتسعون بالمائة من الجيوش المتقاتلة.

نص الحديث

عن عَبْدِاللهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ نَوْفَلٍ. قَالَ: كُنْتُ وَاقِفاً مَعَ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، فَقَالَ: لاَ يَزَالُ النَّاسُ مُخْتَلِفَةً أَعْنَاقُهُمْ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا. قُلْتُ: أَجَلْ. قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (يُوشِكُ الْفُرَاتُ أَنْ يَحْسِرَ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ. فَإِذَا سَمِعَ بِهِ النَّاسُ سَارُوا إِلَيْهِ. فَيَقُولُ مَنْ عِنْدَهُ: لَئِنْ تَرَكْنَا النَّاسَ يَأْخُذُونَ مِنْهُ لَيُذْهَبَنَّ بِهِ كُلِّهِ. قَالَ: فَيَقْتَتِلُونَ عَلَيْهِ. فَيُقْتَلُ، مِنْ كُلِّ مِائَةٍ، تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ).

قَالَ أَبُو كَامِلٍ فِي حَدِيثِهِ: قَالَ: وقفْتُ أنا وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ فِي ظِلِّ أُجُمِ حَسَّانَ.

تخريج الحديث

رواه مسلم في صحيحه في كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب. [ورقمه: ٢٨٩٥].

غريب الحديث

يوشك : يقرب.

يَحْسِرُ : ينكشف.

أجم حسان : حصن رجل يدعى حسان.

شرح الحديث

يخبرنا أحد التابعين، وهو عبدالله بن الحارث بن نوفل أنه كان واقفاً مع الصحابي الجليل أبيّ بن كعب يوماً في ظل حصن من حصون المدينة، يدعى أجم حسان.

ويبدو أنهما كانا ينظران إلى الناس وهم يذهبون ويأتون في مصالح دنياهم المتنوعة المختلفة، فقال أبيّ ﷺ : لا يزال الناس مختلفة أعناقهم في طلب الدنيا، وهذا الذي قاله أبيّ هو واقع البشر منذ القدم وإلى اليوم، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فوافقه الحارث على ما قرره، وقال: أجل.

ثم أنشأ أبيّ بن كعب يحدّث عما يؤكد قوله أن الناس لا تزال أعناقهم مختلفة في طلب الدنيا، فأخبر أنه سمع الرسول ﷺ يحدّث أن نهر الفرات يوشك أن ينحسر ماؤه عن جبل من ذهب.

فإذا سمع الناس ذلك، ساروا إليه من كل حدب وصوب، ولك أن تتصور الناس وهم يسيرون من الجهات الأربع باتجاه القطر الذي فيه جبل الذهب، كل يريد أن يكون له منه نصيب، والسائرون قد يكونون جيوشاً ذات أعداد كبيرة، وعتاد كثير.

وهنا تتقاطع مصالح الناس وتتعارض وتتضارب، فأهل المصر الذي فيه جبل الذهب يقولون: لئن تركنا الناس يأخذون منه، ليُذهَبَنَّ به كله.

فيقع القتال بين المتنازعين المتخاصمين، وتكون فتنة عظيمة، تسيل فيها دماء المتقاتلين أنهاراً، وتكون حصيلة القتلى هائلة، إذ يسقط من كل مائة تسعة وتسعون، فإذا كان عدد المتقاتلين خمسمائة ألف فإن الناجين منهم خمسة آلاف فحسب.

وقد حذر الرسول ﷺ أمته من المسار إليه، والاقتتال عليه، ففي حديث أبي هريرة عند البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: (يوشك الفرات أن يحسر عن جبل من ذهب، فمن حضره فلا يأخذن منه شيئاً)، وقال مرة (كنز من ذهب) بدل الجبل. [البخاري: ٧١١٩، ومسلم: ٢٨٩٤].

إن المتقاتلين على جبل الذهب خاسرون بجميع المقاييس، فأغلبهم يسقطون صرعى في الميدان، ماذا يفيدهم الذهب بعد موتهم، والذين بقوا أحياء بعضهم لن ينال شيئاً من الذهب إذا كان من الطائفة المغلوبة، أما الطائفة الغالبة فكيف ينعمون به، وقد فني الغالبية العظمى من إخوانهم وآبائهم وأبنائهم وجيرانهم وأصدقائهم ومعارفهم، لا شك أن الذهب سيفقد بريقه في أعينهم، سيعرضون عن هذا المعدن الذي كان السبب في الدمار والخراب الذي لحق بهم.

لو كان المتسلطون على العباد في ذلك الوقت أهل صلاح وتُقى لما صار الحال إلى تلك المقتلة الرهيبة التي تمخضت عنها المعركة، وكان الواجب في مثل هذا المال أن يصبح فيئاً، يُصرف على النحو الذي فرضه رب العباد، والفيء ما فاء إلى المسلمين بغير حرب ولا قتال، وقد قال الله

فيه في محكم التنزيل: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر: ٧].

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- العلم بما تضمنه الحديث من انحسار الفرات عن جبل من ذهب يقتتل الناس عليه على النحو الذي أفاده الحديث.

٢- يجب على من حضره من المسلمين أن لا يأخذ منه شيئاً طاعة للرسول ﷺ فيما أمر، وإنجاءً لنفسه من النار، فإن المتقاتلين يسفكون دم غيرهم، ويتسببون في إهلاك أنفسهم.

٣- تنازع الناس على المال يجلب العداوة والبغضاء، ويؤدي إلى سفك الدماء والدمار والخراب.

٤- الواجب على ولاة الأمر في مثل هذا الذي يوجد من معادن كجبل الذهب أن يكون فيئاً، ينفق منه في مصارف الفيء التي حدّدها القرآن الكريم.

٥- عظم المذبحة التي تقع عند جبل الذهب.

٦- سمّت بعض روايات الحديث جبل الذهب كنزاً، وهذا يدل على أن الكنز ليس قصراً على المضروب دنانير من الذهب.

٧- قصور الناس عن اكتشاف هذا الجبل مع كل هذا التقدم العلمي.

* * *

القِصَّةُ الحَادِيَةُ والأَرْبَعُونَ
فتنة الأحلاس والسراء والدهيماء

تمهيد

هذا الحديث يخبرنا بالحال التي يكون عليها المسلمون في الفترة التي تسبق خروج الدجال، في ذلك الزمان يكونون في تنازع وحروب متلاحقة متوالية تعصف بالعالم الإسلامي، ولكنها تتمخض عن قيام دولة إسلامية خالصة، وهي الدولة التي تقف في وجه الروم في المعركة التي سماها الرسول ﷺ بالملحمة، وهي أعظم معارك التاريخ، فينتصرون فيها، ويفتحون بعدها القسطنطينية، ثم يخرج الدجال كما سيأتي بيانه في القصص التالية.

نص الحديث

عن عبدالله بن عمر قال: «كنا قُعوداً عند رسول الله ﷺ ، فذكر الفِتَنَ فأكثرَ في ذكرِها، حتى ذكر فتنةَ الأَحْلاسِ، فقال قائل: يا رسولَ الله! وما فتنةُ الأَحْلاَس؟

قال: (هِيَ هَرَب وَحَرَبٌ، ثُمَّ فتنةُ السَّراءِ دَخَنُهَا مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْ رجلٍ مِنْ أهل بَيْتِي، يَزْعُمُ أنهُ مِنِّي، وَليس مني، وَإنما أوليائي المُتَّقون، ثم يصطَلِحُ الناسُ عَلَى رجلٍ كَوَرِكٍ على ضِلَع، ثمَّ فتنةُ الدُّهَيْماءِ: لا تدعُ أحداً مِنْ

هذِهِ الأمةِ إلا لطمتْهُ لطْمةً، فإذا قيل: انْقضَتْ تمادَتْ، يُصْبحُ الرَّجُلُ فيها مُؤمناً، ويُمسي كافراً، حتى يصيرَ الناسُ إلى فُسْطاطَيْنِ: فُسْطاطِ إيمان، لا نِفاقَ فيهِ، وفُسْطاطِ نِفاقٍ، لا إيمانَ فيه. فإذا كان ذاكُمْ فانْتظِروا الدَّجَّال منْ يَوْمِهِ أوْ غدِهِ).

تخريج الحديث

رواه أبو داود في سننه في كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها، ورقمه [٤٢٤٢] وهو في صحيح سنن أبي داود ورقمه: [٣٥٦٨] وإسناده صحيح كما ذكر الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله. وانظر «مسند الإمام أحمد» ١٠/ ٣٠٩ [ورقمه: ٦١٦٨، طبعة مؤسسة الرسالة].

غريب الحديث

الأحلاس : جمع حلس، وهو الكساء يكون على ظهر البعير، سميت بهذا الاسم لامتدادها وطول زمنها.

حَرَب : الحرَب بفتح الراء، ذهاب المال والأهل.

دخنها : إثارتها وهيجها، شبهها بالدخان الذي يرتفع.

كَوَرِكٍ على ضِلَع : يصطلحون على أمر واهٍ، لا نظام له، ولا استقامة، لأن الورك لا يستقيم على الضِّلَع، ولا يتركب عليه، لاختلاف ما بينهما وبُعْدَه، [النهاية في غريب الحديث: ٤/ ١٧٦].

فتنة الدهيماء : السوداء المظلمة.

فسطاطين : أصل الفسطاط الخيمة الكبيرة، وهي أصغر من السرادق، ثم سميت به المدينة، كبغداد والقاهرة،

يقال لكل منهما فسطاط، والمراد به هنا الجماعة الكبيرة، أي: ينقسمون إلى جماعتين أو دولتين.

شرح الحديث

أخبرنا الرسول ﷺ بالحال التي يكون عليها المسلمون قبل خروج الدجال بقليل، فإنهم يكونون في زمن فرقة واختلاف، وتهب عليهم الفتن المتوالية المتلاحقة التي تعصف بكيانهم، فعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت أبا القاسم الصادق المصدوق يقول: (يخرج أعور الدجال مسيح الضلالة قبل المشرق في زمن اختلاف الناس وفرقة) [قال الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله في تخريجه: قال الهيثمي: رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح، غير علي بن المنذر وهو ثقة. وقال الحافظ: إسناده جيد].

وذكر الرسول ﷺ في هذا الحديث ثلاث فتن تقع متوالية، هي فتنة الأحلاس، وفتنة السراء، وفتنة الدُّهيماء.

وقد سأل الصحابة الرسول ﷺ عن الفتنة الأولى، وهي فتنة الأحلاس، ما هي؟

فقال: (هي هَرَب وحَرَب) ويبدو من تعريف الرسول ﷺ أن الفئة المؤمنة تكون مستضعفة في هذه الفتنة، ولذا فإنهم يفرون من وجه خصومهم، ويستولي أعداؤهم على أموالهم وبيوتهم وتجارتهم.

ويعقب هذه الفتنة فتنة السراء، والقتال فيها يكون على المناصب والأموال كما يدل على ذلك اسمها، ومثير هذه الفتنة رجل يزعم أنه من أهل بيت الرسول ﷺ ، وأنه من ذريته، وقد أكذبه الرسول ﷺ في

دعواه، فإنه ليس من أهل بيته، وليس منه، إما لأنه كاذب في النسب الذي يدّعيه، أو لأنه ليس من أهل بيته الصالحين المتقين، وليس من الذين يسيرون مساره، ويقتدون بهديه، وأولياء الرسول ﷺ الذي يتقبلهم ويرضاهم من أهل بيته وذريته هم المتقون.

وذكر أن هذه الفتنة تنتهي باصطلاح الناس على تولية رجل يرضاه الفريقان المتنازعان، ولكن هذا الصلح لا يدوم طويلاً، فإنه اتفاق هش، لا يوقف النزاع، ولا يعالج أسبابه، ولا يستقيم أمر هذا الرجل على صراط مستقيم، فيكون هذا الصلح كوَرك على ضِلَع، والوَرِك لا يثبت على الضلع، ولا يركب عليه، وسرعان ما ينفصل عنه.

وتعقب فتنة السراء فتنة الدهيماء، والدهيماء تصغير دهماء، والدهماء السوداء المظلمة، سميت بذلك لشدتها وعظم ما يقع فيها من أهوال، وهي فتنة شاملة عامة تعم الأمة كلها، لا تدع أحداً من المسلمين إلا لطمته، فهي مؤذية للمسلمين كلهم.

وهي تمتد في الزمان طولاً، وكلما أمل المسلمون أن تتوقف وتتلاشى وتنتهي إذا بها تتمادى وتعظم وتزيد، وهي لا تقتصر على الحرب بالسيف والرمح، بل يصحب ذلك التنازع الفكري والعقائدي، وكلٌّ يروج لبضاعته، حتى تكثر الحيرة، ويزداد الشك، وتتعاظم الشبهات، ويكون نتيجة ذلك كثرة التحول بين الإيمان والكفر، والهدى والضلال، فيصبح الرجل مؤمناً، ويمسي كافراً، ثم تتمخض هذه الفتنة العظيمة عن انقسام المسلمين إلى معسكرين أو دولتين، دولة إيمان خالص لا نفاق فيها، ودولة نفاق لا إيمان فيه. عند ذلك يكون الدجال قد اقترب خروجه، وآن أوانه، وأصبح على الأبواب.

وسيأتي في القصص التالية أن دولة الإيمان التي تتمخض عنها فتنة الدهيماء، ستكون دولة عظيمة، وسيخرج جيشها من المدينة المنورة، وينزل بالغوطة قرب مدينة دمشق، وهو الذي سينازل الروم في معركة الملحمة، كبرى معارك التاريخ، وسينتصر عليهم بعد وصول المدد من أنحاء العالم الإسلامي، وعلى أيدي المنتصرين من هذا الجيش ومدده سيكون فتح القسطنطينية الثاني، وهم الذين يخرج الدجال فيحاصرهم، وعليهم ينزل عيسى الذي يزيل الدجال ويقتله ومن معه من الأشرار.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- معرفة الحال التي يكون عليها العالم الإسلامي قبل خروج الدجال، فالمسلمون يغرقون في فتن متلاحقة متوالية، تكاد تعصف بالعالم الإسلامي كله.

٢- وجود المسلمين الصادقين في ذلك الوقت، وهم كثيرون، ولذلك فإنهم يدخلون مع خصومهم في صراع طويل ومرير.

٣- تتمخض الحرب والقتال إلى انقسام العالم الإسلامي إلى جماعتين أو دولتين، دولة إيمان لا كفر فيها، ودولة نفاق لا إيمان فيها.

٤- معرفة هذه الفتنة التي تقع في آخر الزمان بأسمائها: الأحلاس، السراء، الدهيماء، وبيان ما يقع فيها وذكر أسبابها.

٥- تحذير المسلمين في ذلك الوقت من الرجل الذي يثير فتنة السراء، وتكذيبه في دعواه أنه الأولى بالاتباع، لكونه من آل بيت النبوة، ومن ذرية الرسول ﷺ ، فالرسول ﷺ أولياؤه المتّقون.

٦- بيان الرسول ﷺ للمسلمين الذين يصالحون خصومهم في فتنة السراء أن هذا الصلح لن يثبت، وأن فيه ما يؤدي إلى نقضه.

٧- شدة الشبهات التي يحارب بها المسلمون، حتى إن المرء يصبح مؤمناً ويمسي كافراً.

٨- تتمخض الفتن عن نهاية طيبة، هي تميز المسلمين عن المنافقين بدولة قوية خالصة الإيمان، ويكون لها بعد ذلك أثر عظيم في الوقائع العظام التي توجد بعد ذلك.

* * *

القِصَّةُ الثَّانِيَةُ وَالأَرْبَعُونَ
قِصَّةُ المهدي الذي يملأ الأرض عدلاً

تمهيد

نعمت البشرية بالإسلام حيناً من الدهر في فترات سابقة، ولا يزال المسلمون يطمعون – مع شدة البلاء الذي يحيط بهم – بأن تعود للمسلمين عزّتهم ومكانتهم، وينعمون بمثل ذلك الرخاء الذي حققه لهم الإسلام عندما استظلوا بظلاله الوارفة، وقد أخبرنا الرسول ﷺ عن أمجاد آتية للمسلمين في فترات قادمة، ومنها ما يكون في خلافة المهدي الذي سنتحدث عنه في هذه القصة.

نص الحديث

نصوص الأحاديث الصحيحة التي تشكل القصة

وردت جملة من الأحاديث الصحيحة تشكل بمجموعها قصة المهدي، منها:

١- عَنْ عَبْدِاللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (لاَ تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمْلِكَ الْعَرَبَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي).

٢- وَعَنْ عَبْدِاللهِ، قَالَ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (يَلِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي).

وَقَالَ عَاصِمِ بْنِ بَهدلة: أَخْبَرَنَا أَبُو صَالِح، عَنْ أَبي هُرَيْرَة، قَالَ: (لَوْ لم يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إلاَّ يَوْمٌ لَطَوَّلَ الله ذلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى يَلِيَ).

٣- عَنْ جَابر بْنِ عَبْدِالله، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : (يَكُونُ في آخِرِ أُمَّتِي خَلِيفَةٌ يَحْثِي المَالَ حَثْياً، لاَ يَعُدُّهُ عَدَداً).

قَالَ: قُلْتُ لأَبي نَضْرَة وَأَبي الْعَلاَء: (أَتَرَيَانِ أَنَّهُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِالْعَزيز؟ فَقَالاَ: لاَ).

وَعَنْ أَبي سَعِيدِ الْخُدْرِي، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : (مِنْ خُلَفَائِكُمْ خَلِيفَةٌ يَحْثُو الْمَالَ حَثْياً، لاَ يَعُدُّهُ عَدَداً).

وَعَنْ أَبي سَعِيدِ وَجَابرِ بْنِ عَبْدِالله، قَالاَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : (يَكُونُ في آخِرِ الزَّمَانِ خَلِيفَةٌ يَقْسِمُ الْمَالَ، وَلاَ يَعُدُّهُ).

٤- عَنْ أَبي سَعِيدِ الْخُدْرِي قَالَ: خَشِيْنَا أَنْ يَكُونَ بَعْدَ نَبِيِّنَا حَدَثٌ، فَسَأَلْنَا النَّبِيَّ ﷺ ، فَقَالَ: (إنَّ في أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ، يَخْرُجُ يَعِيشُ خَمْساً أَوْ سَبْعاً أَوْ تِسْعاً، (زيد هو الشاك). قَالَ: قُلْنَا: وَمَا ذاكَ؟ قَالَ: سِنِينَ، قَالَ: فَيَجِيءُ إلَيْهِ رَجُلٌ، فَيَقُولُ: يَا مَهْدِيُّ، أَعْطِنِي، أَعْطِنِي، قَالَ: فَيَحْثِي لَهُ في ثَوْبِهِ مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَحْمِلَهُ).

٥- عَنْ أَبي سَعِيدِ الْخُدْرِيّ أَنَّ النَّبي ﷺ قَالَ: (يَكُونُ في أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ، إنْ قُصِرَ فَسَبْعٌ، وَإلاَّ فَتِسْعٌ، فَتَنْعَمُ فِيهِ أُمَّتِي نِعْمَةً لم يَنْعَمُوا مِثْلَهَا قَطْ، تُؤْتِي أُكُلَهَا، وَلاَ تَدَّخِرُ مِنْهُمْ شَيْئاً، وَالْمَالُ يَوْمَئِذٍ كُدُوسٌ، فَيَقُومُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: يَا مَهْدِيّ، أَعْطِنِي، فَيَقُولُ: خُذْ).

٦- عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : (الْمَهْدِيُّ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ، يُصْلِحُهُ الله في لَيْلَةٍ).

٧- عَنْ أبي سَعِيدِ الْخُدَرِيِّ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ أُمِّ سَلَمَةِ، فَتَذَاكَرْنَا الْمَهْدِيَّ، فَقَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: (الْمَهْدِيُّ مِنْ عترتي من وَلَدِ فَاطِمَةَ).

٨- عَنْ أبي مَعْبَدٍ، عَنِ ابْنِ عَبّاس، قال: (إنِّي لأَرْجُو ألاّ تَذْهَبَ الأَيَّامُ وَاللَّيالِي، حَتَّى يَبْعَثَ الله مِنَّا أهْلَ الْبَيْتِ، غُلاماً شابّاً حَدَثاً، لَمْ تَلْبِسْهُ الْفِتَنُ، وَلَمْ يَلْبِسْها، يُقِيمُ أمْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ، كَمَا فَتَحَ الله هَذا الأمْرَ بنَا، فَأَرْجُو أنْ يَخْتِمَهُ الله بنَا).

قال أبُو مَعْبَدٍ: فَقُلْتُ لابْنِ عَبّاسٍ: «أَعَجَزَتْ عَنْهُ شُيُوخُكُمْ تَرْجُوهُ لِشَبابكُمْ؟! قال: إنَّ الله – عَزَّ وَجَلَّ – يَفْعَلُ ما يَشاءُ».

٩- عَنْ عَبْدالله عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إلاَّ يَوْمٌ لَطَوَّلَ الله ذلِكَ الْيَوْمَ حَتَى يَبْعَثَ فِيهِ رَجُلاً مِنِّي – أو مِنْ أهْلِ بَيْتِي– يُواطِئُ اسْمُهُ اسْمِي، وَاسْمُ أبيهِ اسْمُ أبي، يَمْلأُ الأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلاً، كَمَا مُلِئَتْ زَوْراً وَظُلْماً).

(لاَ تَذْهَبُ – أو لا تنقضي – الدُّنْيَا حَتَّى يَمْلِكَ العَرَبَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي).

١٠- عَنْ عَلَيٍّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدَّهْرِ إلاَّ يَوْمٌ لَبَعَثَ الله رَجُلاً مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، يَمْلَؤُهَا عَدْلاً، كَمَا مُلِئَت جَوْراً).

١١- عَنْ أَبي سَعِيدِ الْخُدرِي، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : (الْمَهْدِيُّ مِنِي، أجَلَى الجَبْهَةِ، أقْنَى الأَنْفِ، يَمْلأُ الأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلاً، كَمَا مُلِئَتْ جَوْراً وَظُلْماً، يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ).

١٢- عن عُبيد الله بن القِبطيَّة، قال: دَخَلَ الْحَارِثُ بْنُ أَبي رَبيعَةَ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ صَفْوَانَ، وَأَنَا مَعَهُمَا، عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، فَسَأَلاَهَا عَنِ الْجَيْشِ الَّذِي يُخْسَفُ بِهِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَيَّامِ ابْنِ الزُّبَيْرِ، فَقَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (يَعُوذُ عَائِذٌ بِالْبَيْتِ، فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْثٌ، فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ خُسِفَ بِهِمْ) فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! فَكَيْفَ بِمَنْ كَانَ كَارِهاً؟ قَالَ: (يُخْسَفُ بِهِ مَعَهُمْ، وَلَكِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى نِيَّتِهِ).

١٣- عن حفصة أنها سمعت النبيَّ ﷺ يَقُولُ: (لَيَؤُمَّنَّ هَذَا الْبَيْتَ جَيْشٌ يَغْزُونَهُ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ، يُخْسَفُ بِأَوْسَطِهِمْ، وَيُنَادِي أَوَّلُهُمْ آخِرَهُمْ، ثُمَّ يُخْسَفُ بِهِمْ، فَلاَ يَبْقَى إِلاَّ الشَّرِيدُ الَّذِي يُخْبِرُ عَنْهُمْ).

تخريج الحديث

١- رواه الترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء في المهدي [٢٢٣٠] وقال فيه: «هذا حديث حسن صحيح» وهو في صحيح سنن الترمذي، [ورقمه: ١٨١٨].

٢- رواه الترمذي، وقال فيه: «حديث صحيح» كتاب الفتن، باب ما جاء في المهدي [٢٢٣١] ورواه أبو عمر الداني في السنن الواردة في الفتن [٥٦٩].

٣- رواه مسلم في صحيحه في كتاب الفتن وأشراط الساعة، [ورقمه: ٢٩١٣، ٢٩١٤].

٤- رواه الترمذي، وقال فيه: «هذا حديث حسن، وقد روي من غير وجه عن أبي سعيد عن النبي ﷺ » [ورقمه: ٢٢٣٢] وهو في صحيح سنن الترمذي [١٨٢٠].

٥- رواه ابن ماجه [٤٠٨٣]، وهو في صحيح ابن ماجه [٣٢٩٩] وقال فيه الألباني: حسن. ورواه أبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن [٥٥٠].

٦- رواه ابن ماجه في سننه [٤٠٨٥] وحكم عليه الألباني في صحيح ابن ماجه بالحسن [٣٣٠٠] ورواه أبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن [٥٨٠].

٧- رواه أبو داود في سننه [٤٢٨٤] وهو في الترمذي في سننه بلفظ: (المهدي من ولد فاطمة) [٤٠٨٦] وحكم الألباني عليه بالصحة في صحيح ابن ماجه [٣٣٠١] ورواه أبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن: [٥٦٦].

٨- أثر صحيح موقوف على ابن عباس رواه أبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن [٥٦٠].

٩- رواه أبو داود [٤٢٨٢] وقال فيه الألباني في صحيح أبي داود «حسن صحيح» [٣٦٠١]، ورواه أبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن [٥٥٥].

١٠- رواه أبو داود في سننه [٤٢٨٣] وحكم عليه الألباني في صحيح أبي داود بالصحة [٣٦٠٢] ورواه أبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن [٥٦٢].

١١- رواه أبو داود في سننه [٤٢٨٥] وحكم عليه الألباني في صحيح أبي داود بالحسن [٣٦٠٤].

١٢ و١٣- رواهما مسلم في كتاب الفتن، باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت [٢٨٨٢، ٢٨٨٣].

غريب الحديث

المهدي : اسم أطلقه الرسول ﷺ على خليفة يلي أمر المسلمين في آخر الزمان، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً، ويخاطبه المسلمون بهذا اللقب في ذلك الزمان، ويطلق المهدي في الأصل على كل من هداه الله إلى الحق، وأطلقه الرسول ﷺ على الخلفاء الذين يسيرون بالأمة الإسلامية على نهج النبوة، كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبدالعزيز.

الأجلى : الذي انحسر الشعر عن جبهته.

أقنى الأنف: يكون الإنسان أقنى الأنف إذا كان أعلى أنفه مرتفعاً ووسطه محدودباً، والمنخران ضيقان.

العترة : نسل الرجل ورهطه وعشيرته الأدنون.

شرح الحديث

في آخر الزمان عندما يقترب وقوع الآيات العظام، مثل الدّجال، ودابة الأرض وطلوع الشمس من مغربها، يأذن الله تبارك وتعالى بخروج خليفة يقيم العدل، ويقمع الظلم، ويحيل الدنيا في ذلك العصر إلى واحة أمن وأمان، ينعم المسلمون فيها نعمة لم ينعموها في عصر من العصور، ويكثر الرخاء، ويفيض المال، حتى إن طالبي المال منه يحثو لهم المال حثواً، ولا يعده عدّاً. إنه الخليفة الصالح الذي يُلقَّب في عصره وقبل عصره بالمهدي، من آل بيت الرسول ﷺ ، من عترته من ولد فاطمة، وجدّه من جهة أبيه علي بن أبي طالب.

اسمه يواطئ اسم الرسول ﷺ ، واسم أبيه يواطئ اسم أبي الرسول ﷺ ، فهو محمد بن عبدالله صاحب الجبهة الأجلى، والأنف الأقنى، والوجه الحسن.

ولا يتوقع أحد في زمنه أن توكل إليه أمور المسلمين، ويكون ظهور صفاته وبروز خصائصه في ليلة واحدة، والأظهر أنه سيكون من سكان المدينة المنورة، وتقع في تلك الأيام وقائع وأحداث، فيلتف حوله جمع من الأخيار، ويدفعونه إلى القيام بالأمر، ويدعونه إلى إصلاح أحوال المسلمين.

وفي مصارعته لأهل الشر والفساد يلجأ المهدي إلى حرم الله، ويصير إلى مكة المكرمة، فترسل قوى الشر الحاكمة في بلاد الشام جيشاً عرمرماً للقضاء عليه، وعلى أتباعه، قبل أن يتعاظم أمره، ويقوى ساعده.

ولما كانت إرادة الله قاضية بأن يعز الله الإسلام والمسلمين بالمهدي، فإنه يخسف بذلك الجيش أوله وآخره في بيداء من الأرض، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً.

ويؤيد الله المهدي بنصره، وينهد إليه أهل الإسلام والإيمان، ويغالب قوى الشر والفساد التي تتحكم في رقاب العباد، ويملك العرب وتدين له العجم، ويضيء الإسلام الدنيا، ويظهر الله الإسلام على الدين كله، ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، وعند ذاك يرسل الله السماء على عباده مدراراً، فلا تمنع شيئاً من قطرها، ولا تمنع الأرض شيئاً من نباتها، ويعيش الناس في بحبوحة من العيش.

ويرى كثير من أهل العلم أن المهدي هو الخليفة الذي يفيض المال في عهده، فيحثو المال لمن يطلبه حثواً، ولا يعدّه عدّاً، لكثرة الخير وعظم

الرخاء، وهذه الحال أعظم من الحال التي وُجدت في عهد الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز، فالثراء بلغ بالمسلمين في عهد عمر أن لا يجد الناس مَن يأخذ الصدقة، ولم يبلغ أن يحثو المتصدقون المال حثواً كما سيأتي في دولة المهدي، وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن مدة حكم هذا الرجل الصالح الذي ينعم المسلمون في ظل حكمه، وينتشر الإسلام في عصره تدوم سبع سنين، ثم يلقى وجه ربه، وتلك سنّة الله في خلقه، فلو كان الخلد لأحد لناله الرسل والأنبياء.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- الأحاديث الصحيحة الواردة في خروج المهدي آخر الزمان متواترة تواتراً معنوياً، وهي توجب على من يؤمن بالله واليوم الآخر التصديق بها، تصديقاً للرسول ﷺ فيما أخبر.

٢- من علم ما تضمنته هذه الأحاديث استطاع أن يكشف زيف من ادعى المهدية في الماضي والحاضر، وقد ادعاها عبر التاريخ عدد كبير من المفترين على الله وعلى رسوله.

٣- المهدي نموذج للحاكم المسلم الورع القوي الذي يقيم العدل ويقمع الظلم، ومثله يكون قدوة يتأسّى به قبل أن يأتي.

٤- الخير والشر، والصلاح والفساد، والعزة والذلة يتعاوران أمة الإسلام، فبينما ديار الإسلام مليئة بالظلم والفساد، إذا بالمهدي يقوم فيملؤها قسطاً وعدلاً، وعلى المسلمين أن لا يهنوا ولا يحزنوا مهما ادلهمت الخطوب، وأحاطت بهم النائبات.

٥- سيبقى المسلمون قوة ظاهرة يقيمون الإسلام، ويمثلونه، حتى قرب قيام الساعة، وهذه بشرى تجعلنا نوقن أن مكر الأعداء ومؤامراتهم مهما بلغت لن تقضي على هذه الأمة، ولن تتسبب في إزالتها من الوجود، وهذا يجعلنا نوقن أن دولة اليهود في أرض الإسراء إلى زوال، وأن القوى العالمية التي تساندها ستزول، وأن الإسلام باقٍ باق، وأن النصر آتٍ آت.

٦- في الحديث دلالة على أن ذرية آل البيت عامة، وذرية الرسول ﷺ من نسل فاطمة خاصة باقية إلى قيام الساعة، فهي موجودة في كل العصور.

٧- يحق لكل مسلم أن يفخر بالمهدي، فالرسول ﷺ افتخر به لكونه من أهل بيته من ذريته وهو في أمته، ففي الحديث: (إن من أهل بيتي الأقنى الأجلى...).

٨- يبلغ الرخاء الذي يصيب الأمة الإسلامية مرتبة لم تنلها من قبل لا في عهد الأمويين، ولا العباسيين، ولا في أيام هارون الرشيد، ففي الحديث (تنعم فيها أمتي) أي في السنوات السبع التي يحكم فيها المهدي.

٩- يصبح المهدي ملكاً، ويقوم بالأمر على خير وجه على النحو الذي ذكرته النصوص وهو في ريعان الشباب، ففي الحديث عن ابن عباس موقوفاً عليه: «إني لأرجو أن لا تذهب الأيام والليالي، حتى يبعث الله منا أهل البيت غلاماً شابّا حدثاً، لم تلبسه الفتن ولم يلبسها، يقيم أمر هذه الأمة».

١٠- يرى كثير من أهل العلم أن المهدي هو الأمير الذي ينزل عيسى في عصره، ويصلي وراءه صلاة الصبح عند نزوله، ويمكن أن يستأنس

لهذا القول بأن عيسى ينزل في آخر الزمان، ونزوله أحد أشراط الساعة، وتقع آيتان أخريان بعد نزوله، وهما خروج الدجال، وخروج يأجوج ومأجوج.

والمهدي أيضاً متأخر خروجه في الزمان، دلت على ذلك نصوص الأحاديث التي سقناها كقوله ﷺ : (لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم...)، (لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لبعث الله رجلاً من أهل بيتي).

ولكن يشكل على القول الذي ذهب إليه أكثر أهل العلم من السابقين واللاحقين أن نصوص الأحاديث تدل على أن مدة بقاء المهدي في الحكم سبع سنين أو تسع سنين، وتكون هذه السنوات سنوات رخاء وسلام وأمن، والأمير الذي ينزل عليه عيسى، ويصلي وراءه سنوات حرب وقتال، وأمير جيوش المسلمين في تلك السنوات لا يكاد ينعم بشيء من الراحة، فعلى مدار سنوات لا تقل عن سبع سنوات أو تسع سنوات يخوض حروباً طاحنة.

فهو الذي يواجه الروم في الملحمة الكبرى، ثم يفتح القسطنطينية، ثم يخرج الدجال في عصره، وقد وصف الرسول ﷺ أن المسلمين في تلك الأيام لا يفرحون بغنيمة، ولا يقسمون ميراثاً لشدة ما نزل بهم من أهوال، فكيف يقال: إن ذلك الأمير هو المهدي، الذي ينعم المسلمون على مدى السنوات التي يتولى بها نعيماً لم ينعموه قط.

نعم، هناك احتمال بأن يكون هو المهدي إذا بقي ذلك الأمير أميراً في عهد عيسى، وأنه يبايع له بالخلافة بعد أن يستتب الأمر لعيسى في الأرض، بناءً على ما ورد على لسان عيسى نفسه أن هذه الأمة أمراؤها

منها، فلا يكون عيسى هو الحاكم أو الخليفة، وإنما يقوم على تنفيذ الشريعة، وعلى ذلك يبدأ حكم ذلك الأمير بعد استتباب الأمن ودخول الناس الإسلام.

وهنا يكون ذلك الرخاء الذي ينعم فيه بعد عيسى هو الرخاء الذي يكون في عهد المهدي، لأنهما شيء واحد، ويبقى هذا الأمير الذي يصبح خليفة سبع سنوات منذ مبايعته بالخلافة، ثم يتوفاه الله وعيسى حي، إذ يبقى عيسى في الأرض أربعين عاماً، وهذا الذي بيّناه على هذا النحو ليس ببعيد، وفقه النصوص يساعد عليه، والله أعلم بالصواب.

* * *



القِصَّةُ الثَالِثَةُ وَالأَرْبَعُون
قصة الملحمة وفتح القسطنطينية

تمهيد

يحدثنا الرسول ﷺ عن المعركة التي سماها بالملحمة، التي تقع آخر الزمان، قبيل ظهور أشراط الساعة، فكثير من الذين يقاتلون في هذه المعركة يقاتلون الدجال وجيشه، وعليهم وعلى من انضم إليهم من المسلمين ينزل عيسى ابن مريم.

وتكون هذه المعركة بين المسلمين والنصارى كما سنبين ذلك في تناولنا لهذه القصة، وسيعقب تلك المعركة فتح المسلمين للقسطنطينية.

نص الحديث

١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ الرُّومُ بِالأَعْمَاقِ، أَوْ بِدَابِقٍ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ. فَإِذَا تَصَافُّوا قَالَتِ الرُّومُ: خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا مِنَّا نُقَاتِلْهُمْ، فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ: لاَ، وَاللهِ لاَ نُخَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا، فَيُقَاتِلُونَهُمْ، فَيَنْهَزِمُ ثُلُثٌ لاَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ أَبَداً، وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللهِ، وَيَفْتَتِحُ الثُّلُثُ، لاَ يُفْتَنُونَ أَبَداً: فَيَفْتَتِحُونَ قُسْطُنْطِينِيَّةَ.

فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الْغَنَائِمَ، قَدْ عَلَّقُوا سُيُوفَهُمْ بالزَّيْتُونِ، إذ صَاحَ فِيهِمُ الشَّيْطَانُ: إنَّ الْمَسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِيكُمْ، فَيَخْرُجُونَ، وَذلِكَ بَاطِلٌ، فَإذا جَاؤُوا الشَّأْمَ خَرَجَ.

فَبَيْنَمَا هُمْ يُعِدُّونَ لِلْقِتَالِ، يُسَوُّونَ الصُّفُوفَ، إذ أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ، فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام فَأَمَّهُمْ، فَإذا رَآهُ عَدُوُّ الله، ذابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، فَلَوْ تَرَكَهُ لاَنْذابَ حَتَّى يَهْلِكَ، وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ الله بِيَدِهِ، فَيُرِيهِمْ دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ).

٢- وعن يُسَيْرِ بْنِ جَابِرٍ، قَالَ: هَاجَتْ رِيحٌ حَمْرَاءُ بالْكُوفَةِ، فَجَاءَ رَجُلٌ لَيْسَ لَهُ هِجِّيرَى إلاَّ: يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ! جَاءَتِ السَّاعَةُ. قَالَ فَقَعَدَ وَكَانَ مُتَّكِئاً، فَقَالَ: (إنَّ السَّاعَةَ لاَ تَقُومُ، حَتَّى لاَ يُقْسَمَ مِيرَاثٌ، وَلاَ يُفْرَحَ بِغَنِيمَةٍ، ثُمَّ قَالَ بِيَدِهِ هكَذا (وَنَحَّاهَا نَحْوَ الشَّأْمِ) فَقَالَ: عَدُوٌّ يَجْمَعُونَ لأَهْلِ الإسْلاَمِ وَيَجْمَعُ لَهُمْ أَهْلُ الإسْلاَمِ، قُلْتُ: الرُّومَ تَعْنِي؟ قَالَ: نَعَمْ، وَتَكُونُ عِنْدَ ذاكُمُ الْقِتَالِ رَدَّةٌ شَدِيدَةٌ، فَيَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لاَ تَرْجِعُ إلاَّ غَالِبَةً، فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُمُ اللَّيْلُ. فَيَفِيءُ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ. كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ.

ثُمَّ يَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ، لاَ تَرْجِعُ إلاَّ غَالِبَةً فَيَقْتَتِلُونَ، حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُمُ اللَّيْلُ، فَيَفِيءُ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ، كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ. وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ.

ثُمَّ يَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ، لاَ تَرْجِعُ إلاَّ غَالِبَةً، فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يُمْسُوا، فَيَفِيءُ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ، كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ.

فَإذا كَانَ يَوْمُ الرَّابِعِ، نَهَدَ إلَيْهِمْ بَقِيَّةُ أَهْلِ الإسْلاَمِ، فَيَجْعَلُ الله الدَّبْرَةَ عَلَيْهِمْ، فَيَقْتُلُونَ مَقْتَلَةً – إمَّا قَالَ: لاَ يُرَى مِثْلُهَا، وَإمَّا قَالَ: لَمْ يُرَ مِثْلُهَا –

حَتَّى إنَّ الطَّائِرَ لَيَمُرُّ بِجَنَبَاتِهِمْ فَمَا يُخَلِّفُهُمْ حَتَّى يَخِرَّ مَيْتاً. فَيَتَعَادُّ بَنُو الأَبِ، كَانُوا مِائَةً، فَلاَ يَجِدُونَهُ بَقِيَ مِنْهُمْ إلاَّ الرَّجُلُ الْوَاحِدُ. فَبِأَيِّ غَنِيمَةٍ يُفْرَحُ أَوْ أَيُّ مِيرَاثٍ يُقَاسَمُ؟

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إذ سَمِعُوا بِبَأْسٍ، هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذلِكَ، فَجَاءَهُمُ الصَّرِيخُ؛ إنَّ الدَّجَّالَ قَدْ خَلَفَهُمْ فِي ذرَارِيِّهِمْ، فَيَرْفُضُونَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَيُقْبِلُونَ، فَيَبْعَثُونَ عَشَرَةَ فَوَارِسَ طَلِيعَةً). قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: (إنِّي لأَعْرِفُ أَسْمَاءَهُمْ، وَأَسْمَاءَ آبَائِهِمْ، وَأَلْوَانَ خُيُولِهِمْ، هُمْ خَيْرُ فَوَارِسَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ، أَوْ مِنْ خَيْرِ فَوَارِسَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ).

تخريج الحديث

رواه مسلم في صحيحه في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في فتح القسطنطينية، [ورقمه: ٢٨٩٧].

والرواية الثانية رواها مسلم أيضاً في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إقبال الروم في كثرة القتل عند خروج الدجال، [ورقمه: ٢٨٩٩] وآخر الحديث يدل على أنه مسند عن رسول الله ﷺ، وليس هو من قول ابن مسعود.

غريب الحديث

سبوا منا : الذين أسروا، ثم دخلوا في الإسلام وحاربوا الكفار.

لا يتوب الله عليهم : لا يوفقهم للتوبة لشناعة جرمهم.

الأعماق ودابق	: مكانان قرب مدينة حلب.
ليس له هجيرى	: ليس له شأن ولا دأب إلا أن يقول هذا القول.
لأهل الإسلام	: لقتالهم.
شُرْطة	: طائفة من الجيش يتعاهدون على القتال حتى النصر.
فيفيء	: يرجع.
نهد	: نهض وتقدم.
فيجعل الله الدبرة عليهم	: الهزيمة، أو الدائرة.
فلا يجاوزنهم	: فما يخلفونهم.

شرح الحديث

هذا الحديث فيه نبأ المعركة الكبرى التي تقع بين المسلمين والنصارى، قرب وقوع الساعة، ويدل على ذلك أن وقوعها يكون قبل خروج الدجال بقليل، فقد صحّ في بعض الأحاديث كما سيأتي بيانه أن بعضاً من الجيش الإسلامي الذي يخوض هذه المعركة سيبقى حيّاً حتى يقاتل الدجال.

ويكون المسلمون في ذلك الزمان قوة عظمى، بدليل انتصارهم في تلك المعركة مع أن تعداد جيش الروم يقارب المليون.

وقبل وقوع المعركة يهادن المسلمون الروم ويصالحونهم صلحاً آمناً، ويغزون جميعاً عدواً مشتركاً، فيهزمون العدو المشترك، وينتصرون عليه، ثم إن الروم يغدرون بالمسلمين عندما يقوم رجل منهم، فينسب النصر الذي تحقق إلى الصليب، ويرفع ذلك الرجل الصليب، فيقوم رجل من المسلمين

غيور على دينه، ويغضب لله، فيدق الصليب، فعند ذلك يثور النصارى، ويفتكون بتلك العصبة من المؤمنين التي تكون في الجيش المشترك، ويبدأ المسلمون والنصارى يعدون لمعركة فاصلة.

ففي حديث عوف بن مالك أن رسول الله ﷺ قال له: (اعدد بين يدي الساعة ستاً) والسادسة مما عدّه رسول الله ﷺ (هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً) [البخاري: ٣١٧٦].

والغاية: هي الراية، سميت بذلك لأنها هي غاية المقاتل، فإذا وقف حاملها وقف السائرون تحتها، وإن سار ساروا، وإن سقطت اضطرب الجيش وتفرّق.

وفي السنن لأبي داود بإسناد صحيح أن الرسول ﷺ قال: (ستصالحون الروم صلحاً آمناً، فتغزون أنتم وهم عدواً من ورائكم فتنصرون وتغنمون، وتسلمون، ثم ترجعون، حتى تنزلوا بمرج ذي تلول، فيرفع رجل من أهل النصرانية الصليب، فيقول: غلب الصليب، فيغضب رجل من المسلمين، فيدقّه، فعند ذلك تغدر الروم وتجمع للملحمة).

وزاد في رواية: (ويثور المسلمون إلى أسلحتهم، فيكرم الله تلك العصابة بالشهادة) [رواهما أبو داود في سننه ورقمهما فيه: ٤٢٩٢، ٤٢٩٣ وحكم عليها الألباني بالصحة في صحيح سنن أبي داود ٣٦٠٧، ٣٦٠٨].

هذا هو السبب الذي يؤدي إلى تلك المعركة الكبرى كما بيّنته الأحاديث الصحيحة بجلاء، ويعد كل من المسلمين والنصارى غاية ما يستطيعه للمعركة الفاصلة، ففي الحديث يقول الرسول ﷺ : (عدو

يَجْمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهل الإسلام) وغاية ما يجمعه الصليبيون لتلك المعركة من جميع البلاد النصرانية تسعمائة وستون ألفاً، كما دلت عليه الأحاديث، إذ يأتون تحت ثمانين راية، تحت كل راية اثنا عشر ألفاً، وينزلون في موضع يسمى الأعماق أو دابق، وهما - كما يقول النووي - مكانان معروفان قرب مدينة حلب.

والقوة الرئيسية التي تقدم لمواجهة تلك الحرب تأتي من المدينة المنورة، وتنزل القوات الإسلامية في الغوطة قرب مدينة دمشق، فعن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قال: (إن فسطاط المسلمين يوم الملحمة بالغوطة إلى جانب مدينة يقال لها دمشق، من خير مدائن الشام) [سنن أبي داود: ٤٢٩٨ وحكم عليه الألباني بالصحة في صحيح أبي داود: ٣٦١١].

وهذا الجيش كما يقول الرسول ﷺ : (من خيار أهل الأرض يومئذ) ولا تقتصر القوة الإسلامية على ذلك الجيش المدني، فالمسلمون يجمعون قواتهم من كل أمصار المسلمين، يدلك على ذلك أن الذي يحسم المعركة لصالح المسلمين هو وصول القوات التي تقاطرت من شتى بقاع الدولة الإسلامية، ففي الحديث: (فإذا كان اليوم الرابع، نهد إليهم بقية أهل الإسلام).

ومن الطريف أن عدداً كبيراً من الجيش الإسلامي القادم من المدينة من النصارى الذين أسرهم المسلمون في حروب سابقة، فهداهم الله إلى الإيمان لما خالطوا المسلمين، وأصبحوا مجاهدين لأقوامهم، ولذلك فإن القوات النصرانية بعد اصطفاف الفريقين للمواجهة تطلب من قيادة الجيش الإسلامي أن يخلوا بينهم وبين الذين سبوا منهم ليقاتلوهم منفردين، فيأبى المسلمون؛ لأن هؤلاء أصبحوا إخواناً لهم في دين الله، وثانياً: لأن انقسام

الجيش الإسلامي إلى قسمين على النحو الذي طلبه العدو يضعف المسلمين، ويعطي العدو فرصة النصر، لأنهم سيقاتلون بكامل قوتهم جزءاً من الجيش الإسلامي، واحداً بعد الآخر.

ويدخل الجيشان في معركة حامية الوطيس، ينهزم فيها ثلث الجيش الإسلامي، وهؤلاء لا يوفقون للتوبة بعد هزيمتهم أبداً، ويسقط ثلث الجيش قتلى، وهؤلاء أفضل الشهداء عند الله، ويفتح الله على الثلث الباقي، فيحققون النصر، ويحطمون القوة الظالمة الغاشمة الناقضة للعهود والمواثيق.

وتستمر المعركة ثلاثة أيام كاملة من الفجر إلى أن يحجز ظلام الليل بين الفريقين، وفي كل يوم من الأيام الثلاثة يتعاهد مجموعة من أبطال المسلمين على أن يقاتلوا إلى أن ينتصروا على الأعداء، أو يسقطوا صرعى في ميدان القتال، وفي كل يوم من الأيام يقتل جميع المتشارطين المتبايعين على القتال حتى النصر أو الشهادة.

وعلى مدار الأيام الثلاثة للمعركة تبقى قوة الجيشين متعادلة، كما قال الرسول ﷺ واصفاً حال الجيشين في تلك الأيام (يقتتلون حتى يحجز الليل بينهم، فيبقى هؤلاء وهؤلاء كلٌّ غير غالب).

وفي اليوم الرابع يصل مدد هائل من مختلف أصقاع العالم الإسلامي، فتدور الدائرة على العدو الصليبي، ويولون الأدبار منهزمين، (ويقتلون مقتلة إما لا يرى مثلها) وإما قال: (لم يُرَ مثلها حتى إن الطائر ليمرُّ بجنباتهم، فما يخلفهم حتى يخرّ ميتاً، فيتعاد بنو الأب كانوا مائة، فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد، فبأي غنيمة يفرح؟ أو أي ميراث يقاسم؟).

وبعد النصر الباهر الذي حققه المسلمون في المعركة، يتجهون مع شدة ما أصابهم من البلاء واللأواء إلى المصدر الذي جاءت منه تلك الجيوش للقضاء

على مصدر الخطر قضاءً مبرماً، والمصدر الذي جاءت منه تلك الجيوش القسطنطينية، ويبدو أن جُلّ الجيش الذي يغزو القسطنطينية بعد المعركة ليسو من العرب، فالعرب في تلك الأيام كما قال الرسول ﷺ (قليل).

فقد أخبر الرسول ﷺ أن ذلك الجيش هم من بني إسحاق، ففي الحديث الذي يرويه أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: (سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر، قالوا: نعم يا رسول الله، قال: لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحاق) [مسلم: ٢٩٢٠].

ولعل هؤلاء من الطائفة التي سُبِيَت من النصارى وتحولت إلى الإسلام وطلب النصارى من المسلمين قبيل الملحمة أن يخلّوا بينهم وبينهم ليقاتلوهم وحدهم، قبل التحام كامل الجيشين كما سبق بيانه.

ومن المعلوم أن النصارى من ذرية إسحاق،فهم أبناء العيص بن إسحاق ابن إبراهيم الخليل كما أفاده ابن كثير [انظر النهاية في الملاحم والفتن، لابن كثير، ص ٤٦] وقد أخبر الرسول ﷺ أن الجيش الإسلامي في حصاره لتلك المدينة، وفتحه لها لا يقاتلون بسلاح، ولا يرمون بسهم، فإنهم إذا قالوا: لا إله إلا الله ، والله أكبر، فيسقط أحد جانبيها الذي في البحر، ثم يقولون الثانية: لا إله إلا الله، والله أكبر، فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولون الثالثة: لا إله إلا الله، والله أكبر، فيفرج لهم فيدخلونها، فيغنموا) [انظر الحديث السابق في مسلم: ٢٩٢٠].

لقد أكرم الله ذلك الجيش في فتحه لتلك المدينة، فبمقدار ما نالهم من العناء في النصر الذي حققوه في الملحمة، فإنهم حققوا الفتح للمدينة الحصينة، فإذا بحصونها تتهاوى بتهليلهم وتكبيرهم.

ولكن الجيش الفاتح لا ينعم بالغنائم التي غنموها، ولا يتمون اقتسامها فيما بينهم، إذ جاءهم من الأخبار ما جعلهم يلقون بالغنائم، ويكرون إلى بلادهم عائدين، ففي الحديث: (فبينما هم يقتسمون الغنائم، قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون وذلك باطل) [مسلم: ٢٨٩٧] وعند ذلك (يرفضون ما في أيديهم، ويقبلون) [مسلم: ٢٨٩٩] أي: يقبلون عائدين إلى ديارهم في بلاد الشام حيث مقر الجيوش الإسلامية. ففي الحديث: (فإذا جاؤوا الشأم خرج) (مسلم: ٢٨٩٧).

وأخبر الرسول ﷺ أن الجيش العائد إلى الديار (يبعثون عشرة فوارس طليعة) قال ﷺ في هؤلاء الفوارس العشرة: (إني لأعرف أسماءهم، وأسماء آبائهم، وألوان خيولهم، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ، أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ).

ويخرج الدجال بعد العودة إلى الديار، فيقاتلونه، وفي تلك الفترة ينزل المسيح عيسى ابن مريم، فيقضي على الدجال وفتنته كما سيأتي بيانه في القصة التالية.

إشكال وجوابه

هناك إشكال يثيره بعض الناس قديماً وحديثاً مفاده: كيف تدّعون أن القسطنطينية ستُفتح بعد الملحمة، قبيل خروج الدجال مع أنها فُتحت قديماً على يد القائد المسلم: محمد الفاتح.

والجواب: أن هناك فتحين لهذه المدينة، **الأول**: هو الذي وقع وحدث على يد محمد الفاتح سنة [٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م]، وهذا لا شك فيه، لأنه وقع

وحصل وعلمه القاصي والداني، ولا مجال لإنكاره، والوقوع والحصول أقوى أدلة الوجود. وهذا الفتح هو المذكور في حديث عبدالله بن عمرو، قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ سئل: أي المدينتين تُفتح أولاً، قسطنطينية أو رومية، قال: (لا بل مدينة ابن هرقل، تفتح أولاً، يعني القسطنطينية). حديث صحيح رواه أبو عمرو الداني ورقمه: [٦٠٨] ورواه أحمد في مسنده برقم [٦٦٤٥]. وأورده الألباني في الصحيحة: [١/ ٧] رقم (٤). وهذا الفتح هو الذي قال فيه الرسول ﷺ : (لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش) [أخرجه الحاكم: ٨٣٠٠، وصححه الذهبي، وهو في مسند أحمد برقم: ١٩١٠ وإسناده صحيح].

والثاني: هو الذي سيقع قرب قيام الساعة على النحو الذي تحدثنا عنه فيما سبق، فذلك الفتح يكون كما دلت عليه الأحاديث بوضوح، يكون بعد الملحمة، وقبل أن تطأ رجل الدجال بلاد الشام، وتُفتح على غير الطريقة التي فتح بها محمد الفاتح المدينة.

ويدل لصحة هذا الفتح ما صحّ عن أنس من قوله: (فتح القسطنطينية مع قيام الساعة) [سنن الترمذي: ٢٢٣٩]. وهو حديث صحيح موقوف كما قال الألباني في [صحيح الترمذي: ٢/ ٢٤٨].

ويدل لصحة وقوع الفتح الثاني أيضاً أن الرسول ﷺ حدد ترتيب وقوعه بين جملة من وقائع آخر الزمان. ففي حديث معاذ أن رسول الله ﷺ قال: (عمارة بيت المقدس خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية، وفتح القسطنطينية خروج الدجال). رواه أبو عمرو الداني، ورقمه [٤٥٨]. وأخرجه أبو داود في سننه، ورقمه:

[٤٢٩٤] وحكم الألباني عليه في صحيح أبي داود بالحسن [٣٦٠٩] وحسّنه أيضاً في تخريج المشكاة [٥٤٢٤].

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- هذا الحديث وأمثاله يدلنا على بعض فوائد الأحاديث المتحدثة عن الغيب الآتي، ففيها بشرى للمسلمين بأن الإسلام باقٍ إلى قيام الساعة، وأنه ستبقى للمسلمين قوة غالبة قاهرة، تواجه أعتى القوى، وتنتصر عليها.

٢- التعريف بالملحمة، وهي المعركة الكبرى على مدار التاريخ الإنساني، وتحديد موقع الجيوش المتحاربة، وتحديد موقع كل من قيادة الجيشين، وأعداد جيش العدو، وغير ذلك.

٣- وجوب تصويب أهل العلم لما يقع فيه العوام ومن لا علم عندهم من أخطاء في أحداث الغيب الآتي، فقد زعم ذلك الرجل الذي جاء ابن مسعود أن الساعة وقعت وقامت، فصحح له ابن مسعود ما وقع فيه من خطأ، واستدل على عدم وقوعها بعدم حصول أماراتها.

٤- يبدو أن الجيش الإسلامي يكون قليل العدد عندما تبدأ المعركة، فيعوّض أبطال الإسلام القلة بالاستبسال الذي بلغ الذروة عند الذين يتبايعون على القتال حتى النصر أو الشهادة.

٥- سيبقى للمدينة المنورة شأن عظيم حتى قيام الساعة، يدل على ذلك أن الجيش المقاتل الذي سيخرج لمواجهة الروم يكون اجتماعه في المدينة المنورة، ومنها ينطلق حتى يحط رحاله في الغوطة قرب دمشق.

٦- قلة العرب في آخر الزمان، وحمل غير العرب لهذا الدين، وقتالهم عليه، وقد وقع مثل هذا في كثير من المعارك الفاصلة، فالقدس عادت لحضن المسلمين بعد احتلال الصليبيين لها بقيادة صلاح الدين الكردي، والمماليك بقيادة قطز هم الذين هزموا التتار في عين جالوت.

٧- تتحدث الأحاديث عن حرب تقليدية، تحارب فيها الجيوش بالسيوف، ويركب المقاتلون فيها الخيول، وتلتحم فيها الجيوش، فإن صحّ هذا الفقه، فإن القوة المتمثلة اليوم في الصواريخ والقنابل ونحوها ستبيد بعد أن تدمر هذه الحضارة الموجودة اليوم، ويعود بقية البشر إلى الحال التي كانوا عليها قبل وجود أسلحة الدمار التي نعرفها اليوم.

٨- يجوز للمقاتلين المسلمين التعاهد والتبايع على القتال حتى النصر أو الشهادة، كما بايع الرسول ﷺ أصحابه يوم الحديبية تحت الشجرة على القتال حتى النصر، وأن لا يفروا من المعركة، ووقع مثل هذا في معركة اليرموك وغيرها من المعارك.

٩- بقاء دين النصارى حتى آخر الزمان، ولكن سينقضي ذلك الدين المحرف، ويبيد بعد نزول عيسى، إذ لا يقبل من أحد الجزية، فإما الإسلام أو القتل، فيدخل النصارى في دين الإسلام، وتهلك الأديان في عصره.

١٠- ستبلغ هذه الأحاديث إلى القيادات والجيوش الإسلامية التي تخوض معارك آخر الزمان، وسيستفيدون منها في مواجهتهم لأعدائهم، وستكون تلك الأحاديث مما يثبتهم في حربهم وسلمهم.

* * *



تقديم

أخبرنا الرسول ﷺ أنه يخرج (بين يدي الساعة قريب من ثلاثين دجالين كذابين كلهم يقول: أنا نبي، أنا نبي). [قال الألباني فيه: رواه أحمد والشيخان، قصة المسيح: ص ٦٦]. وانظر: [مسند الإمام أحمد: ١٢/ ١٦٥ ورقمه: ٧٢٢٨].

وأعظم هؤلاء الدجالين المسيح الدجال، إذ فتنته أعظم فتنة في التاريخ، إذ لا يقتصر على دعوى النبوة كما يفعل غيره من الدجالين، بل يدّعي الربوبية أيضاً.

وأخبار الدجال تتضمن أربع قصص، كلها لها علاقة بالدجال الأكبر.

الأولى: قصة مقابلة تميم الداري وجماعة من أصحابه الدجال الأكبر في عهد الرسول ﷺ .

والثانية: قصة ابن صياد الذي تشكك الرسول ﷺ وأصحابه في كونه الدجال الأكبر.

والثالثة: قصة خروج الدجال الأكبر في آخر الزمان.

والرابعة: قصة مواجهة العالم الصالح المدني الدجال وما جرى بينه وبينه، وسنعرض القصة الرابعة مع القصة الثالثة، لأنها تقع ضمنها.



القِصَّةُ الرَّابِعَةُ والأربعُون
لقاء تميم الداري الدجال

تمهيد

هذه قصة رجل من أهل فلسطين قابل الدجال في إحدى أسفاره في إحدى جزائر البحور، وكان مما قاله الدجال: إن اتّباع الأميين للرسول ﷺ خير لهم لو كانوا يعلمون، فلما عاد تميم من سفرته إلى دياره، هاجر إلى المدينة وأسلم، وحدّث الرسول ﷺ بخبره، فجمع الرسول ﷺ أصحابه وحدّثهم بقصته، ولاشك أن هذه القصة صحيحة، وإلا لما حدّث الرسول ﷺ أصحابه بها، وما كان الله ليرضى أن يحدّث رسوله بخبر كذب، فالله يغار على رسوله أن يحدّث بالأكاذيب، وما كان لتميم وقد أسلم أن يكذب على رسول الله في حديثه.

نص الحديث

روى مسلم في صحيحه عن عَامِرِ بْنِ شَرَاحِيلَ الشَّعْبِيِّ، شَعْبُ هَمْدَانَ؛ أَنَّهُ سَأَلَ فَاطِمَةَ بِنْتَ قَيْسٍ، أُخْتَ الضَّحَّاكِ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَتْ مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ الأُوَلِ. فَقَالَ: حَدِّثِينِي حَدِيثاً سَمِعْتِيهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، لاَ تُسْنِدِيهِ إِلَى أَحَدٍ غَيْرِهِ. فَقَالَتْ: لَئِنْ شِئْتَ لأَفْعَلَنَّ، فَقَالَ لَهَا: أَجَلْ، حَدِّثِينِي.

فَقَالَتْ: نَكَحْتُ ابْنَ الْمُغِيرَةِ، وَهُوَ مِنْ خِيَارِ شَبَابِ قُرَيْشٍ يَوْمَئِذٍ، فَأُصِيبَ فِي أَوَّلِ الْجِهَادِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَلَمَّا تَأَيَّمْتُ خَطَبَنِي عَبْدالرَّحْمَنِ

ابْنُ عَوْفٍ، فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَخَطَبَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى مَوْلاَهُ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، وَكُنْتُ قَدْ حُدِّثْتُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (مَنْ أَحَبَّنِي فَلْيُحِبَّ أُسَامَةَ). فَلَمَّا كَلَّمَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ قُلْتُ: أَمْرِي بِيَدِكَ، فَأَنْكِحْنِي مَنْ شِئْتَ.

فَقَالَ: (انْتَقِلِي إِلَى أُمِّ شَرِيكٍ)، وَأُمُّ شَرِيكٍ امْرَأَةٌ غَنِيَّةٌ، مِنَ الأَنْصَارِ، عَظِيمَةُ النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ، يَنْزِلُ عَلَيْهَا الضِّيفَانُ. فَقُلْتُ: سَأَفْعَلُ. فَقَالَ: (لاَ تَفْعَلِي، إِنَّ أُمَّ شَرِيكٍ امْرَأَةٌ كَثِيرَةُ الضِّيفَانِ، إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ يَسْقُطَ عَنْكِ خِمَارُكِ، أَوْ يَنْكَشِفَ الثَّوْبُ عَنْ سَاقَيْكِ، فَيَرَى الْقَوْمُ مِنْكِ بَعْضَ مَا تَكْرَهِينَ، وَلَكِنِ انْتَقِلِي إِلَى ابْنِ عَمِّكِ، عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ) (وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي فِهْرٍ، فِهْرِ قُرَيْشٍ، وَهُوَ مِنَ الْبَطْنِ الَّذِي هِيَ مِنْهُ) فَانْتَقَلْتُ إِلَيْهِ.

فَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتِي سَمِعْتُ نِدَاءَ الْمُنَادِي، مُنَادِي رَسُولِ اللهِ ﷺ ، يُنَادِي: الصَّلاَةَ جَامِعَةً، فَخَرَجْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَصَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ . فَكُنْتُ فِي صَفِّ النِّسَاءِ الَّتِي تَلِي ظُهُورَ الْقَوْمِ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلاَتَهُ، جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: (لِيَلْزَمْ كُلُّ إِنْسَانٍ مُصَلاَّهُ). ثُمَّ قَالَ: (أَتَدْرُونَ لِمَ جَمَعْتُكُمْ؟) قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: إِنِّي، وَاللهِ! مَا جَمَعْتُكُمْ لِرَغْبَةٍ وَلاَ لِرَهْبَةٍ. وَلَكِنْ جَمَعْتُكُمْ، لأَنَّ تَمِيماً الدَّارِيَّ، كَانَ رَجُلاً نَصْرَانِيّاً، فَجَاءَ فَبَايَعَ وَأَسْلَمَ. وَحَدَّثَنِي حَدِيثاً وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْ مَسِيحِ الدَّجَّالِ.

حَدَّثَنِي: أَنَّهُ رَكِبَ فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ، مَعَ ثَلاَثِينَ رَجُلاً مِنْ لَخْمٍ وَجُذَامَ، فَلَعِبَ بِهِمُ الْمَوْجُ شَهْراً فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ أَرْفَؤُوا إِلَى جَزِيرَةٍ فِي الْبَحْرِ حَتَّى

مَغْرِبِ الشَّمْسِ، فَجَلَسُوا في أَقْرُبِ السَّفِينَةِ، فَدَخَلُوا الْجَزِيرَةَ، فَلَقِيَتْهُمْ دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرُ الشَّعَرِ، لاَ يَدْرُونَ مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كَثْرَةِ الشَّعَرِ، فَقَالُوا: وَيْلَكِ! مَا أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: أَنَا الْجَسَّاسَةُ، قَالُوا: وَمَا الْجَسَّاسَةُ؟ قَالَتْ: أَيُّها الْقَوْمُ، انْطَلِقُوا إلى هَذا الرَّجُلِ في الدَّيْرِ، فَإِنَّهُ إلى خَبَرِكُمْ بالأَشْوَاقِ.

قَالَ: لَمَّا سَمَّتْ لَنَا رَجُلاً فَرِقْنَا مِنْهَا أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً، قَالَ: فَانْطَلَقْنَا سِرَاعاً، حَتَّى دَخَلْنَا الدَّيْرَ، فَإِذا فِيهِ أَعْظَمُ إِنْسَانٍ رَأَيْنَاهُ قَطُّ خَلْقاً، وَأَشَدُّهُ وِثَاقاً، مَجْمُوعَةٌ يَدَاهُ إلى عُنُقِهِ، مَا بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى كَعْبَيْهِ، بالْحَدِيدِ. قُلْنَا: وَيْلَكَ؛ مَا أَنْتَ؟ قَالَ: قَدْ قَدَرْتُمْ عَلَى خَبَرِي، فَأَخْبِرُونِي مَا أَنْتُمْ؟

قَالُوا: نَحْنُ أُنَاسٌ مِنَ الْعَرَبِ. رَكِبْنَا في سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ، فَصَادَفْنَا الْبَحْرَ حِينَ اغْتَلَمَ، فَلَعِبَ بِنَا الْمَوْجُ شَهْراً، ثُمَّ أَرْفَأْنَا إلى جَزِيرَتِكَ هَذِهِ، فَجَلَسْنا في أَقْرُبِهَا، فَدَخَلْنَا الْجَزِيرَةَ، فَلَقِيَتْنَا دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرُ الشَّعَرِ، لاَ يُدْرَى مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كَثْرَةِ الشَّعَرِ، فَقُلْنَا: وَيْلَكِ! مَا أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: أَنَا الْجَسَّاسَةُ، قُلْنَا: وَمَا الْجَسَّاسَةُ؟ قَالَتِ: اعْمِدُوا إِلَى هَذا الرَّجُلِ في الدَّيْرِ، فَإِنَّهُ إلى خَبَرِكُمْ بالأَشْوَاقِ، فَأَقْبَلْنَا إِلَيْكَ سِرَاعاً، وَفَزِعْنَا مِنْهَا. وَلَمْ نَأْمَنْ أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً.

فَقَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ نَخْلِ بَيْسَانَ، قُلْنَا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ؟ قَالَ: أَسْأَلُكُمْ عَنْ نَخْلِهَا، هَلْ يُثْمِرُ؟ قُلْنَا لَهُ: نَعَمْ. قَالَ: أما إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ لاَ تُثْمِرَ.

قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ بُحَيْرَةِ الطَّبَرِيَّةِ، قُلْنَا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ؟ قَالَ: هَلْ فِيهَا مَاءٌ؟ قَالُوا: هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ. قَالَ: أَمَا إِنَّ مَاءَهَا يُوشِكُ أَنْ يَذْهَبَ.

قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ عَيْنِ زُغَرَ، قَالُوا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ؟ قَالَ: هَلْ في الْعَيْنِ مَاءٌ؟ وَهَلْ يَزْرَعُ أَهْلُهَا بِمَاءِ الْعَيْنِ؟ قُلْنَا لَهُ: نعم، هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ، وَأَهْلُهَا يَزْرَعُونَ مِنْ مَائِهَا.

قَالَ: أخبِرُونِي عَنْ نَبِيِّ الأُمِّيِّينَ مَا فَعَلَ؟ قَالُوا: قَدْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ وَنَزَلَ يَثْرِبَ. قَالَ: أَقَاتَلَهُ الْعَرَبُ؟ قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَ: كَيْفَ صَنَعَ بِهِمْ؟ فَأَخْبَرْنَاهُ أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ عَلَى مَنْ يَلِيهِ مِنَ الْعَرَبِ وَأَطَاعُوهُ. قَالَ لَهُمْ: قَدْ كَانَ ذلِكَ؟ قُلْنَا: نَعَمْ.

قَالَ: أَمَا إِنَّ ذاكَ خَيْرٌ لَهُمْ أنْ يُطِيعُوهُ، وَإِنِّي مُخْبِرُكُمْ عَنِّي، إِنِّي أَنَا الْمَسِيحُ الدَّجَالُ، وَإِنِّي أُوشِكُ أنْ يُؤْذَنَ لي في الْخُرُوجِ، فَأَخْرُجُ فَأَسِيرُ في الأَرْضِ فَلاَ أَدَعَ قَرْيَةً إِلاَّ هَبَطْتُها في أرْبَعِينَ لَيْلَةً، غَيْرَ مَكَّةَ وَطَيْبَةَ، فَهُمَا مُحَرَّمَتَانِ عَلَيَّ كِلْتَاهُمَا، كُلَّما أَرَدْتُ أنْ أَدْخُلَ وَاحِدَةً، أوْ وَاحِداً مِنْهُمَا، اسْتَقْبَلَنِي مَلَكٌ بِيَدِهِ السَّيْفُ صَلْتاً، يَصُدُّنِي عَنْهَا. وَإِنَّ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْها مَلاَئِكَةً يَحْرُسُونَهَا.

قَالَت: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ ، وَطَعَن بِمِخْصَرَتِهِ في الْمِنْبَرِ (هذِهِ طَيْبَةُ. هَذِهِ طَيْبَةُ. هَذِهِ طَيْبَةُ) يَعْنِي الْمَدِينَةَ (أَلاَ هَلْ كُنْتُ حَدَّثْتُكُمْ ذلِكَ؟) فَقَالَ النَّاسُ: نَعَمْ. (فَإِنَّهُ أَعْجَبَنِي حَدِيثُ تَمِيمٍ، أَنَّهُ وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْهُ وَعَنِ الْمَدِينَةِ وَمَكَةَ، أَلاَ إِنَّهُ فِي بَحْرِ الشَّامِ أَوْ بَحْرِ الْيَمَنِ، لاَ بَلْ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ، مَا هُوَ، مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ، مَا هُوَ، مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ، مَا هُوَ) وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الْمَشْرِقِ. قَالَتْ: فَحَفِظْتُ هَذا مِنْ رَسُولِ الله ﷺ .

تخريج الحديث

الحديث رواه مسلم في صحيحه في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قصة الجساسة، [ورقمه: ٢٩٤٢].

غريب الحديث

تأيمتُ : صرت أيماً، والأيم التي لا زوج لها.

الصلاةَ جامعة	: بنصب الصلاة، كلمة كان ينادى بها إذا أراد الرسول ﷺ جمع المسلمين لأمر ما.
المسيح الدجال	: هما مسيحان، الأول مسيح الهداية وهو عيسى عليه السلام ، وسيأتي ذكره، والثاني مسيح الضلالة الكذاب الأعور، وهو هذا الذي يدّعي الألوهية، وتجري على يديه خوارق عِظام، يفتن بها الناس، سمي مسيحاً لسيره في الأرض كلها في مدة وجيزة، أو لأن عينه ممسوحة لا يرى بها، وسمي دجالاً لكثرة كذبه وتمويهه.
أرفأتُ السفينة	: قربتها إلى الشاطئ وأدنيتها منه، ويسمى الموضع المعد لرسوّ السفن: مرفأ.
أقرب السفينة	: جمع قارب، وهي سفن صغيرة، تحمل في السفن الكبيرة، لتقوم بالأعمال الخفيفة التي يصعب على السفن الكبيرة القيام بها.
أهلب	: الأهلب: العظيم الشعر.
الجساسة	: اسم ذلك المخلوق، سميت بذلك لأنها تتجسس الأخبار للدجال.
اغتلم البحر	: هاج وماج.
إلى خبركم بالأشواق	: شديد التشوق إلى معرفة أخباركم.
الأمي	: الذي لا يعلم الكتابة.
فرقنا منها	: خفنا منها.

أعظم إنسان	: أكبره جثة، أو هيئة وهيبة.
بيسان وطبرية وعين زغر	: مواضع في فلسطين، الأول: اسم مدينة، والثاني: اسم بحيرة، والثالث: اسم قرية، فيها عين جارية.
صلتاً	: مسلولاً.
أنقابها	: النقب الطريق في الجبل.
المخصرة	: عصا أو قضيب أو سوط، يمسكه الخطيب بيده إذا تكلم.

شرح الحديث

حدّث تميمٌ الرسولَ ﷺ أنه ركب البحر هو وجمع من العرب من قبيلتي لخم وجذام يبلغون الثلاثين قاصدين غرضاً من أغراضهم كالتجارة أو نحوها، وهكذا الذين تقع بلادهم على شاطئ البحر كأهل فلسطين، يركبون البحار ويسافرون ويتاجرون.

وتعرضت السفينة لما يتعرض له الذين يركبون ثبج البحر في بعض الأحيان، فقد هاج البحر وماج، وهبّت عليهم العواصف والأعاصير، وطال بهم الحال على ذلك قرابة شهر، لا يرون فيها اليابسة، ولا يعلمون موقع المكان الذي هم فيه.

وكم كانت فرحتهم عظيمة حين أبصروا يوماً عند غروب الشمس جزيرة تراءت لهم من بعيد، فقصدوها لعلهم يجدون فيها ما يطلبه الضائع في البحر، فالضائع يريد أن يعرف موضعه الذي هو فيه، كما يريد أن يتزود

بالماء والطعام، إذ لا شك أن مخزونهم منهما قد نفد أو قارب النفاد. أوقفوا السفينة على مسافة من الجزيرة، فالسفن الكبيرة لعظمها قد لا تستطيع الوصول إلى الشاطئ، فإذا فعلت فإنها تصاب بأضرار قد تدمرها.

وقد دأبت السفن الكبيرة منذ عهد بعيد أن تصحب معها على ظهرها قوارب صغيرة يركبونها إذا وقع للسفينة خراب أو دمار، وقد يستعملونها للوصول إلى اليابسة عندما تعجز السفينة الكبيرة عن بلوغ المكان المقصود.

ركبوا قواربهم بمقدار ما تطيق حمله منهم، وانطلقوا إلى الجزيرة، فكان أول ما قابلهم، دابة كثيرة الشعر، غطى الشعر جسدها، حتى لم يستطيعوا تحديد قُبُلها من دُبُرها.

ففزعوا منها وأخافهم منظرها، وسألوها عن نفسها، فأجابت بلسان عربي مفهم معلم، وأخبرتهم أنها الجساسة، فلما طلبوا منها مزيداً من العلم، لم تفدهم علماً جديداً، وإنما طلبت منهم أن يتجهوا إلى الدير القريب، وأشارت إليه، ففيه رجل مشتاق لسماع ما عندهم من أخبار.

فانطلقوا مسرعين وجلين أن تكون شيطانة، ودخلوا الدير، فإذا بهم يجدون أمامهم أعظم إنسان وقعت عليه أعينهم، وهذا يعني أنه عظيم الجثة، مهيب الطلعة، وكان مقيداً بالقيود، موثقاً بالأغلال أشدّ وثاق، مجموعة يداه إلى عنقه، وأغلال الحديد تملأ ما بين كعبيه إلى ركبتيه.

فبادروه بالسؤال قائلين: ويلك، ما أنت؟ فلم يسارع في التعريف بنفسه، وأخبرهم أنهم قدروا على خبره، ولكن يريد أن يتعرف عليهم أولاً.

فأخبروه عن أنفسهم، وأنهم ناس من العرب، وأخبروه عن ضياعهم في البحر تلك المدة الطويلة، حتى وصلوا إلى جزيرته، وحدثوه عن الجساسة التي قابلتهم وتخوّفهم منها، ودعوتها لهم إلى إتيان الدير ومقابلته.

بعد تلك المعلومات التي عرفوا أنفسهم بها لذلك الرجل، سألهم أربعة أسئلة تقع كلها في دائرة ما يعلمونه، والثلاثة الأولى منها طلب فيها معلومات عن ثلاثة مواقع في فلسطين، **سألهم عن النخل** الذي في مدينة بيسان، وهل لا يزال يثمر، وعقب على إخبارهم له بأنه لا يزال يثمر، بأنه يوشك أن لا يثمر.

وفي السؤال الثاني استعلم عن بحيرة طبرية، وهل يوجد بها ماء، وعندما أعلموه أنها كثيرة الماء، عقب على ذلك بأنه يوشك أن يذهب ماؤها ويتلاشى.

والسؤال الثالث سألهم عن عين زغر، فأخبروه أن ماء تلك العين كثير، وأن أهل القرية القائمة على العين يزرعون من عينها.

لقد سأل ذلك الرجل عن أمور يعلمها المسؤولون عنها، فإنهم من تلك الديار التي سأل عن مواضع منها، ولذلك كانت إجاباتهم صحيحة جداً.

وعقب على إجاباتهم فيما سألهم عنه بما يدل على علمه بحال تلك المواضع في مقبل الزمان، فنخل بيسان يوشك ألا يثمر، وبحيرة طبرية يوشك أن يجف ماؤها، وكذلك عين زغر، وهذا ما يحدث آخر الزمان عندما يجتاح تلك المواضع يأجوج ومأجوج كما سيأتي بيانه.

أما السؤال الرابع فكان عن الرسول ﷺ الذي يخرج بين ظهراني العرب، وقد أخبروه أنه خرج، وأن الله نصره وأظهره على العرب، وهذا يدل على أن وقوع هذه القصة قد تمّ بعد الهجرة إلى المدينة، وبعد أن حقق المسلمون انتصارات باهرة على أعدائهم في الجزيرة العربية.

وقد عقب على ما أخبروه من شأن الرسول ﷺ بقوله: «أما إن ذاك خير لهم أن يطيعوه».

ثم أخبرهم عن نفسه بعد ما حصل على ما عندهم من إجابات فأخبرهم أنه المسيح الدجال، وأنه يوشك أن يُؤذن له بالخروج من أسره الذي هو فيه، وأنه عندما يُؤذن له بالخروج يجتاح العالم فلا يترك مدينة ولا قرية إلا هبطها في مدى أربعين ليلة، غير مكة وطيبة، أي: المدينة، فإنه محرم عليه دخول أيٍّ منهما، فقد وضع الله على أنقابهما من الملائكة من يحرسهما ويمنعه منهما، فكلما جاء باباً أو موضعاً يريد الدخول منه قابلته الملائكة بأيديها السيوف تصده عن الدخول.

لقد كان حديث تميم موافقاً لما كان الرسول ﷺ يحدّث به أصحابه عن المسيح الدجال، فأحب أن يسمعهم ما حدّثهم به، وقال في خاتمة حديثه معرفاً بمكانه: (إنه في بحر الشام) أي: البحر الأبيض المتوسط، (أو بحر اليمن) أي: البحر الأحمر، ثم أضرب عن ذلك قائلاً: (لا بل من قبل المشرق، ما هو من قبل المشرق، ما هو) وأومأ بيده إلى المشرق.

* * *



القِصَّةُ الخَامِسَةُ والأربعون
قصة ابن صياد

تمهيد

وجد في يهود المدينة في عهد الرسول ﷺ غلام يدعى صافي، وشهرته ابن صياد، وكان يتعاطى الكهانة، ويدّعي علم الغيب، واشتهر أمره، وظهرت عليه بعض العلامات التي تشعر بأنه المسيح الدجال، ولم يوحَ للرسول ﷺ في أمره بشيء، فاستعمل الرسول في التعرف على حقيقة أمره ما وهبه الله إياه من قدرات وإمكانات، كالنظر إليه، وسؤاله عن معتقده فيه، وسؤاله عما يأتيه، واختباره ونحو ذلك.

نص الحديث

١ - عن سالم بن عبدالله، عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما أنه أخبرَه: «أن عمرَ انطَلَق في رَهْطٍ من أصحابِ النبيِّ ﷺ معَ النبيِّ ﷺ قِبَلَ ابنِ صَيَّادٍ حتّى وجدَهُ يَلعبُ معَ الغِلمانِ عندَ أُطُمِ بني مَغالةَ، وقد قارب يَومئذٍ ابنُ صيادٍ يَحتلِمُ، فلم يَشعُرْ بشيءٍ حتّى ضَرَبَ النبيُّ ﷺ ظهرَهُ بيدِه، ثمَّ قال النبيُّ ﷺ : أتشهدُ أني رسول الله؟ فنظَر إليه ابنُ صيادٍ فقال: أشهدُ أنكَ رسولُ الأمّيين. فقال ابنُ صيادٍ للنبيِّ ﷺ : أتشهدُ أني رسولُ الله؟ قال لهُ النبيُّ ﷺ : (آمنتُ باللهِ ورُسُلِه).

قال النبيُّ ﷺ : (ماذا ترى؟) قال ابنُ صيادٍ: يأتيني صادقٌ وكاذبٌ. قال النبيُّ ﷺ : خُلِطَ عليكَ الأمرُ. قال النبيُّ ﷺ : إني قد خَبَأتُ لكَ خبيئاً. قال ابنُ صيادٍ: هو الدُّخُّ. قال النبيُّ ﷺ : اخسَأْ، فلن تَعدُوَ قَدْرَك.

قال عمرُ: يا رسولَ الله ائْذنْ لي فيه أضرِبْ عُنقَه.

قال النبيُّ ﷺ : (إن يَكُنْهُ فلن تُسَلَّطَ عليه، وإن لم يكنْ هوَ فلا خَيرَ لكَ في قتلِه).

٢- وقال ابنُ عمرَ: «انطَلَق النبيُّ ﷺ وأُبيُّ بنُ كعبٍ يَأتيانِ النخلَ الذي فيه ابنُ صيادٍ، حتى إذا دخلَ النخلَ طفِقَ النبيُّ ﷺ يَتَّقي بجُذوعِ النخلِ، وهوَ يَختِلُ أن يَسمعَ مِن ابنِ صيادٍ شيئاً قبلَ أن يَراهُ، وابنُ صَيادٍ مُضْطَجِعٌ على فراشهِ في قَطيفةٍ لهُ فيها زَمْزَمَةٌ، فرأت أمُّ ابنِ صيّاد النبيَّ ﷺ وهوَ يَتَّقي بجُذوعِ النخلِ، فقالت لابن صياد: أيْ صافِ - وهو اسمُه - فثارَ ابنُ صيادٍ، فقال النبيُّ ﷺ : (لو تركَتْهُ بَيَّن) ».

تخريج الحديث

الحديثان رواهما البخاري في صحيحه عن ابن عمر في كتاب الجهاد والسير، باب كيف يعرض الإسلام على الصبي، [ورقمهما فيه: ٣٠٥٥، ٣٠٥٦].

وهما في صحيح مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، في باب ذكر ابن صياد، [ورقمهما فيه: ٢٩٣٠، ٢٩٣١].

غريب الحديث

الرهط : الجمع من الناس ما بين الثلاثة والتسعة.

أطم بني مغالة : الأطم الحصن، أي الحصن المنسوب لبني مغالة.

الحلم : البلوغ.

الأميين : العرب.

رفضه : رفض دعواه بإشارة يده وبقوله.

الدخ : جزء من كلمة الدخان، والدخان كلمة من آية خبأها الرسول ﷺ في نفسه لابن صياد ليختبره، فما عرف ابن صياد من الآية إلا جزء كلمة التي هي: الدخ.

لن تعدو قدرك : لن يبلغ قدرك الاطلاع على الغيب الذي يوحى به إلى الأنبياء.

يختله : يأخذه على غفلة.

ثار ابن صياد : هبّ من ضجعته.

شرح الحديث

اشتهر عند الصحابة في عهد الرسول ﷺ أن غلاماً يهودياً يتكلم في أمر الغيوب، ويأتي بتصرفات توحي بأنه الدّجال، فلما كثر الحديث عند رسول الله ﷺ في ذلك ذهب إليه الرسول ﷺ مع بعض أصحابه فيهم عمر ابن الخطاب، فوجده يلعب مع الصبيان عند حصن من حصون المدينة يدعى أطم بني مغالة، فلم يشعر ابن صياد بالرسول ﷺ وصحبه حتى وقف عليه، وضربه بيده في ظهره بين كتفيه.

وفي رواية عند مسلم أن الصبيان عندما رأوا الرسول ﷺ وصحبه فرّوا، أما ابن صياد فجلس، فكره الرسول ﷺ ذلك منه [مسلم: ٢٩٢٤]. وقد

سأله الرسول ﷺ أيؤمن به رسولاً من رب العالمين؟ فنظر ابن صياد للرسول ﷺ ، وقال له: أشهد أنك رسول الأميين، أي: أنه رسول العرب فحسب، ولم يعترف به رسولاً إلى العالمين، وهذا لا يوجب عليه طاعته ومتابعته.

وأسَفّ ابن صياد حين خاطب رسول الله ﷺ سائلاً إياه أيؤمن به رسولاً من عند رب العالمين؟ فأشار رسول الله ﷺ بيده إشارة تدل على رفض ما سأله عنه، وقال وهو يشير بيده: (آمنت بالله ورسله)، أي الذين أرسلهم الله، وابن صياد لم يرسله الله، فهو كافر به، فرفضه بفعله وقوله.

وسأل الرسول ﷺ عما يراه، فقال: «أرى عرشاً على الماء» فقال الرسول ﷺ : (ترى عرش إبليس على البحر، وماذا ترى؟) قال: «أرى صادقين وكاذباً، أو كاذبين وصادقاً» [مسلم: ٢٩٢٥].

لقد أكذب ابن صياد نفسه في دعواه أنه رسول رب العالمين، فالوحي الذي يأتي الرسول صادق أبداً، ليس فيه كذب بحال من الأحوال، بينما الذي يأتي ابن صياد خليط من الصدق والكذب، ولذلك قال له الرسول ﷺ : (خلّط الأمر عليك). وفي رواية عند مسلم أيضاً: (لُبسَ عليه، دعوه) [مسلم: ٢٩٢٥].

وقد وجّه إليه الرسول ﷺ سؤالاً يختبره فيه، فقال له: (إني قد خبأت لك خبيئاً)، وكان الرسول ﷺ قد خبأ له في نفسه قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [الدخان: ١٠] [الترمذي: ٢٢٤٩] فعرف ابن صياد من ذلك الخبيء بعض كلمة، فقال: هو الدخ، فعلم الرسول ﷺ أن هذا الغلام من إخوان الشياطين الذين يعلمون شيئاً من الحقيقة، ويخلطون بها مئات الأكاذيب، ولذلك خاطبه مخاطبة الكلاب فقال له: (اخسأ، فلن تعدو

قدرك). هكذا... اخسأ، فلن يبلغ قدرك أن يأتيك علم الغيب صافياً خالصاً، كما يأتي الوحي الرسل والأنبياء.

ومع ضلال هذا الغلام وتخليطه وفساده إلا أنه كان يملك شخصية قوية، فلم يرعبه مجيء الرسول ﷺ هو وأصحابه إليه، ولم يفرّ كما فرّ بقية الصبيان، وكان يجيب الرسول ﷺ إجابات متأنية واضحة، من غير تلعثم ولا تلكؤ، وكان صادقاً في إجابته للرسول ﷺ ، فذكر ما يراه ويسمعه، ومدى صدق ما يأتيه وكذبه، وبلغت به الجرأة أن سأل الرسول ﷺ إذا ما كان يعترف به نبياً رسولاً.

فلما رأى عمر بن الخطاب ما كان من ابن صياد مع رسول الله ﷺ ، وسمع افتراءه العظيم بدعواه أنه رسول رب العالمين، طلب من الرسول ﷺ أن يأذن له بضرب عنقه، فلم يأذن له بذلك، معللاً لقوله بأن ابن صياد إن كان هو الدجال فلن يستطيع عمر قتله، لأن الله حكم وقضى بوجوده ووقوع فتنته، فلم يكن الله ليأذن لأحد بقتله، حتى يقتله عيسى ابن مريم، كما صحّ في الأحاديث.

وإن لم يكن ابن صياد هو الدجال، فلا خير في قتله.

وكان عمر بن الخطاب يحلف بالله على أن ابن صياد هو الدجال أمام الرسول ﷺ ، والرسول ﷺ لا يُنكر عليه ذلك [صحيح البخاري: ٧٣٥٥، ومسلم: ٢٩٢٩].

وذهب إليه الرسول ﷺ مرة أخرى في النخل الذي يسكن فيه، وكان يريد أن يراه على حاله من غير أن يعلم بأنه يراقبه وينظر إليه، ولذلك كان الرسول ﷺ يسير إليه متّقياً بجذوع النخل، حتى وقف عليه، وكان

مضطجعاً في قطيفة له، ولكن أم ابن صياد أفسدت على الرسول ﷺ تدبيره، فقد أخبرت ابنها بموضع رسول الله ﷺ ، فترك ما هو عليه، وقام من مقامه، ولو تركته على حاله لاستطاع الرسول ﷺ أن يكشف حاله.

لقد تخوّف الرسول ﷺ أن يكون ابن صياد هو الدجال، ولم يوحَ له فيه ما يقرر ذلك أو ينفيه، ولم يُعلِم الرسولُ ﷺ أصحابَه فيه بأمر قاطع، فبقوا مختلفين فيه بين نافٍ ومثبت.

لقد كان عمر يحلف في محضر الرسول ﷺ أن ابن صياد هو الدجال، فلم يُنكر عليه حلفانه، وبعض الصحابة حلفوا كحلف عمر مستدلين على ذلك بتقرير الرسول ﷺ عمر على حلفانه، كما وقع لجابر بن عبدالله [البخاري: ٧٣٥٥، ومسلم: ٢٩٢٩] وتوفي الرسول ﷺ ، وبقي ابن صياد بعده في المدينة، وبقي بعض الصحابة يشكون في أمره، وقد آذى هذا ابن صياد وأثاره في بعض الأحيان، هذا عبدالله بن عمر يلقي ابن صياد في بعض طرق المدينة، فإذا بعينه نافرة، فأثار ذلك ابن عمر، فقد وُجِدَتْ في ابن صياد صفة قربته من الدجال، فأعظم صفات الدجال أنه أعور العين اليمنى، كأن عينه عنبة طافئة، فسألَ ابنَ صيادٍ فقال له: «متى فعلت عينك ما أرى؟ فقال: لا أدري». فقال له: «لا تدري وهي في رأسك» فأثار هذا الحوار ابن صياد، ذلك أنه كان يبلغه عن ابن عمر تشككه فيه، فغضب غضباً شديداً، فقال له إن شاء الله خلقها في عصاك هذه، ثم نخر كأشدّ نخير حمار، ثم انتفخ انتفاخاً عظيماً ملأ السكة، أي الطريق.

فغاظ هذا الذي فعله ابنُ صياد ابنَ عمر، وأهاجه، وهجم عليه يضربه بعصاه حتى تكسرت، ولم يكن يدري بالذي يفعله، حتى أخبره بعض أصحابه بما كان منه [مسلم: ٢٩٣٢].

لقد كان في ابن صياد بعض الدلائل التي في المسيح الدجال، ولكن هناك علامات كثيرة أخبر بها الرسول ﷺ عنه لم توجد في ابن صياد، أو كان ابن صياد يخالف فيها الدجال، وقد كان ابن صياد يدفع عن نفسه هذه التهمة التي يصفونه بها.

يحدثنا أبو سعيد الخدري ﷺ أنه خرج في جمع من أهل المدينة، قاصدين العمرة أو الحج، وكان فيهم ابن صياد، فنزلوا منزلاً، فتفرق الناس يستظلون من حرارة الشمس بظل الشجر، وبقي أبو سعيد مع ابن صياد، قال: «فاستوحشت منه وحشة شديدة مما يقال عليه أنه الدجال، وجاء ابن صياد بمتاعه فوضعه مع متاع أبي سعيد.

فقال له: إن الحر شديد، فلو وضعته تحت تلك الشجرة، ففعل» ثم رأوا بعض الغنم قريباً منهم، فانطلق ابن صياد بقدح كبير، فحلب به من تلك الغنم، وجاء به أبا سعيد ممتلئاً حليباً، فقال له: «اشرب أبا سعيد» فاعتذر إليه بشدة حرارة الجو، مما يجعل اللبن حاراً يؤذي شاربه، ولم يكن الأمر كذلك، ولكنه اعتذر بذلك حتى لا يشرب من يده.

لقد كان ابن صياد مدركاً للضيق الذي فيه أبو سعيد، والسبب الذي جعله كذلك، ولذلك توجه إلى أبي سعيد يحاوره فيما وقر في صدره عنه، ويورد له الدلائل التي تكذّب ما قام في نفسه.

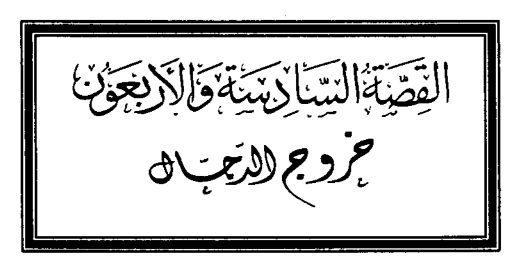
قال ابن صياد لأبي سعيد: «أبا سعيد، لقد هممت أن آخذ حبلاً، فأعلقه بشجرة، ثم أختنق مما يقول لي الناس. يا أبا سعيد، من خفي عليه حديث رسول الله ﷺ ما خفي عليكم معشر الأنصار، ألست من أعلم الناس بحديث رسول الله ﷺ ؟ يزعمون أني الدجال، أليس قد قال رسول

الله ﷺ : (هو كافر) وأنا مسلم؟ قال: بلى، قال: أو ليس قد قال رسول الله ﷺ : (هو عقيم لا يولد له) وقد تركت ولدي في المدينة؟ أو ليس قد قال رسول الله ﷺ : (لا يدخل المدينة ولا مكة)؟ وقد أقبلت من المدينة وأنا أريد مكة؟ وفي رواية: «**وقد حججت**».

لقد جاء ابن صياد بفيض من النصوص كان أبو سعيد يحفظها عن الرسول ﷺ ، فاحتج ابن صياد عليه ليرد ما قام في نفسه ونفوس غيره، ولكن يبدو أن ابن صياد لا يريد أن يسقط التهمة تماماً عن نفسه، فبعد أن كاد أبو سعيد أن يقتنع بأنه بريء من هذه التهمة، إذا به يقول له قولاً يثير الريبة في نفسه من جديد، لقد قال له بعد كلامه السابق: «أما والله، إني لأعرفه، وأعرف مولده، وأين هو الآن». وذكر أبو سعيد أنه قيل له: «أيسرك أنك ذلك الرجل (أي الدجال). فقال: لو عرض عليّ ما كرهت» (مسلم: ٢٩٢٦].

إن بعض الناس، ومنهم ابن صياد يريد أن يبقى مدار اهتمام الناس، وموضع حديثهم في منتدياتهم ومجامعهم، ويتألم إذا ترك الناس ذكره، حتى لو كان ذلك في الشر.

* * *



القصة السادسة والأربعون
خروج الدجال

تمهيد

قصة المسيح الدجال قصة واضحة المعالم في صحيح الحديث النبوي، وقد حددت الأحاديث وقت خروجه، ومكانه، وتحدثت عن صفاته التي يتصف بها، وأهدافه التي يريد تحقيقها، وفصلت القول فيما يجري على يديه من خوارق العادات، التي تفتن الناس، وتجعل كثيراً منهم يصدقونه ويتبعونه، وتحدثت النصوص عما يكون منه من اجتياح للأرض إلا مواضع قليلة منها، وكيف أنه يريد تدمير القوة الإسلامية في ديار الإسلام، وكيف يُنزِل الله المسيحَ عيسى ابن مريم، فيكون تدمير قوته وقتله وإفناء جيشه على يديه. والدجال وإن كان سيخرج آخر الزمان، إلا أنه مخلوق موجود منذ عهد الرسول ﷺ كما دلّ عليه حديث تميم الداري.

وقد قال ابن صياد لأبي سعيد الخدري: «أما والله إني لأعلم الآن حيث هو، وأعرف أباه وأمه» وفي رواية: «إني لأعلم مولده ومكانه، وأين هو» [مسلم: ٢٩٢٧].

نص الحديث

عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ، قَالَ: «ذَكَرَ رَسُولُ الله ﷺ الدَّجَّالَ ذاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ، حَتَّى ظَنَنَّاهُ في طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذلِكَ

فِينَا. فَقَالَ: (مَا شَأْنُكُمْ؟) قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً، فَخَفَّضْتَ فيهِ وَرَفَّعْتَ، حَتَّى ظَنَنَّاهُ في طَائِفَةِ النَّخْلِ.

فَقَالَ: (غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ، إنْ يَخْرُجْ، وَأَنَا فِيكُمْ، فأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ. وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَافِئَةٌ، كأَنِّي أُشَبِّهُهُ بعَبْدِ الْعُزَّى ابْنِ قَطَنٍ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ، إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّأْمِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاثَ يَميناً وَعَاثَ شِمَالاً، يَا عِبَادَ اللهِ! فَاثْبُتُوا).

قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَمَا لَبْثُهُ في الأَرْضِ؟ قَالَ: (أَرْبَعُونَ يَوْماً، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، ويَوْمٌ كَشَهْرٍ، ويَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ) قُلْنا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ فَذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ، أَتَكْفِينَا فيهِ صَلاَةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: (لاَ، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ).

قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا إِسْرَاعُهُ في الأَرْضِ؟ قَالَ: (كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ، فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ، فَيُؤْمِنُونَ بهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ، أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذرًا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعاً، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ، فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ. فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِبِ النَّحْلِ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلاً مُمْتَلِئاً شَبَاباً، فَيَضْرِبُهُ بالسَّيْفِ، فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ. يَضْحَكُ.

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذلِكَ إذ بَعَثَ اللهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعاً كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إذا

طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإذا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلاَ يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إلاَّ مَاتَ، وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ. فَيَقْتُلُهُ. ثُمَّ يَأْتِي عيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللهُ مِنْهُ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ، وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ)).

تخريج الحديث

رواه مسلم في صحيحه في كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، [ورقمه: ٢٩٣٧] وأحاديث الدجال الصحيحة كثيرة، رواها عدد كثير من الصحابة، ورواها الشيخان وأصحاب السنن وغيرهم، وهي دالة على خروجه آخر الزمان دلالة متواترة، لا شك فيها عند علماء أهل الحديث، وقد تواتر أيضاً ذكر بعض صفاته كَعَوَرِهِ. وسيأتي في شرحي للحديث جملةً من الأحاديث الصحيحة التي تحذر منه، وتبين أحواله وصفاته.

غريب الحديث

ذات غداة : في صبيحة يوم.

خفض ورفع : حقّره مرة، وعظّمه وفخّمه أخرى.

طائفة النخل : جماعة النخل.

قطط : شعره جعد شديد الجعودة.

خلّة بين الشام والعراق : أي في طريق بينهما.

عاث : أفسد، والعيث الفساد.

اقدروا له قدره : قدّروا زماناً بمقدار يوم، وقدّروا للصلوات الخمس بمقدارها التي تعرفونها في الأيام المعتادة.

سارحتهم : مواشيهم التي تساق أول النهار إلى المرعى.

يعاسيب النحل : هي ذكور النحل.

جزلتين : يقطعه قطعتين، أو يشقّه نصفين.

رمية الغرض : يجعل بينهما مسافة بمقدار المسافة التي يتركها الرامي بينه وبين الهدف الذي يتمرن على رمايته.

مهرودتان : ثوبان مصبوغان بورس، ثم زعفران.

باب لد : هي مدينة اللد المعروفة اليوم قرب القدس.

شرح الحديث

١- تحذير الرسول ﷺ أصحابه وأمّته من الدّجال:

يخبرنا النواس بن سمعان ﷺ أن الرسول ﷺ ذكر لأصحابه الدجال في صبيحة أحد الأيام، فخفّض فيه ورفع، أي ذكر ما لديه من عظائم الأمور التي تفخّم أمره، وما فيه من النقائص والعيوب التي تهوّنه وتحقّره.

وقد أثرت تلك الخطبة في الصحابة أيما تأثير، حتى لقد ظنوا أن الدجال قد صبحهم في ناحية من نواحي نخل المدينة، بل إن بعضهم انطلق إلى ذلك النخل يتجسس أخباره هناك.

ولعظم فتنة الدجال وما يحدثه من شر فإن الأنبياء والرسل كلهم من أولهم وهو نوح إلى آخرهم وخاتمهم محمد ﷺ حذروا منه أممهم، وبما أنه لم يخرج في الأمم السابقة، فقد تعين خروجه في هذه الأمة؛ لأنها آخر الأمم، ورسولها آخر الرسل.

ولذلك كان من البدهي أن يكون تحذير الرسول ﷺ منه أعظم من تحذير كل الرسل والأنبياء، وقد حذر الرسول ﷺ منه في المجالس والمجامع، وتكلم في شأنه مع الرجال والنساء، وتحدّث عنه في خطبه وأعظمها خطبة حجة الوداع يوم الحج الأكبر، وقد وصفه فيها وصفاً دقيقاً، وذكر من صفاته وعيوبه الخلقية ما يجعل من يراه يتعرف إليه سريعاً من غير عناء، ووصْفُ الرسول ﷺ له وَصْفُ من شاهده ورآه، وقد شاهده ﷺ في الرؤيا، ورؤيا الأنبياء حق.

ومن جملة الأحاديث الصحيحة المحفوظة التي حذر الرسول ﷺ فيها من الدجال:

أ- حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قام رسول الله ﷺ في الناس، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال فقال: (إني لأنذركموه، وما من نبي إلا أنذره قومه، لقد أنذره نوح قومه، ولكني أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه: تعلمون أنه أعور، وأن الله ليس بأعور) [البخاري في مواضع من صحيحه: ٣٠٥٧، ٣٣٣٧، ومسلم: ١٦٩ بعد الحديث رقم: ٢٩٣١].

ب- وروى أحمد وابن منده وابن حبان بإسناد صحيح على شرط الشيخين، أن الرسول ﷺ قال: (ما بعث الله من نبي إلا قد أنذره أمته، لقد أنذره نوح أمته، والنبيون عليهم الصلاة والسلام من بعده أممهم) [قصة المسيح للألباني: ص ٥٢].

ج- حديث النواس بن سمعان الذي اعتمدنا عليه في ذكر قصته.

د- وتحدث الرسول ﷺ عن الدجال في خطبة حجة الوداع فأطنب في الحديث عنه، وكان مما قاله: (ما بعث الله من نبي إلا أنذر أمته، أنذره نوح والنبيون من بعده، وإنه يخرج فيكم، فما خفي عليكم من شأنه فليس يخفى عليكم: إن ربكم ليس على ما يخفى عليكم - ثلاثاً - إن ربكم ليس بأعور، وإنه أعور عين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية) [البخاري: ٤٤٠٢ عن ابن عمر].

٢- الموقف الصواب من الدجال:

لم يكن الرسول ﷺ وهو يحدّث أصحابه عن الدجال وفتنته يريد أن يشلّ حركتهم، ويشغل أوقاتهم في التباكي والتخوّف منه، وإنما حدّثهم عنه ليحسنوا التصرف إذا بُعث في زمانهم، ويعلموا ما هو خافٍ عليهم من أمره، ولذلك عالج المغالاة غير المحمودة في تصرفات أصحابه تجاه ما أخبرهم به من أمر الدجال، ليعيد إليهم توازنهم في الموقف منه.

أ- ففي حديث النواس هذا قال لهم مُنكِراً عليهم ما صار إليه حالهم: (غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم، فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم، فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم). فإذا كان الرسول ﷺ حيّاً عند خروجه، فالرسول ﷺ خير من يكشف باطله، ويظهر خدعه، ويحمي المؤمنين من أن يؤثر فيهم خوارقه، وإن خرج والرسول ﷺ قد انتقل إلى الرفيق الأعلى، فكل امرؤ بما لديه من إيمان وإسلام وما تركه الرسول ﷺ له من علم عن الدجال وأحواله وصفاته، يستطيع أن يقف محاجاً مخاصماً له.

ب- دخل الرسول ﷺ على زوجه عائشة فوجدها تبكي، فلما سألها عما يبكيها، قالت: ذكرت الدجال فبكيت، فقال لها: (إن يخرج وأنا حي

كفيتكموه، وإن يخرج الدجال بعدي، فإن ربكم ليس بأعور) [عزاه الألباني إلى ابن حبان وأحمد وغيرهما، وقال: إسناده صحيح. قصة المسيح: ص ٦٠].

ج- وذكرت أم سلمة ليلةً الدجال، فلم يأتها النوم، فلما أصبحت ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال لها: (لا تفعلي، فإنه إن يخرج وأنا حي، يكفيكموه الله بي، وإن يخرج بعد أن أموت، يكفيكموه الله بالصالحين) [عزاه الألباني إلى ابن خزيمة. وقال فيه: إسناده صحيح على شرط مسلم. قصة المسيح: ص ٦٠].

د- أكثر المغيرة بن شعبة من سؤال الرسول ﷺ عن الدجال، فقال له الرسول ﷺ : (وما يُنصِبُكَ منه؟ إنه لا يضرك) وفي رواية: (هو أهون على الله من ذلك) [مسلم: ٢٩٣٩].

لقد حذر الرسول ﷺ أصحابه من الدجال، فلما ظهر منهم شيء من عدم التوازن في النظر إليه، أعاد إليهم التوازن الذي فقدوه، وبيّن لهم كيف ينبغي أن يكون الموقف الحق من الدجال.

٣- أهداف الدجال ومقاصده:

أهداف الدجال الكبرى تتجه إلى تنصيب نفسه ربّاً من دون الله، والقضاء على الإسلام والأمة الإسلامية، وإزالة دين الإسلام، وبناء دولة اليهود، واجتياح معاقل الإسلام ودياره، وخاصة مكة والمدينة والقدس.

إن أحد أهدافه العظام في آخر الزمان القضاء على القوة الإسلامية، فالمسلمون في الوقت الذي يخرج فيه يكونون قد انتصروا على الروم في أعظم معارك التاريخ، وفتحوا عاصمة الروم الشرقية، ولكن الله يُبطل مكره، ويُنزل عيسى فيقضي عليه وعلى فتنته كما سيأتي بيانه.

٤- صفات الدجال وشخصيته:

الدجال ذو شخصية قيادية، وحسبه في قوة شخصيته أنه قائد أعظم فتنة في التاريخ الإنساني، وهو ذو منظر مهيب، فقد وصفه تميم الداري فقال: «دخلنا الدير فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط» [مسلم: ٢٩٤٢] أي: أنه عظيم الجثة، أو عظيم الهيبة، أو هما معاً.

وجملة الصفات التي ثبت في الأحاديث وصفه بها أنه جسيم، أي: عظيم الجسم، وأنه يكون في مرحلة الشباب عد خروجه، له شعر جعد قطط جفال، والشعر القطط الجعد شديد الجعودة، والجِفَال المفلفل المنفوش، ولون الدجال يضرب إلى الحمرة، وهو أعور العين اليمنى، كأنها عنبة طافية، جاء في حديث النواس بن سمعان: (إنه شاب قطط، عينه طافئة كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن) وعبد العزى بن قطن رجل من خزاعة، هلك في الجاهلية.

وقد أخبرنا الرسول ﷺ بصفته التي استفادها من رؤياه المنامية له فقال: (ثم رأيت رجلاً وراءَه (أي وراء عيسى ابن مريم) جعداً قططاً، أعور العين اليمنى، كأشبه من رأيت بابن قطن) [البخاري عن عبدالله بن عمر: ٣٤٤٠، ومسلم: ١٦٩] وفي رواية: (فذهبت التفت، فإذا رجل أحمر جسيم، جعد الرأس، أعور عينه اليمنى، كأن عينه عنبة طافية) [البخاري: ٣٤٤١، مسلم: ١٧١]. وذكر في حديث حذيفة أن الدجال (جفال الشعر) [مسلم: ٢٩٣٤].

والأحاديث التي وردت في عور الدجال متواترة، وعين الدجال العوراء هي العين اليمنى، شبهها الرسول ﷺ بالعنبة الطافية، ولا تكون

العنبة كذلك إلا إذا سال ماؤها وكانت في إناء فيه ماء، وقد ورد أن هذه العين طافئة، أي: ذهب ضوؤها، والعين العوراء التي تشبه العنبة الطافئة لابد أن تكون طافية، أي: ذهب نورها فلا يستطيع صاحبها أن يبصر بها.

والعين اليسرى التي يبصر الدجال بها عين معيبة أيضاً، ففي صحيح مسلم عن أنس: (الدجال ممسوح العين) [مسلم: ٢٩٣٣]. وفي حديث حذيفة: (إن الدجال ممسوح العين، عليها ظفرة غليظة) [مسلم: ٢٩٣٤] وفي رواية عن حذيفة (أعور العين اليسرى) [مسلم: ٢٩٣٤] ومراده بالعور هو العيب الذي ذكره من وجود الظفرة الغليظة، لا العور الذي ذكر في العين اليمنى.

٥- مكان خروجه:

شاهد تميم الداري المسيح الدجال وقابله، هو وجماعة من العرب في جزيرة من جزائر البحور، كما سبق بيانه في قصته، وقد أخبر الرسول ﷺ أن تلك الجزيرة في الجهة الشرقية من المدينة المنورة، وقد قال الرسول ﷺ بعد تحديث الصحابة بقصة تميم: (ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن، لا بل من قِبَل المشرق ما هو، من قِبَل المشرق ما هو، من قِبَل المشرق ما هو) وأومأ بيده إلى المشرق) [مسلم عن فاطمة بنت قيس: ٢٩٤٢].

وفي آخر الزمان يخرج من تلك الجهة، ففي حديث أبي هريرة أنه سمع الرسول ﷺ يقول: (يخرج أعور الدجال مسيح الضلالة قبل المشرق) [قال الشيخ ناصر الدين الألباني: قال الهيثمي: رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح غير علي بن المنذر وهو ثقة، وقال الحافظ: إسناده جيد، قصة المسيح: ص ٥٤].

وفي بعض الأحاديث تحديد البلاد التي يخرج منها، فعن أبي بكر الصديق قال: حدثنا الرسول ﷺ (أن الدجال يخرج في أرض بالمشرق يقال لها خراسان) [عزاه ابن كثير إلى الترمذي وأحمد وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح. كتاب النهاية في الفتن: ص ٦٨].

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : (يخرج الدجال من يهودية أصبهان معه سبعون ألفاً من اليهود عليهم التيجان) [تفرد به أحمد. كتاب النهاية لابن كثير: ٧٠].

وفي بعض الأحاديث أنه (يخرج خلة بين العراق والشام) [مسلم عن النواس: ٢٩٣٧] والذي يظهر لي أن بداية خروجه يكون في خراسان في يهودية أصبهان، ويستعلن أمره ويتضح في موضع بين العراق والشام جمعاً بين الأحاديث، والله أعلم بالصواب.

٦- زمان خروجه وحال المسلمين في ذلك الزمان:

سبق أن ذكرت في قصة فتنة الأحلاس أن تلك الفتنة وما يليها من الفتن تدل على كثرة الفرقة والنزاع الذي يكون عليه المسلمون في ذلك الزمان قرب خروج الدجال، ولكن النزاع والخصام وتلك الفرقة تتمخض عن دولة إسلامية قوية، وهي التي تواجه الروم في معركة الملحمة الكبرى، التي تنتهي بنصر المسلمين.

وبيّنت في قصة الملحمة التي تنتهي بنصر المسلمين على النصارى، وأن المسلمين في تلك الدولة يفتحون بعد انتصارهم على الروم القسطنطينية، وأن الصريخ يأتيهم وهم معلقون سيوفهم بالزيتون يقتسمون الغنائم أن الدجال

قد اجتاح ديارهم، واستولى على نسائهم وذراريهم، فيكرّون راجعين إلى ديارهم، فيجدون الخبر كاذباً، ولكن لا يلبثون إلا قليلاً حتى يخرج.

وقد حدد الرسول ﷺ وقت خروجه بين الوقائع الكبرى التي تكون آخر الزمان، ففي حديث معاذ بن جبل ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (عمرانُ بيتِ المقدسِ خرابُ يثربَ، وخرابُ يثرب خروجُ الملحمةِ، وخروجُ الملحمةِ فتحُ القسطنطينية، وفتحُ القسطنطينية خروجُ الدجّال)، ثم ضرب بيده على فخذ الذي حدثه أو منكبه، ثم قال: (إنَّ هذا لحقٌّ كما أنكَ ههنا أو كمَا أنّكَ قاعِد)، يعني معاذاً. [أخرجه أبو داود: ٤٢٩٤. وحسّنه الألباني في صحيح أبي داود: ٣٦٠٩، وهو في مسند أحمد برقم: ١٢١١٧].

٧- الخوارق التي تجري على يدي الدجال:

جاء في الأحاديث أن فتنة الدجال أعظم الفتن على مرّ التاريخ الإنساني، جاء في حديث عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال:

(ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال) وفي رواية: (أمر أكبر من الدجال) [مسلم: ٢٩٤٦].

وعن عبدالله بن مغفل قال: قال رسول الله ﷺ : (ما أهبط الله تعالى إلى الأرض منذ خلق الله آدم إلى أن تقوم الساعة فتنة أعظم من فتنة الدجال) قال الشيخ ناصر الدين الألباني فيه «رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجاله ثقات، وفي بعضهم خلاف لا يضر، كما قال في مجمع الزوائد» [قصة المسيح: ص ٥٠].

والسبب في عظم فتنته أنه يقوم بأعمال استقر في عقول الناس أنه لا يقدر على القيام بها إلا رب العزة، ومن ذلك أنه يأمر السماء أن تمطر، فتمطر وهم يشاهدون، ويأمر الأرض أن تنبت، فتنبت وهم ينظرون.

جاء في الحديث (يأتي على القوم فيدعوهم، فيؤمنون به، ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم، أطول ما كانت ذراً، وأسبغه ضروعاً، وأمده خواصر).

هكذا تعود إليهم مواشيهم من المرعى شبعى ريّا، أسنمتها عالية مرفوعة، وضروعها حافلة باللبن، وخواصرها ممتدة لكثرة ما رعته وتناولته.

وأخبرنا الرسول ﷺ أن الدجال يأتي آخرين، فيكفرون به ويردون عليه دعوته، فتمسك السماء قطرها، وتضن الأرض بنبتها، ويصيبهم العطش الشديد، حتى تهلك البهائم والأنعام، ويرى الرجل أهله وأولاده يتضورون جوعاً وعطشاً، ولا يملك لهم من الأمر شيئاً، أليست تلك فتنة عظمى!!

وأخبرنا الرسول ﷺ أن الدجال: (يمرّ بالخربة، فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل) إنه لا يكلف نفسه وأتباعه بالبحث عن الكنوز، ولا تقتصر فتنته على لفظ الأرض لتلك الكنوز، ليلتقطها أتباعه، إن الدجال لا ينتظر شيئاً من ذلك، ولكنه يأمرها ويمضي مسرعاً يطوي الأرض طيّاً، فتتبعه تلك الكنوز طائرة في الفضاء، كيعاسيب النحل، أي: ذكورها ويعاسيب النحل تخرج إلى الفضاء مسرعةً في طيرانها عندما تتبع الملكة لتلقحها، ومن فتنة الدجال التي يفتن بها الناس (أن معه إذا خرج ماءً وناراً) [البخاري: ٣٤٥٠، ٧١٣٠، ومسلم: ٢٩٣٤ عن حذيفة].

هكذا يُظهر الدجال للناس نفسه، والحقيقة بخلاف ذلك، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ : (لأنا أعلم بما مع الدجال، منه، معه نهران يجريان، أحدهما رأي العين ماء أبيض، والآخر رأي العين نار تأجج، فإمّا أدْرَكَنَّ أحدٌ فليأت النهر الذي يراه ناراً وليغمض، ثم ليطأطئ رأسه فيشرب منه، فإنه ماء بارد) [مسلم: ٢٩٣٤ عن حذيفة].

* * *



القِصَّةُ السَّابِعَةُ والأربعون
قصة عالم المدينة الذي يواجه الدجال

تمهيد

من فتنة الدجال الكبرى أنه يقتل رجلاً واحداً، ويقسمه قسمين، ويمشي بينهما، ثم يأمره الدجال بالعودة إلى الحياة، فتعود إليه الحياة، ويرجع كما كان.

يقول الرسول ﷺ مخبراً عن هذه الواقعة (ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً، فيضربه بالسيف، فيقطع جَزْلتين رمية الغرض، ثم يدعوه، فيقبل، ويتهلل وجهه، يضحك) بضربة واحدة يشقه قسمين، ويباعد بين القسمين بمقدار المسافة التي يتركها رامي النبل بينه وبين الهدف الذي ينصبه ليتمرن على إصابته.

وهذا الشاب الذي يقتله الدجال ثم يحييه، هو من خيار الناس في تلك الأيام إن لم يكن خيرهم، وهو من أهل المدينة، يخرج إلى الدجال ليكشف أمره، ويتبين حاله، فعن أبي سعيد الخدري قال: حدثنا رسول الله ﷺ يوماً حديثاً طويلاً عن الدجال، فكان فيما حدثنا به أنه قال: (يأتي الدجال، وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة، فينزل بعض السباخ التي تلي المدينة، فيخرج إليه يومئذ رجل، هو خير الناس، أو من خيار الناس.

فيقول: أشهد أنك الدجال الذي حدّثنا رسول الله ﷺ حديثه) [البخاري: ٧١٣٢].

وهذه المقالة من ذلك الرجل الصالح تدلك على شيء من فائدة التحديث بأحاديث الرسول ﷺ عن الدجال، فقد عرفه ذلك العالِم لعلمه بهذه الأحاديث، وكشف أمره، وبيّن حاله.

إن هذا الرجل عالِم بهذه الأحاديث، وقد رأى في الدجال ما وصفه الرسول ﷺ فيه، وقرأ الكتابة المكتوبة بين عيني الدجال، والتي يقرؤها المؤمن أو من كره عمله، وهي أنه كافر، أو (ك ف ر) كما سيأتي بيانه.

ولا شك أن ذلك العالِم الفاضل والرجل الصالح، علم أنه هو المقصود بهذا الحديث، وأنه الرجل الذي سيقتله، ولذلك لم يفزع عندما (يقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته، هل تشكون في الأمر؟ فيقولون: لا، فيقتله ثم يحييه) [البخاري: ٧١٣٢].

لقد ازداد هذا العالِم بصيرة في الدجال، عندما عاد إلى الحياة بعد قتل الدجال له، وأعلَمَ الناسَ بالعلم الذي بلغه عن الرسول ﷺ : أن الدجال لا يستطيع قتله مرة أخرى، ولذلك يقول ذلك العالِم العامل الفاضل للدجال ومن حوله: (والله ما كنت فيك أشدّ بصيرة مني اليوم، فيريد الدجال أن يقتله، فلا يسلط عليه) [انظر الحديث في البخاري: ١٨٨٢، ٧١٣٢، ومسلم: ٢٩٣٨].

وفي رواية عند مسلم [(٢٩٣٨) (١١٣)] عن أبي سعيد أطال الرسول ﷺ فيها الحديث عن قصة هذا الرجل مع الدجال، وفيه يقول: (ويخرج الدجال، فيتوجه قِبَلَه رجل من المؤمنين، فتلقاه المسالح، مسالح الدجال، فيقولون له: أين تَعمِد؟ فيقول: أعمِد إلى هذا الذي خرج.

قال: فيقولون له: أوَ ما تؤمن بربنا؟ فيقول: ما بربنا خفاء).

إن هذه الحثالة التي يتكون منها جيش الدجال فُتنت به، وآمنت به رباً، ولذلك فهم على استعداد لسفك دم من لا يؤمن بذلك الطاغية رباً، ولم يثر الرجل الصالح معهم حرباً، فهو يريد الوصول إلى الرأس الأكبر، ولا يريد الانشغال عن ذلك بمقارعة الصغار، فقال لهم: ما بربنا خفاء.

لقد أراد بعضهم قتله، فذكرهم آخرون بتعليمات الدجال إليهم أن لا يقتلوا أحداً دونه، (فيقولون: اقتلوه، فيقول بعضهم لبعض: أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحداً دونه؟ قال: فينطلقون به إلى الدجال، فإذا رآه المؤمن قال: أيها الناس، هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ).

ويفعل الدجال به كما يفعل الطغاة الظلمة، الذين يريدون إدخال الناس في دينهم بالتعذيب والضرب، ولذلك يأمر أتباعه بضربه وتعذيبه (قال: فيأمر الدجال به فيشبح، فيقول: خذوه وشجّوه، فيوسع ظهره وبطنه ضرباً، قال: فيقول: أوَ ما تؤمن بي؟ فيقول: أنت المسيح الكذاب).

إن الإله الذي يستحق أن يُعبد، وأن يكون ربّاً لا يحتاج أن يُكره الناس على الإيمان ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً، وعندما يريد الله بعبد من عباده الإيمان، فإنه يُدخل الإيمان في قلبه طائعاً مختاراً، كما فعل بسحرة فرعون، فقد خرّوا ساجدين لربّ العالمين، في المشهد العظيم، غير آبهين بما سيفعله بهم فرعون وزبانيته.

إن تعذيب الدجال الناس ليؤمنوا به دليل على أنه ليس بإلهٍ حق فهو عاجز عن إدخال الإيمان به في قلوب الناس بقدراته.

وعندما يواجه المؤمن الدجال بالحقيقة وأنه المسيح الدجال، (يؤمر به، - أي بذلك المؤمن - فيؤشر بالمئشار من مفرقه حتى يُفرّق بين رجليه،

قال: ثم يمشي الدجال بين القطعتين، ثم يقول له: قم، فيستوي قائماً، ثم يقول له: أتؤمن بي؟ فيقول: ما ازددت فيك إلا بصيرة.

قال: ثم يقول للناس: أيها الناس، إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس.

قال: فيأخذه الدجال ليذبحه، فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاساً، فلا يستطيع إلى ذلك سبيلاً، قال: فيأخذ بيديه ورجليه، فيقذف به، فيحسب الناس إنما قذفه إلى النار، وإنما أُلقِيَ في الجنة) [مسلم: ٢٩٣٨].

إنها فتنة عظيمة، أن يقتل الدجال رجلاً، ويشقّه شقين، ويمشي بين شقّيه، ثم يأمره فيعود إلى الحياة، فيجتمع شقَاه، ويعود كما كان، ولكن هذه الخوارق لم تزلزل إيمان الرجل المؤمن الذي فعل الدجال به هذا الفعل، وأعلن للناس أنه لن يفعل هذا الفعل بغيره، وأنه لن يستطيع قتله مرةً ثانية، مصداقاً لحديث رسول الله ﷺ ، وهنا تتدخل العناية الإلهية، عندما يريد الدجال قتله مرة أخرى، فيجمع الله ما بين رقبته إلى ترقوته نحاساً، فيظهر عجز الدجال وضعفه، فيرمي به الدجال حيث يظن أنه رمى به في نهر النار، وفي الحقيقة رمى به إلى نهر الماء.

إن هذا الرجل المؤمن الذي يواجه الدجال أنموذج للعلماء الفقهاء العاملين الذين يقفون في وجه الطغاة الظلمة مهما علا شرّهم، وكثر فسادهم، وهم في ذلك ينصحون لعباد الله، ويدلّونهم على الصواب، ويكشفون عنهم الريب والشك، وقد عقب الرسول ﷺ على ما قام به: (هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين) [مسلم: ٢٩٣٨].

لقد شهد على الدجال بما علمه من حديث رسول الله ﷺ ، فشهادته في الدجال شهادة صحيحة صادقة مقبولة، وهي أعظم شهادة عند الله وفي ميزانه.

وما أدري هل يمكن أن يبقى كتابي هذا إلى ذلك العصر الذي يخرج فيه الدجال، فيقرأ ذلك العالِم قصتي هذه عنه في سياق قصة الدجال، إني لأرجو ذلك، وما ذلك على الله بعزيز، والله غالب على أمره.

٨- خوارق الدجال صناعة إنسانية :

إن هذه الخوارق التي تجري على يد الدجال قدرات بشرية صرفة، وليست هبات وعطايا إلهية، إن وراء الدجال قوى شريرة صنعت تلك المخترعات المذهلة للسيطرة على العالم.

والذي يظهر أن الذي صنع تلك الإمكانات هم اليهود، فعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً، عليهم الطيالسة) [مسلم: ٢٩٤٤].

والدجال نفسه يهودي، فقد قال ابن صياد لأبي سعيد الخدري مقرراً إياه: «ألم يقل نبي الله ﷺ : (إن الدجال يهودي) [مسلم: ٢٩٢٧] فأقرّه أبو سعيد على ما قاله.

ويدل على أن ما يأتي به من الخوارق صناعة إنسانية أمور:

أ- أن بعض ما عند الدجال لا يعرف الدجال حقيقته، ففي الحديث يقول الرسول ﷺ : (لأنا أعلم بما مع الدجال منه، معه نهران يجريان، أحدهما رأي العين ماء أبيض، والآخر رأي العين نار تأجج، فإما أدركَنَّ أحدٌ، فليأت النهر الذي يراه ناراً، وليغمض، ثم ليطأطئ رأسه فليشرب منه، فإنه ماء بارد) [مسلم: ٢٩٣٤ عن حذيفة].

فكون الدجال لا يدري بحقيقة ما معه يدل على أن هناك قوى صنعت له مثل هذه المخترعات.

ب- وردت إشارات في بعض الأحاديث إلى هذا الذي ذكرناه، ففي حديث حذيفة أن الرسول ﷺ قال: (وما صنعت فتنة منذ كانت الدنيا – صغيرة ولا كبيرة إلا لفتنة الدجال) [عزاه الألباني لأحمد وابن حبان. وقال الألباني فيه: إسناده صحيح ورجاله رجال الشيخين. راجع قصة المسيح: ص ٥١].

والذي يفقه من الحديث أن القوى الخفية التي وراء الدجال قد استفادت من كل الفتن السابقة، والعلوم والمخترعات، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه.

ج- أن ما يأتي به الدجال من خوارق توصل البشر إلى شيء منها في هذه الأيام، فالانتقال في جنبات الأرض اليوم من مكان إلى مكان بواسطة السيارات والطائرات أصبح أمراً معتاداً، لا يستغربه أحد، والأقمار الصناعية اليوم تدور حول الكرة الأرضية في ساعة ونصف، والأقمار المؤهولة وغير المؤهولة تجاوز المجال الجوي للأرض، وتصل إلى القمر، بل والمريخ والزهرة وغيرها، ولكن الدجال يتفوق على ذلك كلِّه، حيث توصل إلى ما يحمله وجيشه إلى جميع جنبات الأرض من غير عناء ولا كلفة.

والبحوث العلمية التي تحاول بعث الحياة في الموتى، واستنساخ الإنسان والحيوان جارية بقوة وسرعة كبيرة، ولكن الدجال يرتقي فوق كل ما توصل إليه البشر، والأسلحة المدمرة التي يمكن أن تقضي على الحياة والأحياء بلغت أوجها في الصواريخ العابرة للقارات، والقنابل العنقودية والذرية والهيدروجينية، ولكن ما يأتي به الدجال يفوق ذلك كله، فالبشر لا يحلمون أن يأمروا السماء فتمطر، والأرض فتنبت، وما يأتي به الدجال هو ثمرة متقدمة للجهود البشرية المبذولة.

٩- مدة مكثه في الأرض والتغيرات الكونية التي تقع عند خروجه:

يصاحب خروج الدجال تغيرات كونية هائلة، فقد أخبرنا الرسول ﷺ أن الدجال (يمكث في الأرض أربعون يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم) [مسلم: ٢٩٣٧ عن النواس].

وهذا يعني أن دورة الأرض حول نفسها ستتباطأ، فبدلاً من دورانها حول نفسها في يوم واحد، ستصبح في سنة كاملة مرة، وفي شهر أخرى، وفي أسبوع ثالثة، أما بقية أيامه، فتكون كأيامنا.

والذين يجنحون إلى تأويل النصوص لا يصح تأويلهم هنا بحال، فإن الرسول ﷺ أخبر أصحابه أنه لا تكفيهم طيلة ذلك اليوم الذي مدته سنة خمس صلوات فحسب، وطلب منهم أن يقدّروا في اليوم الطويل مقدار اليوم المعتاد، أي مقدار أربع وعشرين ساعة، فيُقَدِّرُوا للصبح وقتها، وللظهر وقتها، وهكذا بقية الصلوات.

وهذا التغير الكوني فعل الله سبحانه، وليس للدجال شأن فيه وإن كان يمكن أن يدّعيه، والقادر على أن يدير الأرض حول نفسها في يوم وليلة، قادر على أن يبطئ سيرها حتى تدور في سنة أو شهر أو أسبوع.

١٠- سرعة حركته واجتياحه الأرض كلها:

والدجال في أيامه الأربعين يسيح في أرض الله الواسعة مع جنده وجيشه، ينشر الفساد والخراب في أرجاء الأرض، ولا يدع قرية ولا مدينة إلا دخلها (إنه خارج خلة بين الشام والعراق، فعاث يميناً، وعاث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا) [مسلم عن النواس: ٢٩٣٧].

وقد عَرَّفَ الدجال نفسه لتميم الداري وأصحابه فقال: (إني أنا المسيح، وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج، فأخرج، فأسير في الأرض، فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة، غير مكة وطيبة) [مسلم عن فاطمة بنت قيس: ٢٩٤٢].

١١- امتناع مكة والمدينة عن الدجال:

يقدم الدجال مكة والمدينة فلا يستطيع دخول أيٍّ منهما، فقد حظر الله عليه وعلى جنده أن يدّنسوا البلد الحرام قبلة المسلمين، كما حظر الله عليه أن يدنس مدينة رسول الله ﷺ ، ولذلك فإن المؤمنين يكونون آمنين في هاتين المدينتين، وعدم قدرة الدجال على اقتحامهما لا يعود للجيوش التي تردّ عدوانه عنهما، بل يعود للعناية الإلهية، فقد كلّف الله ملائكة من السماء بحراستهما، فكلما حاول دخول أيٍّ منهما قابلته الملائكة، فتردّه على عقبيه خائباً خاسراً، جاء في الأحاديث: (ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة، ليس له من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها) [البخاري: ١٨٨١، ومسلم: ٢٩٤٣ عن أنس].

وعن أبي بكرة عن النبي ﷺ قال: (لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال، لها يومئذ سبعة أبواب، على كل باب ملكان) [البخاري: ١٨٧٩، ٧١٢٥، ٧١٢٦].

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه عندما يقدم المدينة، ويُمنع من دخولها ينصب رواقه في بعض السباخ القريبة من المدينة، وحدد حديث أنس أنها سبخة الجرف، ففي حديث أبي سعيد الخدري: (فينتهي إلى بعض السباخ التي تلي المدينة) [البخاري: ٧١٣٢، مسلم: ٢٩٣٨]. وفي حديث أنس (فيأتي سبخة الجرف فيضرب رواقه) [مسلم: ٢٩٤٣].

وفي هذا الوقت يخرج له الرجل الصالح الذي ذكرنا قصته ليكشف أمره، ويبين حاله.

وإذا كان الدجال لم يستطع أن يدخل المدينة، فإن من عنده القابلية على اتباعه والدخول في دينه من الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر يخرجون إليه بعد أن ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، ففي حديث أنس (ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيخرج إليه كل كافر ومنافق) [البخاري: ١٨٨١، مسلم: ٢٩٤٣].

١٢- نزول عيسى والقضاء على الدجال:

بعد محاصرة الدجال لمكة والمدينة وفشله في دخول أيٍّ منهما، يتوجه الدجال جهة الشمال قاصداً بلاد الشام، (فيفر الناس من الدجال في الجبال) [مسلم عن جابر: ٢٩٤٥] ويتحصنون في قممها، وهم في ذلك يقاتلونه، ويحاربونه، ويصل إلى مدينة القدس، ويحاصر عصبة من المؤمنين هناك، حتى يرهقهم الحصار، ويؤذيهم أذىً شديداً.

وعند اشتداد البلاء يأذن الله بالقضاء على فتنة الدجال، فينزل عيسى ابن مريم، وأول ما يكون نزوله عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، حيث مقر وقيادة الجيوش الإسلامية، فقد سبق أن ذكرت في قصة سابقة أن مقر الجيش الإسلامي الذي يُعدّ للمواجهة مع الروم يكون في الغوطة قرب دمشق.

ثم يتحول عيسى من مدينة دمشق ليحل في وسط العصبة المحاصرة في جبل القدس، وتكون تلك العصبة قد عزمت على قتال الدجال في صبيحة تلك الليلة حتى يتحقق لهم النصر أو ينالون الشهادة، فعن حذيفة بن أسيد

مرفوعاً: (ثم يأتي الدجال جبل إيلياء، فيحاصر عصابة من المسلمين، فيقول لهم الذين عليهم: ماذا تنتظرون بهذا الطاغية أن تقاتلوه، حتى تلحقوا بالله أو يفتح الله لكم.

فيأتمرون أن يقاتلوه إذا أصبحوا، فيصبحون ومعهم عيسى ابن مريم، فيقتل الدجال، ويهزم أصحابه، حتى إن الشجر والحجر والمدر يقول: يا مؤمن يا عبدالله، هذا يهودي عندي فاقتله) [قال الشيخ ناصر الدين الألباني فيه: أخرجه الحاكم، وعبدالرزاق مختصراً، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا. قصة المسيح: ص ١٠٦]. وحدد لنا الرسول ﷺ الموضع الذي يقتل فيه عيسى الدجال وهو باب لدٍّ.

وكان بإمكان عيسى عليه السلام أن يترك الدجال حتى يهلك من دون قتال، فإن العلي القدير حكم أنه (لا يحل لكافر يجد ريح نفس عيسى إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينهى طرفه) [مسلم عن النواس: ٢٩٣٧]. ولذلك فإن الدجال عندما يرى عيسى صبيحة ذلك اليوم يبدأ بالذوبان والتلاشي كما يذوب الملح في الماء.

وهذا من أثر نفس عيسى عليه السلام ، ولكن عيسى يصر على ملاحقته وقتله حتى يقضي على أسطورته، ويبين للناس كذب ما جاء به، فيلاحقه حتى يدركه بباب لد، فيقتله [مسلم: ٢٩٣٧].

ويسلط الله المسلمين على جيشه وأكثرهم من اليهود فيقتلونهم شرّ قتلة، فعن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : (تقاتلون اليهود، حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر، فيقول: يا عبدالله، هذا يهودي ورائي فاقتله) [البخاري: ٢٩٢٥].

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود، حتى يقول الحجر وراءه اليهودي: يا مسلم، هذا يهودي ورائي فاقتله) [البخاري: ٢٩٢٦].

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الشجر والحجر، فيقول الشجر أو الحجر: يا مسلم، يا عبدالله، هذا يهودي خلفي، فتعالَ فاقتله، إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود) [مسلم: ٢٩٢٢].

١٣- النجاة من الدجال والعصمة منه:

دلّنا الرسول ﷺ عما يعصمنا من الدجال وينجينا منه، ومن ذلك:

أ- الاستعاذة بالله من فتنته: ثبت في الأحاديث الصحيحة أن الرسول ﷺ كان يتعوّذ من فتنة الدجال بعد التشهد الآخر في الصلاة، وأمر أمته بذلك، فقال: (إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر، فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر المسيح الدجال) [رواه مسلم عن أبي هريرة: (٥٨٨) (١٣٠) انظر مشكاة المصابيح: ١/ ٢٩٧].

ب- قراءة فواتح سورة الكهف على الدجال: أمر الرسول ﷺ من أدركه من أمته بقراءة فواتح سورة الكهف عليه، لأن فيها حماية وتحصيناً منه، ففي حديث النواس بن سمعان (فمن أدركه منكم، فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف) [مسلم: ٢٩٣٧].

ج- سكنى مكة أو المدينة: وقد أوردت الأحاديث الناصة على عدم قدرة دخول الدجال أيّاً منهما، لوجود الملائكة الذين كلّفهم الله بحراستهما منه.

د- مكتوب بين عينيه كافر: وضع الله للمؤمنين بل لكل من يكره عمله علامة تدل عليه، فقد كتب بين عينيه (ك ف ر) أو كافر، يقرؤه كل مسلم أو كل من كره عمله، كاتباً أو غير كاتب.

ففي حديث عبدالله بن عمر عن رسول الله ﷺ (إنه مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه من كره عمله، أو يقرؤه كل مسلم) [مسلم: ١٦٩ بإثر: ٢٩٣١].

وفي حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: (مكتوب بين عينيه كافر، ثم تهجاها (ك ف ر) يقرؤها كل مسلم) [مسلم: ٢٩٣٣]. وفي حديث حذيفة عن رسول الله ﷺ : (مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب) [مسلم: ٢٩٣٤].

هـ- التعرف إلى الدجال عبر الأحاديث المتحدثة عنه: من عرف الأحاديث المتحدثة عن الدجال عرفه إذا بُعث في زمانه، فالأحاديث الواردة فيه وَصَفَتْهُ أدق وَصْفٍ وأبْيَنَه، ولذلك فإن عالِم المدينة في عصره الذي يخرج إلى الدجال عندما يراه يصيح بالناس: إنه هو الدجال الذي حدّثنا عنه رسول الله ﷺ ، ولابد أن هذا العالِم وأمثاله حدّثوا الناس بتلك الأحاديث، وفقّهوا بها الناس قبيل خروجه وعند خروجه.

و- ترك التعرض له: لا يجوز لمن استطاع النجاة منه من المسلمين في حال خروجه أن يطلبه ليحاجّه ويجادله، بل الواجب البُعد عنه، وعدم التعرض له، إلا إذا كان عالِماً فقيهاً كذلك العالِم الذي خرج له من المدينة، ففي الحديث: (من سمع بالدجال فلْينأ عنه، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه، مما يبعث من الشبهات). عزاه الألباني إلى أحمد وغيره عن عمران بن حصين [قصة المسيح الدجال: ص ٣٣].

ز- **التفكر في الدجال:** فالمؤمن الحق الذي عرف الله بصفاته وأسمائه وأفعاله، وعرف قدرته وعظمته وجلاله وكبرياءه لا يمكن أن يصدق أن يكون ذلك الرجل ربَّ الناس وخالقهم. إنه يمشي فوق الأرض كما يمشي الناس، وله شعر كشعورهم، وله عينان وأذنان كأعين البشر وآذانهم، وله يدان ورجلان كأيديهم وأرجلهم، وله طول وعرض، كطولهم وعرضهم، وهو مخلوق من لحم ودم، يأكل كما يأكلون، ويشرب كما يشربون، وينام ويقوم كما ينامون ويقومون، ويتبول ويتغوط كما يتبولون ويتغوطون، ويمشي في الأرض كما يمشون.

وهو مع ذلك كله معيب غير سوي الخلقة، عيناه معيبتان، إحداهما عوراء، والأخرى ممسوحة عليها ظفرة غليظة، والله سبحانه مُنَزَّهٌ عن النقائص والعيوب، فكيف يكون الإله أعور معيباً.

وقد أعلمنا الرسول ﷺ أننا لا نرى ربنا حتى نموت، والدجال مدّعي الربوبية يراه كل من أراد أن يراه، ففي الحديث: (تعلَّموا أنه لن يرى أحد منكم ربّه حتى يموت) [مسلم: ١٦٩ بإثر: ٢٩٣١].

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- يجب الإيمان بما صحّ من أحاديث عن الدجال تصديقاً لخبر رسول الله ﷺ ، وائتماراً بأمره، فقد أمرنا بأن نعلم أنه يمشي، وأنه أعور، ونحو ذلك مما سبق بيانه.

٢- الأحاديث الدالة على الدجال كثيرة، رواها عن الرسول ﷺ جمع كبير من الصحابة، وروتها كتب السنّة، ودلالتها على خروج الدجال متواترة تواتراً معنوياً لا شك فيه.

٣- يجب على العلماء وطلبة العلم تعريف الناس بالدجال وبصفاته وما يكون منه، وبثّ الأحاديث الصحيحة المتحدّثة عنه، اقتداءً بالرسول ﷺ وبأصحابه من بعده.

٤- على حكام المسلمين وعلمائهم وأهل الرأي فيهم أن يبذلوا جهدهم للتعرف على الفتن التي تواجه المسلمين، وكشفها وتبيين حالها: كما فعل الرسول ﷺ في محاولته بيان حال ابن صياد، وكما يفعل عالِم المدينة الذي يخرج لبيان حال الدجال.

٥- الرسول ﷺ بشر لا يعلم الغيب إلا ما أعلمه الله منه، فعندما أوحى الله له في أمر الدجال علّم أصحابه ما علّمه الله به، وعندما لم يوحَ إليه شيء بشأن ابن صياد استعمل قدراته التي وهبه الله إياها للتعرف على حاله، ولم ينسب ذلك إلى الله.

٦- الدجال كان موجوداً مخلوقاً، وقد أفاد ذلك حديث تميم الداري، وصدق الرسول ﷺ فيما حدّثه به، وسيخرج الدجال من أسْره في آخر الزمان، كما أن عيسى حيّ موجود لم يُقتل، وسينزل آخر الزمان، وسيموت الدجال ويُقتل كما يموت البشر، وسيموت عيسى عليه السلام كما مات الرسل من قبله.

٧- ابن صياد ليس الدجال الأكبر، فقد كان الرسول ﷺ متشككاً فيه في بداية الأمر، ثم أوحى الله إلى رسوله ما أوحى بشأن الدجال، وفيها للدارس المتبصر ما يدل على نفي كونه الدجال، وقد دخل ابن صياد في الإسلام، والله أعلم بمدى صحة إسلامه.

٨- لا يُنكر على مَنْ حلف على ما يعتقد صوابه، إذا لم يكن عند الآخرين ما يدلّ على خطئه، فقد حلف عمر بن الخطاب عند الرسول ﷺ على

أن ابن صياد هو الدجال، ولم يكن عند الرسول ﷺ في ذلك الوقت ما يدل على خلاف ذلك.

٩- إذا علم العبد يقيناً أن الله قدّر وقوع شيء، فلا يجوز أن يعمل للقضاء على ذلك المقدر، كما أعلم الرسول ﷺ عمر بأنه لا خير له في قتل ابن صياد، لأنه إن كان هو الدجال فلن يمكّنه الله من قتله.

١٠- مشروعية عرض الإسلام على من لم يبلغ الحلم من الصبيان كما عرضه الرسول ﷺ على ابن صياد وقد ناهز الاحتلام.

١١- كان في فلسطين قبل الإسلام طائفة من العرب، منهم تميم الداري الذي رأى الدجال، وقصّ قصته على الرسول ﷺ .

١٢- هناك دجالون كثيرون على مرّ التاريخ الإسلامي، وقد أخبر الرسول ﷺ أن عددهم قريب من الثلاثين، كلهم يدعي النبوة، وقد يأتي الواحد منهم ببعض الخوارق، ولكن لن يبلغ واحد منهم ما يبلغه الدجال الأكبر.

١٣- إتيان الدجالين والعرافين وأدعياء الغيب محرم على من يصدقهم فيما يخبرون به، ويدّعي أنه يستفيد منهم، أما الذي يأتيهم ليكشف باطلهم ويبين حالهم، وينكر عليهم فعلهم فليس عليه إثم، كما فعله الرسول ﷺ هو وأصحابه مع ابن صياد.

١٤- يجوز الإغلاظ في القول لأهل الشر والفساد، كما خاطب الرسول ﷺ ابن صياد في بعض المواقف (اخسأ فلن تعدو قدرك) [مسلم: ٢٩٣٠].

١٥- الدجال والجساسة يتكلمان اللغة العربية كما جاء في حديث تميم الداري.

١٦- علم الدجال بالوقائع العظام التي ستجري على يديه كما أنبأ تميماً بما يكون منه.

١٧- المنهج الإسلامي يقوم على التعرف على الحقيقة كاملة غير منقوصة، وعدم التكذيب بها، والعمل على الاستفادة من تلك المعلومات في المواجهة والتخطيط، ولا يجوز أن تشل المصائب العظام قدرة المسلمين على العمل والمواجهة، فقد أخبر الرسول ﷺ بالحقائق كاملة عن الدجال، ورفض أن تؤدي هذه الحقائق إلى شل حركتهم، وركونهم إلى التخوّف والبكاء.

١٨- تدل النصوص على أن خروج الدجال أول آيات الساعة الأرضية العظام، فإن خروجه يسبق النار التي تخرج من قعر عدن، وقد روى عبدالله بن عمرو ومروان بن الحكم عن رسول الله ﷺ : أن الدجال أول أشراط الساعة ظهوراً [مسلم: ٢٩٤١].

* * *

القِصَّةُ الثَّامِنَةُ والأربَعُونَ
قصة نزول عيسى عليه السلام

تمهيد

قصة عيسى ابن مريم ملازمة لقصة المسيح الدجال، فكلاهما يُبعث في آخر الزمان، وكلاهما اسمه المسيح، وكلاهما موجود منذ عهد بعيد، وكلاهما يبعث شاباً، ولكن الفرق بينهما كالفرق بين الثرى والثريا، والليل والنهار، والماء والنار.

فالأول مسيح الضلالة والشر والخداع والكذب، والثاني مسيح الهداية والخير والصدق.

والأول يأتي محادّاً لله ورسوله، مستكبراً في الأرض مدّعياً الألوهية، جامعاً حوله قوى الشر، مجهداً نفسه في تأييد الباطل، والثاني ينزل لتأييد الحق وإزهاق الباطل، ونصرة المؤمنين، وإقامة دين الله في الأرض.

نص الحديث

قال الرسول ﷺ في حديث النواس السابق: (فَبَيْنَمَا هُوَ (أي الدجال) كَذلِكَ إذ بَعَثَ اللهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعاً كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إذا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإذا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلاَ يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ

إلاَّ مَاتَ، وَنفَسُهُ يَنتَهِي حَيْثُ يَنتَهِي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللهُ مِنْهُ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ، وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ.

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذ أَوْحَى اللهُ إِلَى عِيسَى: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَاداً لِي، لاَ يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ. وَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ، فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِمْ خَيْراً مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الأَرْضِ، فَلاَ يَجِدُونَ فِي الأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلاَّ مَلأَهُ زَهَمُهُمْ، وَنَتْنُهُمْ.

فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللهِ، فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْراً كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ، فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ مَطَراً لاَ يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ. وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا، وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ، حَتَّى إِنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ. وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنَ النَّاسِ).

تخريج الحديث

رواه مسلم في صحيحه عن النواس بن سمعان في كتاب الفتن، باب ذكر الدجال [٢٩٣٧].

مهرودتان : ثوبان مصبوغان بورس ثم زعفران.

جمان كاللؤلؤ : الجمان حبات الفضة الكبيرة، كاللؤلؤ في صفائها.

بباب لد : هي مدينة اللد اليوم قرب مدينة القدس.

لا يدان : لا طاقة.

حرز عبادي إلى الطور : اجعل الطور حرزاً لهم، بإصعادهم إياه، واحتمائهم به.

من كل حدب ينسلون : من كل ناحية أو مرتفع يسيرون مسرعين.

يرغب إلى الله : يدعوه.

النغف : دود يكون في أنوف الإبل والغنم.

فرسى : قتلى.

زهمهم : دسمهم وقاذوراتهم.

البخت : نوع من الجِمَال عظيمة الأعناق.

لا يُكِنّ : لا يمنع منه.

مدر : الطين الصلب أو الحجارة.

الزلفة : المرآة.

العصابة : الجماعة.

قحف الرمانة : قشرها إذا أخذ منه الحب، فأصبح كقحف الرأس.

الرِّسل : اللبن.

اللقحة : الصغيرة من النياق أو البقر أو الغنم.

الفئام : الجماعة الكثيرة.

الفخذ : الجماعة من القبيلة من أب واحد.

شرح الحديث

١- صفة عيسى عليه السلام وهيئة نزوله ومكانه:

يُنزل الله عيسى ابن مريم عندما يشتد البلاء بالمؤمنين الذين يحاصرهم الدجال، ويكون الدجال قد بلغ أوج قوته وعظمته، وينزل أول ما ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، ذلك أن الله ينزله تأييداً للمؤمنين ومقر هؤلاء هو في دمشق كما سبق بيانه في قصة الملحمة وفتح القسطنطينية، ففي تلك المدينة يكون أمير المسلمين وقائد جيوشهم الذي انتصر في الملحمة على الروم وفتح القسطنطينية عاصمة الروم آن ذاك.

ولا يأتي المسيح عيسى ابن مريم كما جاء المسيح الدجال راكباً الآلات المصنوعة، محاطاً بقوى الشر التي تصنع له تلك الخوارق، وإنما ينزل من السماء، حيث كان يقيم منذ أن رفعه الله إليه، إلى أن يأذن الله بنزوله في آخر الزمان.

ينزل عيسى هابطاً من السماء واضعاً كفّيه على أجنحة ملكين، لابساً ثوبين مصبوغين بورَسٍ ثم زعفران، وهذا هو معنى المهرودتين المذكورتين في حديث نزوله.

والدجال يدعي أنه المسيح الذي يُبعث في آخر الزمان، ولذلك فإن الرسول ﷺ في حديثه عنهما فرّق بينهما تفريقاً لا لبس فيه، وعندما تقارن بين ما وصف به الرسول ﷺ مسيح الضلالة ومسيح الهداية، تجد الفرق بينهما واضحاً بيّناً، فمسيح الضلالة لونه أحمر، وشعره قطط، أي: جعد شديد الجعودة، وهو مع ذلك جفال، أي: مفلفل الشعر منفوشه غير مسرَّح ولا مرتّب، وهو مع ذلك كله أعور العين اليمنى، وعوره بيِّن واضح،

وعينه الأخرى معيبة عليها ظفرة غليظة، إن منظره منظر لا يسرّ، ولا يعطي رائيه طمأنينة وراحة، خاصة وأنه قد أثر كفره وذنوبه ومعاصيه على قسمات وجهه، فالذنوب تميت القلوب، وتظهر آثارها في الوجوه، حتى صار حاله إلى أن كتب بين عينيه: (ك ف ر).

أما عيسى عليه السلام فإنه ينزل في غاية الجمال والكمال والبهاء، وقد وصف الرسول ﷺ منظره حال نزوله، (إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ) [مسلم عن النواس: ٢٩٣٧]. يقطر رأسه ماء، وإن لم يكن هناك ماء، ويتحدر منه جمان كاللؤلؤ نقاءً وصفاءً.

وقد زادنا الرسول ﷺ تعريفاً به، فقد رآه في المنام، ورؤيا الأنبياء حق وصدق، استمع إلى الرسول ﷺ ، وهو يصف المسيح عيسى ابن مريم، ودع عقلك يستوعب الوصف، فإنك بعد ذلك لو قدرّ لك أن تكون في العصر الذي ينزل فيه لعرفته، ولم تتردد في ذلك، لما علمته من وصف الرسول ﷺ إياه، قال الرسول ﷺ : (أراني الليلة عند الكعبة في المنام، فإذا رجل آدم، كأحسن ما يرى من أدم الرجال، تضرب لمته بين منكبيه، رَجِل الشعر، يقطر رأسه ماء، واضعاً يديه على منكبي رجلين، وهو يطوف بالبيت، قلت: من هذا؟ قالوا هذا عيسى ابن مريم) [البخاري: ٣٤٤٠، ٥٩٠٢، ٦٩٩٩، ومسلم: ١٦٩، ١٧١ عن عبدالله بن عمر].

وفي رواية أخرى عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (بينما أنا نائم أطوف بالكعبة، فإذا رجل آدم، سبط الشعر يهادى بين رجلين، ينطف رأسه ماءً، أو يهراق رأسه ماء، فقلت من هذا؟ قالوا: ابن مريم) [البخاري: ٣٤٤١، ومسلم: ١٧١].

إن عيسى ﷺ آدم، أي أسمر اللون، وسمرته سمرة جميلة محببة، ولذلك قال فيه: (كأحسن ما ترى من أُدم الرجال، وله لمة، واللمة الشعر الذي جاوز شحمة الأذنين، وقد طالت لمة عيسى ﷺ حتى ضربت بين منكبيه، وشعره سبط أي مسترسل، وليس بجعد، وينزل عيسى من السماء وشعره مسرح مُعْتَنى به، وليس كشعر الدجال القطط الجفال المنفوش، وقد أخبر الرسول ﷺ أن شعر عيسى عند نزوله يقطر ماءً إذا طأطأ رأسه، وإذا رفعه تحدر منه مثل الجمان، وهنا قال: (يقطر رأسه ماء) أو (ينطف ماء، أو يهراق ماء)، ومعانيها متقاربة.

وقد رآه الرسول ﷺ يطوف بالكعبة واضعاً يديه على منكبي رجلين، على نحو ما أخبر بنزوله واضعاً يديه على أجنحة ملكين.

وهذا الوصف الدقيق يعرف الذين ينزل عليهم به أتم تعريف، فيستقبلونه أحسن استقبال.

٢- الغرض من نزول المسيح:

رفع الله المسيح عيسى ابن مريم ﷺ إلى السماء عند تآمر اليهود مع ملوك زمانهم على قتله، وقد كفر اليهود الذين لم يؤمنوا به، واختلف أتباعه من بعد، إلى أحزاب وفِرَق، وحُرِّف الدين الذي جاء به، وبقي الأمر على ذلك حتى جاء الرسول الذي بشّر به عيسى، وهو محمد ﷺ ، وبقي كثير من اليهود والنصارى على باطلهم كافرين بمحمد ودينه، واستمر الصراع وسيستمر بين أتباع محمد ﷺ وبين أتباع الديانتين المحرفتين المبدلتين إلى أن تقوم المعركة الكبرى بين المسلمين والنصارى، وهي الملحمة التي تحدثنا عنها، وينتصر المسلمون فيها، ثم يخرج الدجال قاصداً معاقل

الإسلام للقضاء على الإسلام وأهله، ليقيم دولة اليهود العالمية، التي يطمع اليهود من ورائها أن يحكموا العالم كله.

ويدّعي المسيح الدجال أنه المسيح الذي يُرسل آخر الزمان لحكم العالم، ويأتي بالخوارق التي لا تستطيع القوى المناوئة له على مواجهتها، وهذا يعني أنه سيقضي على الإسلام والمسلمين، وهنا يُنزل الله عيسى ابن مريم للوقوف في وجه مسيح الضلالة، والقضاء على فتنته، وتدمير الجيوش اليهودية التي تحيط به.

وقد تحدثنا في قصة خروج الدجال كيف قضى عيسى عليه السلام على الدجال وأتباعه من اليهود.

٣- مهمة عيسى بعد قضائه على الدجال:

لا تتوقف مهمة عيسى بالقضاء على الدجال، فمهمّته أعظم من ذلك وأكبر، إن عيسى كُلّف بالقضاء على الأديان الباطلة والمنحرفة التي زاحمت الحق على مدار التاريخ، وبخاصة اليهود الذين أرادوا قتله، فرفعه الله إليه، والنصارى الذين حرّفوا الدين الحق الذي بعثه الله به، فيقاتل أهل الباطل جميعاً، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، ومن لم يقبل به فليس أمامه إلا القتل، فيدخل الناس جميعاً في الإسلام، وتهلك الأديان كلها في عصره، فلا يهودية، ولا نصرانية، ولا شيوعية، ولا علمانية إنما الإسلام ، والإسلام فحسب. وقد جاءت النصوص الصحيحة مصرّحة بالمهمة المناطة بعيسى بعد قضائه على الدجال ومدى نجاحه في مهمته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض

المال حتى لا يقبله أحد) [البخاري: ٢٢٢٢، ٢٤٧٦، ومسلم: ١٥٥] زاد في رواية، (حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها) [البخاري: ٣٤٤٨، مسلم: ١٥٥].

وفي رواية عند مسلم: (والله، لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً، فليكسرنّ الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية، ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد) [مسلم: ١٥٥].

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة مرفوعاً: (يوشك من عاش منكم أن يلقى عيسى ابن مريم إماماً مهديّاً وحكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، وتضع الحرب أوزارها) [قال الألباني: أخرجه أحمد، وإسناده صحيح على شرط الشيخين: قصة المسيح: ص ٩٨] وكسره للصليب إبطال للدين المحرّف الذي عليه النصارى، وقتله الخنزير، التزام بالشريعة الإسلامية التي تحرّمه، ووضعه الجزية إعلان لعدم قبوله من الكفار إلا الإسلام، وعند ذلك تضع الحرب أوزارها لدخول الناس جميعاً في الإسلام.

وجاء في حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (ينزل عيسى ابن مريم، فيقتل الخنزير، ويمحو الصليب، وتُجمع له الصلاة، ويعطي المال حتى لا يقبل، ويضع الخراج، وينزل الروحاء، فيحج منها أو يعتمر أو يجمعهما)، قال: وتلا أبو هريرة: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٥٩]. [قال الألباني في تخريجه: أخرجه أحمد، وإسناده صحيح على شرط مسلم، وقد أخرج منه نزوله بـ (الروحاء) والإهلال، وكذلك رواه عبدالرزاق، قصة المسيح: ص ٩٩].

وجاء في حديث أبي هريرة أيضاً يرفعه (ليس بيني وبينه نبي (يعني: عيسى)، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض بين ممصرتين، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيقاتل الناس على الإسلام، فيدقّ الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويُهلِك (الله في زمانه) المسيح (الكذاب) الدجال، (وتقع الأمَنَة على الأرض؛ حتى تَرْتَعَ الأسود مع الإبل، والنمار مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم)، فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى، فيصلي عليه المسلمون (ويدفنونه))).

[قال الألباني في تخريجه: أخرجه أبو داود، والسياق له، وابن حبان، وأحمد، وابن جرير في ((التفسير))، والآجري، وعبدالرزاق وزاد: ((وتكون الدعوة واحدة لرب العالمين)).

وقال فيه: إسناده صحيح، وصححه الحافظ، وهو مخرج في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) قصة المسيح: ١٠٠].

٤- حكم عيسى عليه السلام بالكتاب والسنّة:

عندما ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام يحكم بالقرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة، ولا يحكم بالتوراة ولا الإنجيل، فإنه وإن كان عالِماً بهما، إلا أن الله نسخهما بالشريعة المنزلة على نبيّنا محمد ﷺ ، وحتى يقرر عيسى هذا المعنى في نفوس الذين أنزل عليهم في آخر الزمان، فإنه يرفض أن يتقدم ليكون إماماً للناس، ويصر على أن يصلي خلف أمير المسلمين ليدلل على أنه جاء تابعاً للرسول ﷺ ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :

(كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم، وإمامكم منكم) [البخاري: ٣٤٤٩، ومسلم: ١٥٥].

وقد وردت رواية في غاية الصراحة والوضوح تدل على تبعيّته للرسول ﷺ ، فعن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى ابن مريم ﷺ ، فيقول أميرهم، تعالَ صلّ لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة) [مسلم: ١٥٦].

ولا يشكل على هذا رواية أبي هريرة (كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم فأمَّكم منكم) [مسلم: ١٥٥] أي أمَّكم برجل منكم، فإن ذلك الأمير لن يجاوز ما يطلبه إليه عيسى من جهة، ولأن عيسى ينفذ الشريعة الإسلامية فيكون هو الإمام من هذه الجهة.

٥- خروج يأجوج ومأجوج وطيب العيش بعد المسيح:

عندما ينتهي عيسى ومن معه من القضاء على الدجال، يوحي الله إلى عيسى عليه السلام : (إني قد أخرجت عباداً لي، لا يدان لأحد بقتالهم) أي: لا قدرة ولا طاقة، (فحرز عبادي إلى الطور) والطور الجبل، يأمره أن يتحصن هو ومن معه في جبل من الجبال، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٦] ويكونون في كثرتهم كالجراد المنتشر، لا يمرون على ناحية إلا أفنوا ما فيها من طعام، وقضوا على ما فيها من ماء، ويقول آخرهم عندما يمر ببحيرة طبرية: كان هنا ماء.

وجاء في رواية (ثم يسيرون (أي يأجوج ومأجوج) حتى ينتهوا إلى جبل الخمر، وهو جبل بيت المقدس فيقولون: قد قتلنا أهل الأرض، هلمّ

فلنقتل من في السماء، فيرمون بنشابهم (أي سهامهم) إلى السماء فيرد عليهم نشابهم مخضوبة دماً).

ويصبح عيسى ومن معه في وضع بالغ الصعوبة، (حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم).

فيتوجه عيسى ومن معه إلى ربهم يدعونه ويبتهلون إليه، عند ذلك يرسل الله عليهم دوداً ساماً قاتلاً يصيبهم في رقابهم، فيصبحون جميعاً قتلى لا ينجو منهم أحد.

ولكن المشكلة لم تنته بذلك، فعندما ينزلون من حصنهم لا يجدون موضع شبر من الأرض إلا ملأه زهمهم، أي: دسمهم وقاذوراتهم وجثثهم ونتنهم، فيرغب عيسى ومن معه مرة أخرى إلى رب العباد، فيستجيب لهم، فيرسل الله طيراً، كأنها أعناق الجمال المسماة بالبخت، فتحمل الطيور تلك الجثث، وتلقي بها حيث يشاء الله.

ثم يرسل الله على الأرض مطراً يصيب الأرض كلها، لا يمتنع منه بيت مدر ولا وبر، أي: يخترق البيوت المبنية من الطين والحجارة، كما يخترق البيوت المصنوعة من الوبر والصوف والقماش.

ويبدو أن هذا المطر يزيل كل الفساد الذي أحدثه بنو آدم في الأرض عبر تاريخهم، ولذلك تصبح الأرض غِبَّ نزول ذلك المطر كالزلفة، أي: كالمرآة في صفائها ونقائها.

ويقال للأرض بعد ذلك: (أنبتي ثمرتك، وردي بركتك) فتعود للأرض خصوبتها التي كانت لها في بداية الأمر، وضرب لنا الرسول ﷺ بمدى الخير والبركة التي تعطيها الأرض، مما ليس معهوداً في الأزمنة

المتعاقبة، فالعصبة وهي الجماعة تكفيها الرمانة الواحدة، وإذا رفعوها بعد أن يأكلوا حبها فوقهم استظلوا بها جميعاً فأظلتهم من الشمس، ويبارك الله في حليب الأنعام ولحومها، فلبن اللقحة من الإبل وهي الناقة الصغيرة، يكفي الجماعة الكبيرة تكون من عدة قبائل، وحليب اللقحة من البقر، تكفي القبيلة، وحليب اللقحة من الغنم يكفي الفخذ من الناس، أي: يكفي الجماعة من القبيلة.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- رحمة الله بعباده بإنزاله عيسى آخر الزمان، فيقضي على الدجال، ويقيم الإسلام، ويهلك الأديان كلها إلا الإسلام، ويعم الخصب والرخاء، ويحل السلام في العالم كله.

٢- على المسلمين أن يعرفوا صفة المسيح حتى إذا نزل آخر الزمان عرفوه، وحتى يفرقوا بينه وبين مسيح الضلالة.

٣- تأييد الله لعيسى بقتل نَفَسِهِ لأهل الكفر، ونَفَسُه ينتشر في الأرض بقدر امتداد رؤيته.

٤- عندما لا يستطيع المرء أن يقاوم الخصم لا حرج عليه إذا ابتعد عنه واحتمى منه بالحصون، وهذا ما أوحى الله به إلى عيسى عندما خرج يأجوج ومأجوج.

٥- يأجوج ومأجوج لا يزالون محبوسين وراء سدّ ذي القرنين حتى اليوم، ولا يخرجون إلا في زمن عيسى عليه السلام، وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾

﴿ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ ﴾ [الأنبياء: ٩٦-٩٧] فخروجهم يكون عند اقتراب الوعد الحق، وهو يوم القيامة، ونزول عيسى يكون قرب قيام الساعة.

٦- استجابة الله لعيسى ومن معه في إهلاك يأجوج ومأجوج، وإزالتهم وأقذارهم وتنظيف الأرض منهم.

٧- طيب العيش بعد المسيح، ودخول الناس جميعاً في الإسلام، وبذلك تنتهي الحروب والاقتتال في العالم، ويحل الأمن والرخاء، وتذهب الكراهية والبغضاء، ويحل محلها الألفة والمحبة والإخاء كل ذلك في ظلال الإسلام.

٨- يبقى المسيح في الأرض أربعين سنة، ثم يموت كما مات الأنبياء والرسل من قبله.

٩- الأمل في عودة الإسلام إلى الحكم، وقيادة المسلمين للدنيا لا يتوقف، ونحن وإن كنا نؤمن بما سيقع في عهد عيسى إلا أننا سنبقى نعمل بالإسلام إلى أن نلقى الله.

١٠- موقف اليهود والنصارى من المسيح الدجال ونزول عيسى: سبق أن أوردت النصوص الحديثية الصحيحة المخبرة بأن الأنبياء والرسل جميعاً من نوح إلى آخرهم حذروا أممهم من الدجال، ولا شك أن موسى وعيسى من الذين حذروا منه أممهم.

يقول ابن تيمية رحمه الله: «الأمم الثلاثة (يريد اليهود والنصارى والمسلمين) متفقون على الإخبار بمسيح هدى من نسل داود، ومسيح ضلالة، وهم متفقون أن مسيح الضلالة لم يأتِ بعد، ومتفقون على أن مسيح الهدى سيأتي أيضاً.

ثم المسلمون والنصارى متفقون على أن مسيح الهدى هو عيسى ابن مريم، واليهود ينكرون أن يكون هو عيسى ابن مريم مع إقرارهم بأنه من ولد داود. والنصارى تقرّ بأن مسيح الهدى بُعث، ومقرون بأنه سيأتي مرة ثانية، لكن يزعمون أن هذا الإتيان الثاني هو يوم القيامة ليجزي الناس بأعمالهم، وهو في زعمهم الله، والله الذي هو اللاهوت، يأتي في ناسوته، كما زعموا أنه جاء قبل ذلك» [الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ٥/ ٢٥٠].

ثم ذكر الشيخ ابن تيمية رحمه الله موقف المسلمين من المسيح الدجال وما يكون من فتنته، وقتل عيسى له في آخر الزمان.

ثم ذكر أن أهل الكتاب يؤمنون به بعد نزوله وقبل موته مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ [النساء: ١٥٩]. وعند ذلك تهلك الأديان كلها إلا الإسلام، فلا يبقى يهودي ولا نصراني، ثم قال:

«ولكن النصارى ظنوا مجيئه بعد قيام القيامة، وأنه هو الله، فغلطوا في ذلك، كما غلطوا في مجيئه الأول، حيث ظنوا أنه هو الله. واليهود أنكروا مجيئه الأول، وظنوا أن الذي بُشِّرَ به ليس إياه، وليس هو الذي يأتي آخراً، وصاروا ينتظرون غيره، وإنما هو بُعث إليهم أولاً فكذبوه، وسيأتيهم ثانياً، فيؤمن به كل من على وجه الأرض، من يهودي ونصراني، إلا من قُتل أو مات، ويظهر كذلك هؤلاء الذين كذبوه، ورموا أمّه بالفرية، وقالوا: إنه ولد زنا. وهؤلاء الذين غَلَوْا فيه، وقالوا: إنه الله.

ولما كان المسيح عليه السلام نازلاً في أمة محمد ﷺ ، صار بينه وبين محمد – من الاتصال – ما ليس بينه وبين غير محمد، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث

الصحيح: (إن أوْلى الناس بابن مريم لأنا، إنه ليس بيني وبينه نبي). وروي (كيف تهلك أمة أنا في أولها، وعيسى في آخرها). وهذا مما يظهر به مناسبة اقترانهما، فيما رواه أشعياء، حيث قال: «راكب الحمار، وراكب الجمل» . [الجواب الصحيح: ٥/ ٢٥٣].

* * *



القِصَّةُ التَاسِعَةُ وَالأَرْبَعُونَ
قصة الأسود الأفحج الذي يهدم الكعبة

تمهيد

يعظم الكفر في العالم قرب يوم القيامة، ويعظم الشر والفساد، ويرفع القرآن، ولا يقال في الأرض: الله، الله، وتُنتهك المقدسات، حتى الكعبة البيت الحرام التي جعلها الله قياماً للناس يهدمها ذو السويقتين الحبشي الأسود الأفحج حجراً حجراً.

نص الحديث

١- عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (كأني به أسودَ أفْحَجَ يقلعُها حجراً حجراً).

٢- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (يُخَرِّبُ الكعبةَ ذو السُّوَيقتَيْنِ من الحبشة).

٣- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : (ذو السويقتين من الحبشة يُخرِّبُ بيتَ الله).

تخريج الحديث

الحديث الأول حديث ابن عباس رواه البخاري في صحيحه في كتاب الحج، باب هدم الكعبة، [ورقمه: ١٥٩٥].

والحديث الثاني رواه البخاري أيضاً عن أبي هريرة في الباب السابق: [١٥٩٦. وانظره أيضاً برقم: ١٥٩١].

ورواه مسلم في كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمرّ الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت. [ورقمه: ٢٩٠٩].

والحديث الثالث رواية عند مسلم في حديثه السابق.

غريب الحديث

أفحج : الفحج تباعد ما بين الساقين.

ذو السويقتين : السويقتان تصغير ساقين، سمي بذلك لدقة ساقيه.

شرح الحديث

أراد أبرهة الحبشي هدم الكعبة، فأرسل الله عليه طيراً أبابيل ترميه وجيشه بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول، وكان ذلك في العام الذي وُلد فيه الرسول ﷺ.

ويجيء الدجال ويحاصر مكة، فلا يستطيع دخولها، فحرّاسها من الملائكة يمنعونه من دخولها.

ولكن حاكماً ذا عاهات وعيوب خلقية من حكّام الحبشة يسلط على الكعبة في آخر الزمان، يهدمها حجراً حجراً.

وقد وصفه الرسول ﷺ وصفاً بيّناً واضحاً، فأخبر أنه أسود اللون، أفحج الخطا، له ساقان دقيقتان، ولذلك فإنه يُلقب بذي السوقتين، والسويقتان تصغير ساقين.

وقد صوره الرسول ﷺ وهو يهدم الكعبة حتى كأننا نشاهده وهو يقوم بجريمته، فعن عبدالله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة ويسلبها حليّها، ويجردها من كسوتها، ولكأني أنظر إليه أصيْلعاً أفيدعاً، يضرب عليها بمساحته ومعوله) [رواه احمد ورقمه: ٧٠٥٣، وقال ابن كثير فيه: هذا إسناد جيد قوي: النهاية في الملاحم والفتن: ص ١٠٤].

إنه مع كونه أسود أفحج أصيلع، والأصيلع تصغير الأصلع، والأصلع الذي انحسر الشعر عن مقدم رأسه، والأفيدع الذي اعوجت مفاصله، ولعل فحجه يكون بسبب هذا الالتواء في مفاصله.

يهدم هذا الأصيلع الأفيدع الأفحج الكعبة حجراً حجراً، ويشارك هو في هذا العمل، بمسحاته ومعوله، ويسلب الكعبة والمسجد الحرام ما فيهما من حليّ، ويجرد الكعبة من كسوتها.

وهذا الضال المضل هو الذي يستخرج كنز الكعبة، فعن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: (اتركوا الحبشة ما تركوكم، فإنه لا يستخرج كنز الكعبة إلا ذو السويقتين من الحبشة) [عزاه ابن كثير إلى أبي داود. كتاب الفتن والملاحم: ص ١٠٤].

وقد يقول القارئ: كيف يسلط الله هذا الأصيلع الأفيدع على الكعبة، وهي قبلة المسلمين، والجواب: «أن هذا يكون في آخر الزمان قرب قيام الساعة، حيث لا يبقى أحد في الأرض يقول: الله، الله، كما ثبت في صحيح مسلم: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله» ولهذا وقع في رواية سعيد بن سمعان: (لا يعمر البيت بعده أبداً) » [فتح الباري:

٣/ ٥٨٣] وفي البخاري: (لا تقوم الساعة حتى لا يحج البيت) [البخاري: تعليقاً: ١٥٩٣].

وهذا كله يكون بعد موت المسيح عيسى بمدة من الزمان، فقد أخبر الرسول ﷺ أن البيت يحج ويعتمر بعد خروج يأجوج ومأجوج [البخاري: ١٥٩٣].

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- من وقائع آخر الزمان هدم الكعبة عندما يفسد الناس، ويزول الإسلام ويرفع القرآن، فيهدمها ذو السويقتين، ويستخرج كنزها.
٢- سيكون للحبشة قوة آخر الزمان، وستصل جيوشهم إلى الحجاز ومكة المكرمة.
٣- في الكعبة كنز مدفون بداخلها، وكان هذا الكنز معروفاً في عهد النبي ﷺ وقبل عهده، وقد ترك الرسول ﷺ استخراجه وإنفاقه في سبيل الله لأن قريش حديثة عهد بجاهلية، ففي صحيح مسلم: (لولا أن قومك حديثو عهد بكفر، لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله).
وقد أراد عمر بن الخطاب ﷺ أن يستخرجه ويقسمه، وفي ذلك يقول: (لقد هممت أن لا أدع فيها صفراء ولا بيضاء إلا قسمته) فقال له طلحة بن عثمان، وهو من بني عبدالدار: «إن صاحبيك لم يفعلا، قال: هما المرآن أقتدي بهما» [البخاري: ١٥٩٤]. وانظر ما قاله ابن حجر في هذا الحديث وأن عمر أراد به كنز الكعبة [فتح الباري: ٣/ ٥٧٦].
٤- صفة ذي السويقتين الملك الحبشي الأصيلع الأفيدع الذي يكون خراب الكعبة على يديه آخر الزمان.

القِصَّةُ المتمِّمَةُ للخمسين
الراعيان اللذان ينعقان بغنمهما فيجدانها وحوشا

تمهيد

هذه الواقعة التي يصفها الحديث تقع في آخر الزمان، عندما يرحل عن المدينة أهلها تاركيها عامرة أسواقها، مثمرة أشجارها، صالحة بيوتها، عندما يحشرون منها إلى محشرهم، وآخر من يحشر من الأرض المحيطة بها هذان الراعيان يقصدانها بأغنامهما فيجدانها وحوشاً.

نص الحديث

عن أبي هريرةَ ﷺ قال: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: (تَتْرُكونَ المدينةَ على خَيرِ ما كانت، لا يغشاها إلاّ العَوافِ - يُريدُ عَوافيَ السِّباعِ والطَّيرِ - وآخِرُ مَن يُحشَرُ راعِيانِ مِن مُزَينةَ يُريدانِ المدينةَ يَنعِقانِ بغَنَمهما، فيَجِدانها وَحْشاً، حتى إذا بَلَغا ثنيَّةَ الوَداع خرّا على وُجوهِهما).

تخريج الحديث

رواه البخاري في كتاب فضائل المدينة، باب من رغب عن المدينة، [ورقمه: ١٨٧٤].

رواه مسلم في صحيحه في كتاب الحج، باب في المدينة حين يتركها أهلها [ورقمه: ١٣٨٩].

غريب الحديث

عوافي الطير : جمع عافية، وهي التي تطلب أقواتها.

ينعقان : يصيحان بغنمهما.

يجدانها وحشاً : وحوشاً كما جاء في بعض الروايات، والوحش ما توحش من الحيوان.

شرح الحديث

يحدثنا الرسول ﷺ عن بعض المشاهد التي تقع قرب قيام الساعة، فمن ذلك ما يقع للمدينة المنورة حين يتركها أهلها، صالحةً منازلها، زاهيةً حقولها وبساتينها، كثيرةً أسواقها ومتاجرها، ولكنها خاليةً من أهلها.

وعند ذلك تقصدها الوحوش، وحوش السباع والطير، فتصول وتجول في جنباتها، لا تجد من يدفعها ويطردها.

ولم تأتِ أحاديث تبين الوقت الذي يهجر فيه أهل المدينة مدينتهم، ولا السبب الذي هجروها من أجله، وقد كان حذيفة أعلم الصحابة بالفتن الواقعة في مستقبل الزمان، ولكنه لم يسأل الرسول ﷺ عن هذا الأمر، ففي الصحيح عن حذيفة قال: «أخبرني الرسول ﷺ بما هو كائن إلى يوم القيامة، فما من شيء إلا سألته، إلا أني لم أسأله: ما يُخرج أهل المدينة من المدينة» [مسلم: ٢٨٩١].

والذي يظهر لي أن السبب مذكور في الحديث في قوله ﷺ : (وآخر من يحشر راعيان من مزينة) فأهل المدينة حشروا قبل هذين الراعيين.

فالسبب في ترك أهل المدينة المدينة على هذه الحال أن أهلها حشروا، وهذا الحشر ليس هو بالحشر الذي يكون بعد البعث والنشور، وإنما هو حشر آخر يكون قبل وقوع القيامة، وهو إحدى علامات الساعة الكبار.

وقد جاء ذكر هذا الحشر في عدد من الأحاديث، فعن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : (ستخرج نار من حضرموت، أو من نحو بحر حضرموت قبل يوم القيامة، تحشر الناس، قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال عليكم بالشام) [قال الترمذي فيه: هذا حديث حسن غريب صحيح].

وذكر الرسول ﷺ أشراط الساعة العشرة التي لا تقوم الساعة حتى تقع، وذكر أن (آخرها نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم) [مسلم: ٢٩٠١].

وهذه النار وإن كان أول ظهورها من بحر حضرموت إلا أنها تنتشر في الديار كلها، وتحشر الأحياء من البشر كلهم، وهي تخرج من موضع قرب المدينة، فتحشر أهل المدينة ومن في جهتها، ففي مسند أحمد بإسناد صحيح أن الرسول ﷺ قال: (يُوشك أن تخرج نار من حِبْسِ سَيْلٍ (وحبس السيل: الموضع الذي يجتمع في السيل، ويوجد منه في المدينة موضع في حرة بني سليم) تسير سير بطيئة الإبل، تسير النهار، وتقيم الليل، تغدو وتروح، يقال: غدت النار أيها الناس فاغدوا، قالت النار، أيها الناس فأقيلوا، راحت النار أيها الناس فروحوا من أدركته أكلته) [مسند أحمد: ١٥٦٣٥].

والراعيان المذكوران في الحديث هما من الديار القريبة من المدينة لا يدريان بما جرى للناس في تلك الأيام، وبينما هما متجهين إلى المدينة كما

كانا يفعلان من قبل، وهما في ذلك يفعلان كما يفعل الرعاة من الصراخ على الأغنام إذا شذت غنمة أو أكثر عن القطيع، وكذلك لإسراع الأغنام في سيرها، إذا بالأغنام تتحول إلى وحوش، فلا تستجيب لهما كما كانت تفعل من قبل، وتأخذ تفرّ في الاتجاهات كلها، ويبدو أن كل الحيوان يصبح كذلك في ذلك الزمان، فإذا بلغ الراعيان بها ثنية الوداع، وهي موضع على مسافة ليست ببعيدة من المدينة خرّا على وجوههما.

ويظهر لي – والله أعلم – أن اليوم الذي تصبح فيه الأغنام وحوشاً المذكور في هذه القصة، هو اليوم المراد بحديث الذئب الذي كلم الراعي حين استخلص منه الشاة، والحديث في الصحيحين من رواية أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ : (بينما راعٍ في غنمه، عدا عليه الذئب، فأخذ منها شاة، فطلبه الراعي حتى استنقذها منه، فالتفت إليه الذئب فقال له: من لها يوم السبع، يوم ليس لها راعٍ غيري) [البخاري: ٣٦٩٠، ومسلم: ٢٣٨٨].

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- هجرة أهل المدينةِ من المدينة في آخر الزمان قرب وقوع الساعة، وسكنى السباع المفترسة والطيور الجارحة المدينة في ذلك الزمان.
٢- ذكر آخر من يحشر من جهة المدينة إلى محشر الناس وهو بلاد الشام، وهما راعيان من مزنية.
٣- تتوحش الحيوانات المستأنسة قبيل قيام الساعة، فأغنام الراعيين صارت وحوشاً.

* * *

القصة الحادية والخمسون
تقوم الساعة والرجل قد رفع اللقمة إلى فيه فلا تصل إلى فمه

تمهيد

هذا الحديث يصور مشهد الناس في لحظة وقوع الساعة، حيث تتوقف حياتهم جميعاً في لحظة واحدة، ولا يستطيع أحد أن يتم عمله الذي يقوم به لحظة وقوعها.

نص الحديث

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لَتَقُومنَّ الساعة وقد نَشرَ الرجُلان ثوبَهما بينهما فلا يَتبايعانِه ولا يَطويانِه. ولتقومنَّ الساعة وقد انصرَفَ الرجُلُ بلبنِ لِقحتهِ فلا يَطعمهُ. ولتقومنَّ الساعة وهو يَليط حَوضَهُ فلا يسقي فيه. ولَتقُومنَّ الساعة وقد رَفعَ أحدُكم أكلتَهُ إلى فيهِ فلا يَطعَمُها).

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق، باب ٤٠ [ورقمه: ٦٥٠٦] وفي كتاب الفتن، باب ٢٥ [ورقمه: ٧١٢١].

ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الفتن، باب قرب الساعة، [ورقمه: ٢٩٥٤].

غريب الحديث

لقحته : اللقحة ذات الدر من النوق.

يليط حوضه : يطيِّنه ويصلحه.

شرح الحديث

تأتي الساعة بغتةً كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ [الحج: ٥٥].

وهي تأتي سريعاً كما قال عز وجل: ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [النحل: ٧٧]، وقال في أخرى: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

تقع الساعة والناس غافلون عنها، فهم منتشرون في طول الأرض وعرضها، بعضهم قائمون في أسواقهم يتبايعون، وآخرون يزرعون ويحرثون، وأقوام مسافرون، وبعضهم يفرحون ويمرحون، ومنهم نائمون، ومنهم على الشواطئ والمنتزهات يلعبون، وإذا بالصيحة تأتي بغتة فتصرعهم في لحظة واحدة، فلا اللذين يتبايعان الثوب يتمان بيع ثوبهما، ولا يطويانه، ولا الذي حلب ناقته يستطيع شرب ما حلبه منها، ولا الذي رفع لقمته إلى فيه يستطيع إيصالها إلى فمه، ولا الذي يليط حوضه يستطيع سقي أنعامه فيه. وتأخذ من أمثلة الرسول ﷺ ما يضارعها ويشبهها.

فالذي يسرح شعره لا يجد وقتاً لإتمام تسريحه، والذي يلبس ثوبه لا يستطيع إتمام لبسه، والذي يضرب خصمه لا يستطيع إتمام ضربه، والتي تلد مولودها لا تستطيع إتمام ولادتها، والتي تكنس بيتها لا تستطيع إتمام كنسه.

والذين يتاجرون في أسواقهم، تتوقف أعمالهم جميعاً على اختلافها وتنوعها، فلا يستطيعون إتمامها. إنها الساعة تأتي بغتةً بسرعة خارقة، تأخذ الناس جميعاً أينما كانوا، وحيث حلوا، فيهلكون هلاك رجل واحد، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- سرعة هلاك الناس لحظة وقوع الساعة، حتى لا يستطيع من رفع اللقمة أن يأكلها.
٢- يبقى الناس حتى لحظة وقوع الساعة، يتبايعون، ويربون الإبل، ويشربون لبنها، ويسقونها في الحياض، ويأكلون ويشربون ويلبسون.
٣- غفلة الناس عن الساعة في آخر الزمان، فمع ظهور الآيات العظام، من طلوع الشمس من مغربها، ووقوع الخسوف العظام، وظهور الدابة وغيرها، يبقى الناس غافلون حتى تأتيهم الساعة بغتةً وهم لا يشعرون.
٤- لابد لهذه الحياة من نهاية، فيهلك العباد، ويدمر الكون.

* * *



المراجع

١- أشراط الساعة في مسند الإمام أحمد وزوائد الصحيحين، خالد بن ناصر الغامدي، دار الأندلس الخضراء، جدة، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ،١٩٩٩م.

٢- أحكام الجنائز، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٣٨٨هـ،١٩٦٩م.

٣- البرهان في علامات مهدي آخر الزمان، علي بن حسام المشهور بالتقي الهندي، دراسة وتحقيق: جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ،١٩٨٨م.

٤- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي محمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري، دار البخاري، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ،١٩٩٧م.

٥- البداية والنهاية، لابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٧م.

٦- ترتيب أحاديث الجامع الصغير وزيادته، ترتيب: عوني نعيم الشريف، مكتبة المعارف، الرياض.

٧- جامع الأصول في أحاديث الرسول، للمبارك بن محمد بن الأثير الجزري، حققه: عبدالقادر الأرناؤوط، الناشر: مكتبة الحلواني وآخرون، الطبعة الأولى، ١٣٩٢هـ،١٩٧٢م.

٨- الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، شيخ الإسلام ابن تيمية، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٩- سنن أبي داود، تحقيق: محيي الدين عبدالحميد، الطبعة الثانية ١٣٦٩هـ، ١٩٥٠م.
١٠- سنن الترمذي، بيت الأفكار الدولية، الأردن
١١- سنن النسائي، بيت الأفكار الدولية، الأردن.
١٢- السنن الواردة في الفتن، أبو عمرو بن سعيد المقرئ الداني، بيت الأفكار الدولية، الأردن.
١٣- سنن ابن ماجه، طبعة بيت الأفكار الدولية.
١٤- شرح النووي على صحيح مسلم، دار الخير، دمشق وبيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ،١٩٩٤م.
١٥- صحيح البخاري. (الجامع الصحيح) اعتمدت على متن فتح الباري، مكتبة دار السلام، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ،١٩٩٧م.
١٦- صحيح سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني، إشراف: زهير الشاويش، الناشر: مكتب التربية العربي لدولة الخليج، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ،١٩٨٩م.
١٧- صحيح سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، إشراف زهير الشاويش، الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ،١٩٨٨م.
١٨- صحيح سنن النسائي، مكتب التربية العربي، توزيع المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ،١٩٨٨م.
١٩- صحيح سنن ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني، إشراف: زهير الشاويش، الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ،١٩٨٨م.

٢٠- صحيح القصص النبوي، لمؤلف هذا الكتاب، دار النفائس، عمان، الأردن، الطبعة السادسة، ١٤٢٢هـ،٢٠٠١م.
٢١- صحيح مسلم بن الحجاج، (الجامع الصحيح)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي.
٢٢- صحيح موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، ناصر الدين الألباني، دار الصميعي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ،٢٠٠٢م.
٢٣- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن حجر العسقلاني، مكتبة دار السلام، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ،١٩٩٧م.
٢٤- قاموس الكتاب المقدس، هيئة التحرير، بطرس عبدالملك وآخرون، دار الثقافة، القاهرة، الطبعة التاسعة.
٢٥- قصة المسيح الدجال ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام، محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
٢٦- الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.
٢٧- لسان العرب لابن منظور، دار لسان العرب، بيروت، إعداد يوسف خياط ونديم مرعشلي.
٢٨- مختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر الرازي، دار المعارف، مصر.
٢٩- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ،٢٠٠١م.
٣٠- الموطأ، مالك بن أنس، دار الاتفاق الجديدة، المغرب، الثالثة، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
٣١- النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، المكتبة العلمية، بيروت.

٣٢- النهاية في الفتن والملاحم، لابن كثير، الدار العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٤هـ،١٤٢٤م.

٣٣- اليوم الآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام، لفرج الله عبدالباري، دار الوفاء للطباعة، المنصورة، مصر، الطبعة الثانية، ١٤٤٢هـ،١٩٩٢م.